الفوائد المشوّق إلى
علوم القرآن
وعلم البيان

تأليف

الإمام العالم شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابي بكر
ابن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم إمام الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ

حققت أصوله وضبطه جماعة من العلماء بإشراف الناشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٣٦٦١٣٥
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

(رب يسر)

قال الشيخ الامام العالم العلامة . الحبر البحر الفهامة . سيد الحفاظ . وفارس المعاني والألفاظ . مفسر القرآن . ذو الفنون البديعة الحسان . أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية رحم الله روحه ، ونوّر ضريحه *

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً . وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً . فهدى بنوره من الضلالة وبصر به من العمى . وأرشد به من الغيّ . وفتح به أعيناً عمياً . وآذاناً صماً . وقلوباً غلفاً .

(**وبعد**) فإن الله تفضل على هذه الأمة أن جعلهم عدولاً خياراً ، وجعلهم شهداءَ في أرضه شهداءَ على الناس يوم ترى الناس سكارى ، وبعث اليهم أقربهم اليه محبة وإيثاراً ، وأعظمهم لديه شرفاً ومقداراً ، وأنزل عليه كتابه المجيد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وحَسْبُهُمْ بذلك علواً وفخاراً ، وجعله نوراً وصراطاً مستقيماً ، وحث على تعلمه وعلمه ليعم بإحسانه ويؤتى من لدنه أجراً عظيماً ، وأقامه حجة على من ضل ومَحَجة لمن اهتدى ، وأودعه حكمة وموعظة وهدى ، ونصبه دليلاً على الحق لا يضعف ولا يهي ، وسبيلاً يصدر عنه كل رشد وإليه ينتهي ، وطريقاً تجلى بأسلاك نفائس الأعمال أهل سلوكها ، وبرهاناً واضحاً يزجرهم عن خلل انحلال عقائدهم وشكوكها ، وأودعه من الاعجاز ما لا يحصر بحصر حاصر ولا بعدّ عاد ، من الأمر والنهي والوعد والوعيد والحكم والأمثال والمواعظ وقصص القرون السالفة كأصحاب الرسّ وقوم عاد ، فكم في لفظه من إيجاز يسفّه حلم من يقول بلفظه ، وكم في معناه مغنٍ للجادّ في حفظه ، أبدعت في انواع البديع كلماته ، وأغربتْ في أجناس التجنيس سوره وآيته ، ورمت أرباب الفصاحة بالجمود والعِي فصاحته وجزالته ، وأخرستْ ألسنتهم الذربة فأعيتهم معارضته وإزالته فأقروا له بعد تسفيه أحلامهم وتقريعهم وتعجيزهم بالحلاوة والطلاوة ، وعلموا أنه ليس من كلام البشر ولكن غلبت عليهم الشقاوة ، هذا مع أنهم لم يتدبروا أكثر معانيه ، بل قالوا ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ طلبوا الغلَبَ وظنوا أنهم غالبون وأوسعوا الطلب فولوا وهم خائبون ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ أنزله بلسان العرب ليكون حجة عليهم ونسخ به جميع الكتب فكان انزاله أشد نازلة لديهم ، وجعل أعظم معجزاته دوام آياته ، متلواً بالألسنة باقياً مع بقاء الأزمنة ، محفوظة في الصدور منتقلة في الصحائف والمصاحف من لدن الرسول محروسة من التبديل والتغيير والزيادة والنقصان والذهول ، قرآناً لا يسأم منه تاليه ، مع تكراره وتواليه ، ولا يملُّه واعيه ، بل تتوفر على توقيره دواعيه ، في كل حين تظهر فيه من قضايا التنزيل ، وخفايا التأويل ، من نتائج أفكار الخلف ، غير ما جادت به فطن السلف ، كل حرف منه تتفجر به ينابيع من الحكمة ، وكل كلمة تمطر منها سحائب الرضوان

والرحمة ، وكل آية تحتوي على بحار من الإعجاز زواخر ، وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الأوائل والأواخر ، لم نجد له في الكتب السالفة نظيراً ، ولم تمدّ إليه كف معارض ، منازلاً كان أو مغيراً ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ .

فما رام أحد معارضته إلا عرضت له عوارض الغي واللكن ، ولا قصد مباراته إلا رمي بهُجْر القول وإن كان من أرباب اللسن ، وعوض من كلامه الفصيح باللفظ الركيك والمعنى القبيح ، قام إعجازه بتعجيزهم ، وتحققوا أنه ليس من تسجيعهم ولا ترجيزهم ، وصرفهم الإباء عن ترك دين آبائهم إلى الدنية ، وصرفتهم الحمية حمية الجاهلية ، عجزوا عن الإتيان بسورة أو آية وانتهوا من عنادهم في التكذيب به إلى غاية فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم ، وجعلهم لمن بعدهم آية ، فهو الصراط المستقيم ، والذكر العظيم ، والكتاب الحكيم ، والنور المبين ، والحبل المتين ، والعروة الوثقى، والآية العظمى ، وكلمات الله والذكرى والدرجة العليا ، وهو شفاء الغليل ، ودواء العليل ، والبرهان والدليل ، والبشير والنذير والبصائر والمثاني والقصص والتذكرة ، والأنباء والآيات المبصرة ، والحكم والبلاغ والتبصرة ، والبيان والتبيان ، والرحمة والبشرى والأمان ، والروح والحديث والتنزيل والميزان ، وحق اليقين والنبأ العظيم والمحفوظ والكتاب الكريم ، والقول الفصل والهادي والناطق والحق والغيب والمكنون والقول الثقيل والحسرة والعجب والصحف المطهرة والكتب القيمة والخيرة والكتاب العزيز ، والكتاب لا ريب فيه ، والمحكم والمتشابه والعصمة والإمام ، والأنس عند الوحشة والفزع ، والأمن عند الخوف والجزع ، والضياء يوم القتر والظلمة ، والكشف يوم الكرب والغمة ، من حكم به عدَل ، ومن عدل عنه هوت قدمه فزل ، ومن استعصم به عُصِمَ ومن استمطر منه الرحمة رحم .

(**ولما**) كان جامعاً لهذه المعاني المتفرقة ، محتوياً على بدائع المباني المشيدة والفنون المتأنقة ، وضروب من المقاصد الخفية والجلية ، وأنواع من خفايا أسرار **العوالم العلوية** والسفلية ، أنزله على خير رسول ، قلبه منبع الحكم ، وسمعه مقر صريف القلم ، وعقله قد استوى على سوقه واستتم ، ولسانه عن الذللِ والخطأ في منعة وعِصَمْ ، وبصره وبصيرته عنهما ما اختفى هدى ولا اكتتم ، فبلّغه مَنِ التبليغ مرامه ، وبيّن حلاله وحرامه ، وعيَّن فيه مراد الله من خلقه وأحكامه ، وعرّف فصه ونصه ، وأظهر عامّه وما خصه ، وأبدى ناسخه ومنسوخه ومحكمه ، وفهَّم متشابهه ومبهمه ، وجلا غوامضه وخفاياه ، وأوضح قصصه وقضاياه ، وأظهر عن أمثاله التي ليست لها أمثال ، وأعلم بخفي إشاراته التي هي أدقّ من السحر الحلال ، وأرق من العذب الزلال ، وأنبأ بكنايته التي هي أجمل من التصريح ، وصرح بحقيقته التي تسبق إليها الأذهان من غير تعريض ولا تلويح ، وأوجز مجازه الذي يغير تدبر لا تجيزه العقول ، ولو شاء لجعله هو والحقيقية سيان ، إلى غير ذلك من العلوم الظاهرة والفنون الباهرة .

(**خلا**) ما تضمنه من العلوم الباطنة ، والمعاني التي هي إلى الآن في كمائمها كامنة ، التي لم يُطلع الله عليها من خلقه أحداً ، والخفايا التي لم يُظهر عليها إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، فجزاه الله أحسن جزاء عنا ، وبلغه أفضل سلام منا وصلى الله عليه وعلى آله ما طلع نجم وبدا ، وما اخضَلَّ نجم برذَاذ وندا ، ورضي الله عن أصحابه ليوث غابه ، وغيوث سحابه .

(**فكتاب الله تعالى**) أشرف ما صُرفت إليه الهمم ، وأعظم ما جال فيه فكر ، ومد به قلم ، لأنه منبع كل علم وحكمة ، ومربع كل هدىً ورحمة ، وهو أجلّ ما تنسك به المتنسكون ، وأقوى ما تمسك به

المتمسكون ، من استمسك به فقد علقت يده بحبل متين ، ومن سلك سبيله فقد سار على طريق قويم ، وهدي إلى صراط مستقيم .

(وقد) أودع الله سبحانه ألفاظ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة وأجناس البلاغة وأنواع الجزالة وفنون البيان ، وغوامض اللسان ، وحسن الترتيب والتركيب ، وعجيب السرد وغريب الأسلوب ، وعذوبة المساغ ، وحسن البلاغ ، وبهجة الرونق ، وطلاوة المنطق ، ما أذهل عقول العقلاء ، وأخرى ألسنة الفضلاء وألغى بلاغة البلغاء من العذب وطاشت به حلومهم ، وتلاشت دونه علومهم ، وكلت ألسنتهم الذربة ، وأقصرت خطبهم المسهبة ، وقصائدهم المغربة ، وأراجيزهم المعربة ، وأسجاعهم المطربة ، فعلموا أن معارضته مما ليس في مقدورهم ولا وُسعهم ، ولا داخلاً في تقصيدهم ولا سجعهم ، وأن ذلك مسلوب ومصروف عن مفردهم وجمعهم ، وتركوا الطعن فيه عند تقصيد رماحهم ، وأذعنوا للاستماع له والعجز عند بعد تأبيهم وجماحهم ، مع قدحه في أربابهم ، وفدحه لألبابهم ، وتسفيهه لأحلامهم ، وتبطيله لأنصابهم وأزلامهم .

فأمسك ذوو الاحلام منهم عن اللغو فيه والاعتدا ، وأقبلوا على تدبره فهدى الله به من هدى ، ولم يقم على الطعن فيه ، وترك التدبر لمعانيه إلا من غلبت عليه الشقاوة ، وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فانتدبوا لمعارضته ومباراته ، ومماثلته ومجاراته ، فأوقعه غيّه في عيّه ولكنه ، وسقط في سقطات لسانه بعد بلاغته ولسنه ، وصار بعد أن كان فارس الفصاحة والبيان ، ومالك قصبات السبق في الرهان ، يضحك من لفظه من سمعه ، ويحط من قدره من رفعه ، وذهبتْ من لفظه تلك الجزالة ، وأعظم الله من ضروب الجزاء والخذية الجزاءَ له ، كل ذلك ليظهر لنا عظم قدر كلامه العظيم ، وأي رونق وبهجة للمُحْدَثِ

إذا قُرن بالقديم ، فمن جحد منهم إنما فعل ذلك عناداً وحسداً لإبائه أن يقدم عليه أحداً .

(**روي**) أن أبا جهل بن هشام هو والأخنس بن قيس ؛ والوليد بن المغيرة اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي به في بيته إلى أن أصبحوا ، فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا : إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه ، واستمعوا إلى ما يقوله ، واستمالهم وآمنوا به ، فلما كان في الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم ، وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا ، فلما تعالى النهار ، جاء الوليد بن المغيرة إلى الأجنس بن قيس فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا أقول ؟ قال : بنو عبد المطلب فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، قالوا : فينا السِّدانة ، قلنا : نعم قالوا : فينا السِّقاية قلنا : نعم ، يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي والله لا آمنت به أبداً .

(**وروي**) : أن الوليد بن المغيرة سمع من النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُر بالعَدْلِ والإحْسَان ﴾ الآية . فقال : والله إن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمعَذِق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر .

(**وقال أيضاً**) : لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ورأت أن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً ، فقالوا : نقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، ولا هو بزمزمته ، ولا سجعه ؛ قالوا : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، ولا بخنقه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، فقال : ما هو شاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه وقريضه ، ومبسوطه ومقبوضه ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفْثِه ولا عقده . قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا

شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق وأن أقرب القول إنه ساحر ، وأنه سحر يفرق به بين المرء وإبنه والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السُبل يحذرون الناس فأنزل الله تعالى في الوليد ﴿ ذَرْنِي ومن خلقت وحيداً ﴾ الآيات .

وانما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف علم اللغة وعلم العربية ، وعلم البيان ، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها ، ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها ، فعلم منها تلوينَ الخطاب ومعدوله ، وفنون البلاغة وضروب الفصاحة ، وأجناس التجنيس ، وبدائع البديع ، ومحاسن الحكم والأمثال ، فإذا علم ذلك ونظر في هذا الكتاب العزيز ، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة ، وفنون البيان فقد أوتي فيه العجب العجاب والقول الفصل اللباب والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب وتغلق دونها الابواب ، فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ، ليسبل رداء عجزهم عليهم ، ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم ، وكلَّت عن النطق بمثله السنة بلغائهم ، وبرز في رونق الجمال والجلال في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال ، ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الرَّوعة ، ما يملأ القلوب هيبة ، والنفوس خشية ، وتستلذ الأسماع وتميل إليه بالحنين الطباع ، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة ، عالمةً بما يحتويه أو غير عالمة ، كافرة بما جاء به أو مؤمنة . . وسنورد في كتابنا هذا أصولا مؤصلة وفوائد مفصلة من علم البيان ، وما ورد نظيره في القرآن ما تقف عليه ويعجبك عند النظر اليه :

(قال المصنف رضي الله عنه) :

وهذه الجملة التي تأصلت وتحصلت والفوائد التي بعد إجمالها

فصلت ، نقلتها من كتب ذوي الإتقان ، علماء علم البيان التي وقفت عليها ، وترقت همة اطلاعي إليهـا من كتب المتقدمين والمتـأخرين ، وهي : كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب الحالي والعاطل للحاتمي . وكتاب المحاضرة له . وكتـاب الصناعتين للعسكـري . وكتاب اللمـع للعجمي . وكتاب المثل السائر لابن الأثير . وكتاب الجامع الكبير لابن الأثير أيضاً . وكتاب البديع لأسامة بن منقذ . وكتاب العمدة للزنجاني . وكتاب نظم القرآن له أيضاً . وكتاب نهاية التأميل في كشف أسرار التنزيل لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري . وكتاب التفريع في علم البديع لزكي الدين عبد العظيم بن أبي الأصبع . وكل كتاب من هذه الكتب أخذ من كتب شتى مع ما أضفت إليها من فوائد مستعذبة ، وفرائد حسنة المساق مستغربة نقلتها عن الأمة الأعلام «الأكابر» ، ونقلتها عنهم من ألسنتهم لا من بطون الدفاتر ، وما أضفت إلى ذلك مما تفضل الله به ، ومنح من مهمل أبنته ومجمل فصلته ، وشارد قيدته وحصلته ليكمل بهذا الكتاب النفع ، ويأتي على نهاية من حسن الوصفْ وبديع الجمع ، وإحياء لعلم البيان المطلع على نكتب نظم القرآن الذي قد عفت آثاره ، وقلت أنصاره ، وتقاعدت الهمم عن تحصيله وضعفت العزائم عن معرفة فروعه فضلا عن أصوله ، فما علم من علوم الاسـلامية رمي بـالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان .

ولو أداموا النظر فيه ، والتلمح لمعانيه . لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهش لها القلوب ، ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب ، ومن لم يعرف هذا العلم كان عن فهم معاني الكتاب العزيز بمَعزل ، ولم يقم ببعض حقوق المنزَل والمنزِل ، ومن وقف على هذه الأصول التي أصلتها والفصول التي فصلتها ، ظهر له مصداق هذه الدعوى ، وأخذ من التوصل إلى معرفة هذا العلم بالسبب الأقوى ، وَحَسُنَ عنده موقعه ، وعظم في نفسه محله وموضعه . وخالطت قلبه بشاشة رونقه ، وجليت

في عينه نضارة نظائره وحسن مونقه .

(وكلام العرب) في خطبها وأشعارها ونثرها ونظامها منقسم إلى ثلاثة أقسام : ورد منها في الكتاب العزيز قسمان ، وقسم لم يرد منه فيه شيء وسأبين ذلك إن شاء الله تعالى .

القسم الأول

وهو ينقسم الى اربعة وثمانين قسماً

القسم الأول : في الكـلام على الفصاحـة والبلاغـة . والكلام عليهما من وجوه : الأول في حدهما . الثاني في اشتقاقهما . الثالث في التفرقة بينهما .

أما الأول في حدهما : فقد قال علماء هذا الشأن : إنّ حدّ البلاغة بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في نفسه ، مع الاحتراز من الايجاز المخل ، والتطويل الممل . . وقال قوم : البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ . . وقيل : البلاغة الايجاز مع الافهام والتصرف من غير اضجار . .

قال خالد بن صفوان : أبلغ الكَـلام ما قلّت ألفـاظه ، وكثـرَت معانيه ، وخير الكلام ما شوّق أوله إلى سماع آخره . . وقال غيره : انما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سابق لفظه معناه إلى قلبك .

وأما الفصاحة فهي خلوص الكلام من التعقيد .

الثاني في اشتقاقهما : قال علماء هذا الشأن : إن اشتقاق البلاغة من البلوغ إلى الشيء وهو الوصول إليه . ويجوز عندي أن يكون الكلام البليغ الذي بلغ من جودة الألفاظ وعذوبة المعاني إلى غاية لا يبلغ إلى

مثلها إلا مثله .

وأما الفصاحة فقالوا : اشتقاقها من الفصيح ، وهـو اللبن الذي أخذت منه الرغوة ، وذهب لباؤه يقال فصح الرجـل اذا صار كـذلك وأفصحت الشاة اذا فَصُحَ لبنها .

الثـالث في الفرق بينهمـا : قال قـوم من أربـاب علم البيـان : الفصاحة والبلاغة متعاقبان على معنى واحد . . وقال قوم : البلاغة في المعـاني والفصـاحـة في الألفـاظ . يقـال معنىً بليـغ ، ولفظ فصيـح (وليست) الفصاحة والبلاغة مختصين بالالفاظ العربية وانما يطلقان على كل ما لفظه غريب وفهمه قريب .

وإذا تقرر هذا فقد احتوى الكتاب العزيز على جمل من ذلـك أفرغت في قالب الجمال ، وأترعت لها كؤوس الاحسان والإجمال، وأتتْ على معظمها وأجلِّها ، واستوفت نصـاب ملكها ، لازمـةً علم البيان ، وأدلّها ، وأنا أذكرها نوعاً نوعاً ، وقِسماً قسما ، محلاً ببراهينه وشواهده ، سافراً عن نضارة وجوه نظائره وفوائده بعد استيفاء الكلام على الحقيقة والمجاز ، إذ الكلام لا يخلو عنهما أو عن أحدهما .

فنبدأ بالكلام على الحقيقة ، . والكلام فيها من ثلاثة أوجه : الأول : اشتقاقها . الثاني : حدها . الثالث : أقسامها .

أما الأول فالحقيقة فعيلةٌ بمعنى مفعولـة وفي اشتقاقهـا قولان . أحدهما: انها مشتقة من حقَّقَ الشيءَ يحققه اذا أثبته ، والآخر : أنها من حققت الشيء أحقه إذا كنت منه على يقين .

وأما الثاني : فلها حدان . الأول في المفـردات . والثاني في الجمل . . فأما حدها في المفردات : فهي كل كلمة أريد بها ما وقعت به في وضع واضع وقوعاً لا يُسند فيـه إلى غيره ، كـالأسد للحيـوان

المخصوص المعزوف . . الثاني حدها في الجمل : فهو كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل ، وواقع موقعه مثاله خلق الله العالم وأنشأ العالم ـ فأنشأ ـ واقعة موقع ـ خلق .

وأما الثالث فأقسامها ثلاثة : حقيقةٌ لغوية . وحقيقة شرعية . وحقيقة عرفية . . وهي على قسمين عامة وخاصة . فالعامة كاستعمال لفظ الدابة في الحمار ، وخاصة نحو استعمال لفظ الجوهر في المتحيز الذي لا ينقسم .

وأما المجاز فالكلام عليه أيضاً من خمسة أوجه : الأول : في المعنى الذي استعملت العرب المجاز من أجله . الثاني : في حدّه . الثالث : في اشتقاقه . الرابع : في علة النقل . الخامس : في أقسامه .

أما الأول فإن المعنى الذي استعملت العرب المجاز من أجله ميلهم إلى الاتساع في الكلام ، وكثرة معاني الالفاظ ليكثر الالتذاذ بها فإن كل معنى للنفس به لذة ، ولها إلى فهمه ارتياح وصبوَة ، وكلما دقَّ المعنى رقَّ مشروبه عندها وراق في الكلام انخراطه ، ولذ للقلب ارتشافه ، وعظم به اغتباطه ، ولهذا كان المجاز عندهم منهلاً مورداً عذبَ الارتشاف ، وسبيلا مسلوكاً لهم على سلوكه انعكاف ، ولذلك كثر في كلامهم حتى صار أكثر استعمالا من الحقائق ، وخالط بشاشة قلوبهم حتى أتوا منه بكل معنىً رائق ولفظ فائق ، واشتدّ باعهم في إصابة أغراضه فأتوا فيه بالخوارق وزينوا به خطبهم وأشعارهم حتى صارت الحقائق دثارهم ، وصار شعارَهم .

وأما الثاني : فحدّه على قسمين : حدٌّ في المفردات . وحدٌّ في الجمل . .

أما حده في المفردات فهو كل كلمة أريد بها غير ما وُضعت له في وضع واضعها . . وقيل : حده استعمال اللفظ الحقيقي فيما وضع له دالاً

عليه ، ثانياً لتسويته علاقة بين مدلول الحقيقة والمجاز . .

وأما حده في الجمل : فهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه بضرب من التأويل .

وأما الثالث : فاشتقاقه من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه وعدل عنه . فاللفظ إذا عدل به عما يوجبه أصل الوضع فهو مجاز على معنى أنهم جاوزوا به موضعه الأصلي أو جاوز هو مكانه الذي وضع فيه أوّلاً .

وأما الرابع : فالمعنى الذي وقع به النقل شيئان . أحدهما أن يكون المنقول عن معنىً وضع اللفظ بازائه أولاً من غير مناسبة ولا علاقة ، كالأعلام المنقولة ، وبهذا يتميز عن المشترك . الثاني : أن يكون ذلك النقل لمناسبة بينهما أو علاقة ، ولأجل ذلك لا توصف به الأعلام المنقولة ، لأنها مجازات مثلُ تسمية الرجل بالحجر ، فإنه ليس هذا النقل لتعلق بين حقيقة الحجر وبين ذلك الشخص ، وأما إذا تحقق الشرطان فإنه يسمى مجازاً ، وذلك مثل تسمية النعمة أو القوة باليد لما بينهما من التعلق فإن النعمة إنما تعطى باليد والقوة إنما تظهر بكمالها في اليد . . ومن ذلك أيضاً تسمية المزادة بالراوية ، وهي اسم للبعير الذي يحمل عليه في الأصل ، ومثل ما بين النبت والغيث والسماء والمطر حيث قالوا : رعينا الغيث يريدون النبت الذي الغيث سبب نشوء عادة ، وقالوا أصابتنا السماء ، يريدون أصابنا المطر . .

وقال قوم : المجاز لا يصح إلا بنسبة مع علاقة بين مدلول الحقيقة والمجاز ، وتلك النسبة متنوعة فإذا قوي التعلق بين محلي الحقيقة والمجاز فهو الظاهر الواضح ، وإذا ضعف التعلق إلى حدّ لم تستعمل العرب مثله ولا نظير له في المجاز ، فهو مجاز التعقيد ولا يحمل عليه شيء في الكتاب والسنة ، ولا يوجد مثله في كلام فصيح . وقد تقع علاقة بين الضعيفة والقوية ، فمن العلماء من يتجوز بها لقربها بالنسبة

إلى العلاقة الضعيفة ، ومنهم من لا يتجوز بها لانحطاطها عن العلاقة القوية ، وهذا مذكور في الكتب المختصة بأصول الفقه .

الخامس : أقسامه وهي كثيره . الأول : مجاز التعبير بلفظ المتعلق به عن المتعلق وأقسامه كثيرة . . وقد انتهت عدةُ ما احتوى عليه الكتاب العزيز الى أربعة وعشرين قسماً :

الاول : التجوز بلفظ العلم عن المعلوم كقوله تعالى : ﴿ ولا يُحيطون بشيء من علمه ﴾ أراد بشيء من معلومه . وكقوله تعالى : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي من المعلوم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ أي المعلوم .

الثاني : التجوز بلفظ المعلوم عن العلم وسيأتي بيانه وأمثلته .

الثالث : التجوز بلفظ المقدور عن القدرة مثل قولهم : رأينا قدرة الله أي مقدور الله : ومنه قوله تعالى : ﴿ صُنْع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ أي مصنوعه .

الرابع : التجوز بلفظ الإرادة عن المراد كقوله تعالى : ﴿ يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ والمعنى ويفرقون بين الله ورسله بدليل أنه قوبل بقولهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يقل ويريدون أن يفرقوا بين أحد منهم .

الخامس : التجوز بلفظ المراد عن الارادة كقوله تعالى : ﴿ وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ معناه وان أردت الحكم فاحكم بينهم بالعدل وفيه مجاز من وجهين . أحدهما التعبير بالحكم عن إرادته . والآخر التعبير بالماضي عن المستقبل .

السادس : اطلاق اسم الفعل على الجزء الأول منه ، وعلى الجزء الاخير منه ومثاله قوله تعالى : ﴿ وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى ﴾

أراد بالرمي المنفي آخر أجزاء الرمي التي وصل التراب به الى أعينهم وبالرمي المثبت شروعه في الرمي وأخذه فيه ، فيكون المعنى : وما أوصلت التراب إلى أعينهم إذ شرعت في الرمي وأخذت فيه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « صلى بي جبريلُ عَليهِ السَّلام الظُّهرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمسُ » أي شرع في الصلاة وأخذ فيها . « وصلى بي الظهر في اليوم الثاني حين صار ظل الشيء مثله » وأراد بذلك آخر أجزاء الصلاة وهو السلام . . وهذا من مجاز التعبير بلفظ الكل عن البعض ، وكذلك نظائره ، ويصحح هذا ما بين الإرادة والمراد من النسبة والتعلق ، ويجوز أن يكون المصحح كون المراد مسبباً عن الارادة ، فيكون تجوزاً باسم المسبب عن السبب بخلاف التعبير بالمعلوم عن العلم فإنه ليس مسبباً عنه ولا مؤثراً فيه .

السابع : التجوز بلفظ الأمل عن المأمول ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملًا ﴾ أي وخير مأمولا .

الثامن : التجوز بلفظ الوعد والوعيد عن الموعود من ثواب وعقاب وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ أفمنْ وَعدْناهُ وَعداً حَسناً فهو لاقيه ﴾ ومثله : ﴿ إنهُ كان وَعدُهُ مأتِيًّا ﴾ أي موعوده .

التاسع : إطلاق العهد والعقد على الملتزَم منهما ، وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأوْفوا بالعهد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأوْفوا بعهدي ﴾ عبّر بهذه العهود كلها عن موجبها ومقتضاها وهو الذي التزم بها .

العاشر : اطلاق اسم البشرى على المبشر به وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ بُشْرَاكم اليوم جناتٌ ﴾ وقال أبو علي : التقدير بشراكم اليوم دخولُ جنات أو خلود جنات ، لأن البشرى مصدر ،

والجنات جرم ، فلا يخبر بالجرم عن المعنى .

وقال الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام : لا حاجة إلى هذا التعسف لأن البشرى ليست عين الدخول ، ولا عين الخلود ، كما أنها ليست عين الجنات ، ولا بد من تأويله على كلا القولين بما ذكرناه ، وإلا كان خلفاً لأن البشرى قول ، ولا يجوز أن يخبر عن القول بأنه جرم ، ولا بأنه دخول ولا خلود .

الحادي عشر : اطلاق اسم القول على المقول فيه وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهةٌ كما تقولون ﴾ ومنه قوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرا ﴾ معناه وجب عليهم العذاب المقول فيه . ومنه قوله تعالى : ﴿ فبرأه الله مما قالوا ﴾ أي من مقولهم وهو الأدرة .

الثاني عشر : اطلاق اسم النبأ عن المنبأ عنه وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤ ن ﴾ .

الثالث عشر : اطلاق الاسم على المسمى ، وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ ما تعبدُون من دونِه إلا أسماءً سَميتموها ﴾ معناه ما تعبدون من دونه إلا مسميات . ومنه قوله تعالى : ﴿ سبّحِ اسمَ ربك الأعلى ﴾ أي سبح ربك الأعلى ، ولذلك نُقل عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا اذا قرأوها قالوا : سبحان ربي الأعلى . وقال عليه الصلاة والسلام : « اجعلُوهَا في سُجُودِكُم » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « بسمِ اللهِ الذي لا يَضُرُّ مع اسمِهِ شيءٌ في الأرض وَلَا في السَمَاءِ » .

ومن جعل الاسم هو المسمى في قوله : ﴿ بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴾ كان التقدير فيه أقرأ بالله أي بمعونته وبتوفيقه ، ومن جعله

التسمية كان التقدير أتبرك بذكر اسم الله ، وبهذا يُـرَد على من قدَّر ابتدائي ، أو بدأتُ باسم الله ، إذ لا وجه للتبريك على بعض الفعل دون سائره ، ولا لنسبة ابتداء الفعل إلى التوفيق دون سائره ، لأن الحاجة داعيةٌ الى التبرُّك والتوفيق في جميع الفعل دون انتهائه وابتدائه .

الرابع عشر : اطلاق اسم الكلمة على المتكلم به ، ومنه في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ أي لا مبدل لعذاب الله ، أو لا مبدل لمقتضى عذاب الله ، ومنهُ قوله تعالى : ﴿ ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ تجوز بالكلمة عن المسيح لكونه تكوَّن بها من غير أب بدليل قوله تعالى : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ ولا تنصف الكلمةُ بذلك ، وأما قوله اسمهُ المسيح فإنَّ الضمير فيه عائدٌ إلى مدلول الكلمة ، والمرادُ بالاسم المسمى فالمعنى المسمى المبشر به المسيح ابن مريم .

الخامس عشر : اطلاق اسم اليمين على المحلوف وهو في القرآن في موضعين أحدهما قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ أي ولا تجعلوا قسم الله أو يمين الله مانعاً لما تحلفون عليه من البر والتقوى بالصلاح بين الناس[١] .

السادس عشر : اطلاق اسم الحكم على المحكوم به وذلك قوله تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم بحكمه ﴾ أي بما يحكم به لكل واحد منهم من ثواب وعقاب فتجوز بالحكم عن متعلقه وهو المحكوم به ، وكذلك التعبير بلفظ القضاء عن المقضي به في قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك من سوء القضاء » أي من سوءِ ما قضيت به ،إذ لا

(١) سقط من الاصل ذكر الموضع الثاني

تصح الاستعاذة من قضاء الله ، لأنه صفة قديمة له لا يمكن تبديلها ولا تغييرها ، ومثله : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي فاصبر لما حكم به عليك ، وكذلك قول الداعي : اللهم رضني بقضائك ، أي بما قضيته لي أو عليَّ من غير معصية ، فإن المعاصي مقضية أيضاً ، وقد أمرنا الله تعالى بكراهتها فنمتثل أمر الله تعالى في كراهتها وإن وقعت .

السابع عشر : التجوز بلفظ العزم على المعزوم عليه وهو كثيرٌ في القرآن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي ان ذلك الصبر والغفر مما يعزم عليه من الأمور ، ومنهُ قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح ﴾ تجوز بالعزم عن المعزوم عليه لتعلقه به ومعناه ، ولا تعقدوا عقدة النكاح ، أو يكون التقدير ولا تعزموا على تنجيز عقدة النكاح .

الثامن عشر : التجوز بلفظ الهوى عن المهوي ، وهو في القرآن العظيم في موضعين أحدهما قوله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ معناه ونهى النفس عما تهواه من المعاصي ، ولا يصح نهيها عن هواها ، وهو ميلها لأنه تكليف ما لا يطاق إلا أن تقدر حذف مضاف معناه ونهى النفس عن اتباع الهوى ، فيكون من مجاز الحذف ، ومنهُ قوله تعالى : ﴿ أرأيتَ من اتخذ إلَههُ هواه ﴾ يحتمل أن يريد به بهواهُ لانهم كانوا يعبدون الصنم ، فإن استحسنوا غيره عبدوه وتركوا الأول ، ويحتمل أن يكون المراد به مجاز التشبيه ، فإن الانسان إذا طاوع هواه فيما يأتيه ويتركه فقد نزل الهوى منزلة المعبود المطاع .

التاسع عشر : اطلاق اسم الخشية على المخشيّ وهو في القرآن العزيز في قوله تعالى : ﴿ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ معناه هم من عقوبة ربهم خائفون .

العشرون : اطلاق اسم الحب على المحبوب وذلك قوله تعالى :

﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ معناه أحببت محبوب الخير عن ذكر ربي .

الحادي والعشرون : اطلاق اسم الظن على المظنون وهو في القرآن العظيم في موضعين . أحدهما قوله تعالى : ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ معناه أي شيء مظنونهم أهو الهلاك أو النجاةُ . الثاني قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ معناه ذلك الخلق الباطل مظنون الذين كفروا . وأما قوله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ ﴾ فيجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره اجتنبوا كثيراً من اتباع الظن إن اتباع الظن ذنبٌ ، ويجوز أن يكون تجوز بالظن عن المظنون وهو أمرهُ باجتناب فعل وقع منهم .

الثاني والعشرون : اطلاق اسم اليقين على المتيقن ، وهو في القرآن العظيم في موضعين . أحدهما قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ معناه واعبد ربك حتى يأتيك الموت لكل أحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ معناهُ : حتى أتانا الموت المتيقن لكل أحد .

الثالث والعشرون : اطلاق اسم الشهوة على المشتهي ، وهو في القرآن العظيم في موضعين . أحدهما قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ أي حب المشتهيات بدليل أنه قال : ﴿ من النساء والبنين ﴾ الثاني قوله : ﴿ ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴾ إن الذين يشتهون الفاحشة في أعراض الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، ولذلك أوجب عليهم في الدنيا الحد ، وفي الآخرة العذاب ولا يتعلق الحد بمجرد حب الاشاعة .

الرابع والعشرون إطلاق اسم الحاجة على المحتاج إليه ، وهو في

القرآن العظيم كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ معناه ما كان دخولهم يدفع عنهم من قضاء الله وقدره شيئاً ، ولكن طلب حاجة في نفس يعقوب قضاها ، ويحتمل ولكن حاجة في نفس يعقوب قضى متعلقها ، لأن الحاجة الحقيقية التي هي الافتقاد لا تقضى ، وإنما يقضى متعلقها الذي هو المحتاج اليه ، ومنه : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ معناه : ولا يجدون في قلوبهم تمني شيء يحتاجون إليه مما أعطيه المهاجرون .. وهذه الاقسام كلها من مجاز التعبير بلفظ المتعلق به ، أو من مجاز التعبير بلفظ المتعلق به عن المتعلق ومصحح المجاز فيه ما بينهما من النسبة .

القسم الثاني

اطلاق اسم السبب على المسبب وهو أربعة أقسام :

القسم الأول : قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ سمى عقوبة الاعتداء اعتداء لأنه المسبب عن الإعتداء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾ تجوز بلفظ الجناية عن القصاص ، فإنه مسبب عنها ، والتقدير جزاء جناية قبيحة عقوبة قبيحة مثلها في القبح ، وإن عبرت بالسيئة عما ساء أي أحزن لم يكن من هذا الباب ، لأن الإساءة تحزن في الحقيقة كالجناية . ومنه قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ تجوز بلفظ المكر عن عقوبته لأنه سبب لها . . ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقياً ، لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم خفية ، وهذا متحقق من الله تعالى لاستدراجه اياهم بما أجرى عليهم من نعمه مع ما أعد لهم من نقمه .

الثاني : اطلاق اسم الكتابة على الحفظ فإن الكتابة سبب لحفظ المكتوب ، وهو في القرآن العظيم في موضعين . أحدهما قوله تعالى : ﴿ سنكتبُ ما قالوا ﴾ أي سنحفظه ولا ننساه حتى نجازيهم به . والآخر قوله تعالى : ﴿ سنكتبُ ما قالوا وقتلهمُ الأنبياءَ ﴾ أي نحفظه عليهم فإن الملائكة قد كتبوا ذلك لما قالوا ، وقتلوا الأنبياء فاستعمل اللفظ المستقبل في حفظه دون كتابته ، (وأما) قوله تعالى : ﴿ أولئك كتبَ في قلوبهم الإيمانَ ﴾ فإنه تجوز بالكتابة عن الثبوت والدوام ، فإن الكتابة مستمرَّة

باقية في العادة ، (وأما) قوله تعالى : ﴿ إنّ المنافقين يُخادعون اللهَ وهو خادِعهم ﴾ ففيه مذهبان . أحدهما : أنه من مجاز الحذف تقديره إن المنافقين يخادعون رسول الله ، والله خادعهم ، فيكون خداعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقياً . وأما خدع الله إياهم ، فيجوز أن يكون من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ، ويجوز أن يكون من مجاز التشبيه معناه أنه عاملهم معاملة المخادع بما أخفاه عنهم من إرادة إضرارهم وإهلاكهم ، ويجوز ان يكون حقيقة بما ذكرناه في المكر ، ويتأتى أن يكون مخادعتهم لله من مجاز التشبيه بمعنى أنهم يعاملونه معاملة المخادع ويكون خدعهم من مجاز المعاملة ، ويجوز أن يكون من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ، فيكون من مجاز المجاز فإن مخادعتهم مجازية تجوز بها عن شبهها وكان اطلاق اللفظ من مجاز التشبيه .

الثالث : اطلاق اسم السمع على القبول وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمعَ ﴾ معناه ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به ، لأن قبول الشيء مرتب على استماعه ومسبب عنه ، ويجوز أن يكون نفي السمع لانتفاء فائدته فيصير كقولهم أنهم لا أيمان لهم أي لا وفاء ايمان لهم ... ومنه قول الشاعر :

وَان حَلَفتْ لا ينقضُ النأي عَهدَها ... فَليسَ لِمَخْضوبِ البَنانِ يمينُ

معناه : ليس لمخضوب البنان وفاء يمين .

الرابع : اطلاق اسم الايمان على ما نشأ عنه من الطاعة وهو في القرآن كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وما كان اللهُ لِيضيعَ إيمانِكم ﴾ معناه : ما كان الله ليضيع أجر صلاتكم إلى الصخرة قبل النسخ . ومنه قوله تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعضِ الكتابِ وتكفرُون ببعضٍ ﴾ معناه أفتعملون ببعض التوراة وهو فداء الأسارى فتجوز بالايمان عن العمل بما يوافق الكتاب ، لأنه مسبب عن الايمان وتتركون العمل ببعض وهو قتل

اخوانكم واخراجهم من ديارهم . ومنه قـوله صلى الله عليـه وسلم : « الايمانُ ،ضعٌ وسبعونَ شُعبةً أعلاها قولُ لا إلّه إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق » جعل القول وإماطة الأذى عن الطريق إيماناً لأنهما مُسببان عن الايمان .

القسم الثالث

اطلاق اسم المسبب على السبب وهو ثمانية أقسام :

القسم الأول : اطلاق اسم العقوبة على الإساءة والجناية . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وإن عاقبتمْ فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقِبتم به ﴾ معناه وإن أردتم معاقبة مسيء فعاقبوه بمثل ما بدأكم به من الإساءة فقوله ـ وان عاقبتم ـ من مجاز التعبير بلفظ الفعل عن ارادته وقوله ـ بمثل ما عوقبتم به ـ من مجاز التعبير بلفظ المسبب عن السبب وقوله ـ فعاقبوا ـ حقيقةٌ اكتنفها المجازان . وكذلك قوله : ﴿ ذلك ومَن عاقَبَ بمثلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغي عليه لينصُرَنهُ اللهُ ﴾ فعاقب حقيقةٌ وعوقب به من مجاز تسمية السبب باسم المسبب . ومن هذا النوع قول العرب : كما تَدينُ تُدانُ معناه : كما تفعل تجزى لأن الدين هو الجزاء فتجوّز به عن الجنايـة لأنه مسببٌ عنها . . وكذلك قول الشاعر :

ولـم يَـبْـقَ سِـوى الـعُـدْوَا　　نِ دِنّـاهـم كَـمَـا دَانُـوا

معناه : جزيناهم بما فعلوا فدناهم حقيقةٌ ودانوا مجاز .

القسم الثاني : اطلاق الأكل على الأخذ لمّا كان الأكل مسبباً عن الأخذ . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالَكم بينَكم بالباطل ﴾ معناه لا تأخذوا أموالكم بالسبب الباطل كالقمار ونحوه .

القسم الثالث : اطلاق اسم الغلبة على المقاتلة التي هي مسبّب

عنها . ومنه قوله تعالى : ﴿ إن يَكنْ منكم عشرون صابرون يَغلِبوا مائتينِ ﴾ عبر بلفظ الغلبة عن المقاتَلة ، لأن الغلبة مسببة عن المقاتلة .

الرابع : اطلاق اسم الرجز على عبادة الأصنام . ومنه قوله تعالى : ﴿ والرّجْزَ فاهجُر ﴾ تجوّز بالرجز وهو العذاب الشديد عن عبادة الأصنام ، لأن العذاب مسبب عنها (وأما) قوله تعالى : ﴿ ويُذْهبَ عنكم رِجزَ الشيطانِ ﴾ فهو من مجاز التعبير بلفظ المسبب عن سبب سببه ، لأن وساوس الشيطان سبب لمعصية الرحمن ، ومعصية الرحمن سبب لعذاب الديان ، فبان أن الوسوسة سبب للمعصية ، والمعصية سبب للعذاب ، ويجوز أن تجعل الوسوسة نفسها رِجزاً لمشقتها على أهل الايمان ، وكلما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز . . قال أبو عبيد الرجز والرجس : هما العذاب الشديد . وكذلك ما أشبهه .

الخامس: اطلاق اسم المغفرة على التوبة . ومنه قوله تعالى : ﴿ واللهُ يدْعو الى الجنة والمغفرةِ بإذنِه ﴾ تجوّز باسم المغفرة عن التوبة .

السادس : اطلاق اسم الكبرياء على المُلك لأنها مسببةٌ عن الملك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتكونَ لكُما الكبرياءُ في الأرض ﴾ .

السابع : اطلق اسم القوة على السلاح ، لأن القوّة على القتال تكون عنها . ومنه قوله تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّةٍ ﴾ لأن القوة على قتالهم مسببة عن الأسلحة فسماها باسم مسببها ، أو يكون ذلك من مجاز الحذف تقديره وأعدوا لهم ما استطعتم من أسباب قوة أو من أدوات قوة .

الثامن : اطلاق اسم الاعطاء والإيتاء على الالتزام فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فلا جُناحَ عليكمْ اذا سَلَّمتُمْ ما آتيتمْ بالمعروف ﴾ معناه اذا سلمتم ما التزمتموه بالمعروف لمّا كان التسليم مسبباً عن الإلتزام عُبر به عنه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا جُناحَ عليكم أن تَنكِحوهنَّ إذا آتيتمُوهنَّ اجورَهنَّ ﴾ أي اذا التزمتم لهن مهورهن . . ويحتمل أن يكون

من مجاز الحذف تقديره اذا آتيتم أهلهن مهورهن ولا يدلّ قوله فانكحوهن بإذن أهلهن على صحة النكاح بغير وليّ ، لأنه لم يذكر المأذون له ، ويجوز أن يكون المراد الوكيل ، ويجوز ويحتمل أن تكون المرأة وحمله على الوكيل أولى ، لأن الغالب في الأنكحة أنه يتولى ذلك الرجال دون النساء ، فيجب الحمل على الغالب لأن مباشرة المرأة النكاح في غاية الندور ، فلا يجوز حمل الكلام عليه اذ لا يوجد لمثل هذا نظير في كلام العرب من أنهم أرادوا بيان شيء والارشاد الى مصلحة فيبينوه بأن أحواله مع الاستغناء عنه ، ويهملوا الأغلب مع مسيس الحاجة إليه .

القسم الرابع

اطلاق اسم الفعل على غير فاعله لمّا كان سبباً له وهو أربعة أقسام :

الأول : نسبة الفعل إلى من كان سبباً له . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قل هو مِن عند أنفسكم ﴾ وهو من عند الله على الحقيقة ، ولكنه نسب ما أصابهم من قتل اخوتهم الى سببه . ومنه قوله تعالى : ﴿ فلأنفسهمْ يَمْهَدُون ﴾ والماهد هو الله على الحقيقة ، ولكنه نسب اليهم تمهيد المرقد لتسببهم اليه بالعمل الصالح .

الثاني : اطلاق نسبة الفعل على سبب سببه وهو في القرآن كثير . ومنه قوله تعالى : ﴿ ربَّنا مَن قدَّمَ لنا هذا فزِدْهُ عذاباً ضِعفاً في النارِ ﴾ نسبوا صُلِيّ النار إلى سبب سببه لأن الكبراء أمروهم وهم امتثلوه والمقدّم على الحقيقة هو الله تعالى ، وسبب كفرهم أمر رؤسائهم اياهم بالكفر . ومنه : ﴿ فأخرَجَهما مما كانا فيه ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ كما أخرَجَ أبويكم مَن الجنة ﴾ ومنه : ﴿ فلا يُخرِجنَّكما منَ الجنةِ فتشقَى ﴾ المخرج والنازع على الحقيقة هو الله تعالى .

الثالث : نسبة الفعل الى الآمر به ، وهو في القرآن كثير . منه قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقةُ فاقطَعوا أيدِيهما ﴾ ومنه : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلدُوا كلَّ واحدٍ منهما ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ فاجلدوهم ثمانين

جَلدَةً ﴾ فان كان هذا أمراً للوُلاة فهو أمرٌ بالأمر باقامة الحدود ، وان كان أمراً لمستوفى الحقوق أو مباشرها فهو حقيقة (فأما) قوله : رَجمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً والغامدية . وقوله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقَت لقطعتُ يدها . فكل ذلك من باب نسبة الفعل الى الآمر به . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ونادى فِرْعونُ في قومه ﴾ أي أمر من ينادي في قومه .

الرابع : نسبة الفعل إلى الآذن فيه وهو في القرآن كثير . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأخذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ الآخذ على الحقيقة هو الوليّ ، والمرأة الآذنة فيه ،وهذا أخذ مجازي ونسبته اليهن مجازية أيضاً كما ذكرناه . . وقد اختلف في الميثاق فقيل : إنه العقد ، وقيل : انه قول الوليّ زوَّجتك على ما أمر الله به من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا تَعضُلوهنَّ أن يَنكِحنَ أزواجَهنَّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإن طلَّقَها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكحَ زوْجاً غيرَهُ ﴾ نسب النكاح اليهن لإذنهن فيه وهذا على قول من قال ان المرأة العاقلة البالغة الثيب لا تنكح نفسها . وأما على قول من قال انها تنكح نفسها فهو حقيقة فيهن مجاز فيما سواهن .

القسم الخامس

الأخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم ، وفي خطابهم بما يتعلق ببعضهم وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعـالى : ﴿ ثم اتخذتُم العجلَ من بعدِه وأنتم ظالمون ﴾ معناه ثم اتخذ العجل بعض أسلافكم فإن جميع الخلف والسلف لم يتخذوا العجل إلَهاً ، وإنما وُجد من بعضهم فصار هذا كقول امرىء القيس :

فَـإنْ تَـقْـتُـلُونـا نُـقـتّـلْـكُـم وإنْ   تَـقْـصِـدُوا لِـدَمٍ نَـقْـصِـدِ

معناه : فإن قتلتم بعضنا نقتّلكم إذ لا يتصوّر أن يقتلوهم بعد استيعاب جميعهم بالقتل ، وهذا الباب كله من مجاز الحذف ، وله قاعدة يتفرع عليها ، وهي إن كان البعض واحداً كان التقدير وإذ فعل أحدكم . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ وان كان البعض أكثر من واحد كان التقدير ، وإذا فعل بعضكم . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وإذْ قلتمْ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرَى اللّهَ جَهرَةً ﴾ وكان القائلون لذلك سبعين ، ومن زعم أنه نسب الفعل إليهم لأنهم رضوا به لا يستقيم قوله لأنا نعلم أنهم لم يتفقوا على الرضى في قتل النفس ولا بإتخاذ العجل ولا بقولهم ـ ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ـ ولا بقولهم : ﴿ لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ وأيضاً فان نسبة الفعل الى الراضي به مجاز وإلى فاعله

حقيقة فإذا حمل ـ على ـ عليهما كان حملاً على حقيقة غالبـة ومجاز مغلوب ، وذلك لا يجوز .

القسم السادس

اطلاق اسم البعض على الكل وهو سبعة عشر قسماً :

الأول : التعبير بالقيام عن الصلاة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قمِ الليلَ إلا قليلا ﴾ أي صلّ الليل إلا قليلا . وقوله تعالى : ﴿ لا تقُمْ فيه أبداً ﴾ أي لا تصلّ فيه أبداً .

الثاني : التعبير بالركوع عن الصلاة وهو في قوله تعالى : ﴿ واركعي مع الراكعين ﴾ أي صلي مع المصلين . وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيلَ لهُم اركَعوا لا يَرْكَعون ﴾ أي وإذا قيل لهم صلوا لا يصلون .

الثالث : التعبير عِنها بالسجود . وذلك في قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فاسجد له﴾ أي فصلّ له . ومنه قوله تعالى : ﴿فإذا سَجدُوا فليكونوا مِن وَرائكم ﴾ أي فاذا صلوا فليكونوا من ورائكم . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَتلون آياتِ اللهِ آناءَ الليل وهمْ يسجدون ﴾ أي وهم يصلون لأن التلاوة منهيٌّ عنها في السجود الحقيقي فلا يصح المدح فيما نهي عنه .

الرابع : التعبير عنها بالقراءَة في قوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ وفي قوله : ﴿ فاقرَأُوا ما تيسَّر من القرآنِ ﴾ .

الخامس : التعبير عنها بالتسبيح في قوله : ﴿ وسبّحْهُ ليْلاً طويلاً ﴾ وفي قوله : ﴿ وسبّحْ بحمد ربّكَ قبلَ طُلوعِ الشمسِ وقبلَ الغرُوبِ ﴾ وفي قوله : ﴿ وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً ﴾ وأمثاله في القرآن كثير .

السادس : التعبير عنها بالذكر في قوله : ﴿ واذكُرِ اسمَ ربك بُكرَةً وأصيلاً ﴾ وفي قوله : ﴿ فإذا أمِنتمْ فاذْكُروا اللهَ كما علَّمكمْ ما لم تكونوا تعلمون ﴾ معناه فإذا أمنتم فصلوا لله .

السابع : التعبير عنها بالاستغفار في قـوله ﴿ وهم يستغفـرون ﴾ وحمله بعضهم على الحقيقة .

الثامن : التعبير بالذقن عن الوجه في قـوله تعـالى : ﴿ يخرُّون للأذقان سُجداً ﴾ وفي قوله : ﴿ يخرُّون للأذقانِ يبكون ﴾ أي للوجوه .

التاسع : التعبير بالأنف عن الوجه في قوله تعالى : ﴿ سَنسِمُهُ على الخرْطوم ﴾ .

العاشر : التعبير بالرقبة عن الجملة في قوله تعالى : ﴿ فتحريـرُ رقَبةٍ ﴾ وفي قوله : ﴿ وفي الرِّقابِ ﴾ وفي قوله : ﴿ فظلَّتْ أعناقهم لها خاضعين ﴾ فإن هذه الأفعال لا تختصّ بالرقاب بل تعمّ الأجساد وكذلك ما أشبهه .

الحادي عشر : التعبير باليدين عن الجملة وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدَّمتْ يَداك ﴾ .

الثاني عشر : التعبير باليمين عن الجملة . ومنـه قولـه تعالى : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ .

الثالث عشر : التعبير بالعضـد عن الجملة في قوله تعالى : سنشُدُّ عضُدَك بأخيكَ ﴾ .

الرابع عشر : التعبير بالأصابع عن الكف والأرجل كقوله تعالى : ﴿ فاضربوا منهم فوقَ الأعناق واضربوا منهم كلَّ بَنان ﴾ .

الخامس عشر : التعبير بالوجه عن الجسد . ومنه قوله عز وجل : ﴿ وُجوهٌ يوْمئذٍ ناضرَةٌ الى ربها ناظرة ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ وُجوهٌ يوْمئذٍ

عاملةٌ ناصبةٌ تَصلى ناراً حاميةً ﴾ عبر بالوجوه عن الأجساد لأن العمل والنصب صفتان للأجساد .

السادس عشر : التعبير بالمسجد الحرام عن الحرم كله في قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ (**ويجوز**) أن يكون من مجاز الحذف تقديره فلا يقربوا حرم المسجد الحرام .

السابع عشر : التعبير بمكة عن الحرم كله في قوله عليه الصلاة والسلام : « إنّ الله حَرَّمَ مَكَّةَ يَومَ خَلَقَ السَموَاتِ والأرضَ لا يُنفَّرُ صيدها ولا **يعضد** شَجرَها » . ومعلوم أن البلد نفسه لا صيد فيه مباح ولا شجر أيضاً (**وأما**) قوله تعالى : ﴿ ثم محلها ﴾ فإنه تجوّز بالبيت العتيق عن الحرم كله إذ لا يجوز النحر فيما اتصل بالبيت من المسجد المحيط (**ويجوز**) أن يكون من مجاز الحذف تقديره ، ثم محلها إلى حرم البيت العتيق .

القسم السابع

اطلاق اسم الكل على البعض وهو أحد عشر قسماً

الأول : قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ ومعلومٌ انه لم ير جملتهم وإنما دائر وجوههم وما يبدأ منهم .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ فأمسحوا برؤسكم ﴾ على قول من قال استيعاب مسح الرأس ليس بواجب .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ وانما جعلوا بعض أناملهم .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مِصر ﴾ ومعلومٌ أنهم لم يستوعبوها .

السادس : قولهم : « خرجت من المسجد » ومثله في القرآن كثيرٌ .

السابع : وصف البعض بوصف الكل وهو في قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ .

الثامن : قوله تعالى : ﴿ لنسْفَعَنْ بالنّاصية ناصية كاذبة خاطئة ﴾ الخطأ صفة للكل فوصفت به الناصية (وأما) قوله ـ كاذبة ـ فالكاذب على

الحقيقة هو اللسان ونسبة الكذب إلى الإنسان من مجاز وصفه بصفة بعضه وتجوز عن هذا المجاز بأن وصفت به الناصية فيكون مجازاً عن مجاز .

التاسع : نسبة الظن إلى الوجوه في قوله تعالى : ﴿ تظن أن يُفعل بها فاقرةً ﴾ فإن الظن وصفٌ للقلوب على الحقيقة ، ويضاف إلى الأجساد على التجوز فيكون مجازاً عن مجاز .

العاشرُ : وصف الوجوه بالخشوع فإن محل الخشوع القلوب ، ثم توصف به الجملة ، ثم توصف الوجوه بصفة الجملة .

الحادي عشر : وصفها بالرضى في قوله تعالى : ﴿ لسعيها راضيةٌ ﴾ وصف لها بصفة القلوب وهذا كله من مجاز القلوب .

القسم الثامن

في التجوز بوصف الكل بصفة البعض وهو أربعة أقسام :

الأول : من ذلك قوله تعالى : ﴿ إنا منكم وجِلُونَ ﴾ والوجل الخوف ومحله القلب ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ لو آطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ والرعب انما يملأ القلوب فنسب إلى الأجساد ووصف القلوب بالامتلاء مجازٌ أيضاً .

الثالث : قولك زيدٌ عالم وجاهلٌ وراغبٌ وخائفٌ وآمنٌ ومتفكرٌ وشاكٌ ومتذكرٌ وعاقلٌ ولينٌ وقاس وقانعٌ فهذه كلها من أوصاف القلوب ، وقد وصفت بها الجملة .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون بشيراً ونذيراً ﴾ وصف القرآن بالبشارة والنذارة وكلاهما بعض من أبعاضه لاشتماله على الأمر والنهي ، والحدود والحلال والحرام وسائر الأحكام ونسبة البشارة والنذارة إليه مجازيةٌ أيضاً .

القسم التاسع

ق اسم الفعل على مقاربه ومساوقه وهو قسمان :

الأول : قوله تعالى ﴿ واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ﴾ معناه وإذا طلقتم النساء فقاربن انقضاء عِدَدِهن وشارفنه فأمسكوهن بمعروف

الثاني : قوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون ازواجاً ﴾ معناهُ والذين يقاربون الوفاة وتركَ الأزواج ويشارفونها . . وكذلك ما أشبهه .

القسم العاشر

اطلاق اسم الشيء على ما كان عليه وهو قسمان :

الأول : من ذلك قوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ معناه الذين كانوا يتامى إذ لا يتُمَ بعد البلوغ .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ ولا تعضُلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ معناه : الذين كانوا أزوجهن لأنها نزلت في معقِل بن يسار وأخته لما حلف أنه لا يزوجها من زوجها عبد الله بن رواحة .

القسم الحادي عشر

اطلاق اسم الشيء بما يؤول اليه وهو قسمان :

الأول : من ذلك قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ أي فيمن يقتل من القتلى .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ أي أعصر عنباً . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾

القسم الثاني عشر

اطلاق اسم المتوهم على المحقق وهو خمسة أقسام :

الأول : من ذلك قوله تعالى : ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ أي في ظنكم وحسبانكم

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ أي في ظن الناظر اليهم وحسبانه .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم ﴾ ولم يصر كالعرجون القديم إلا في الحسبان والظن ورأي العين . . وكذلك تقديره منازل إنما هي منازل من رأي العين فإن القمر في الفلك الأول والمنازل في الفلك الثامن ، ولا يتصور نزوله في شيء منها وانما يقع ذلك في نظر الناظرين وحسبان الظانين .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ أي يسبحون في رأي العين فإن الناظر إلى الفلك يعتقده ساكناً والكواكب جارية فيه وليس كذلك .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أي كان قاب قوسين أو أدنى في ظن رائيه وحسبانه .

القسم الثالث عشر

اطلاق اسم الشيء الذي يظنه المعتقد والأمر على خلافه وهو ستة أقسام :

الأول : من ذلك قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ﴾ ذكر ذلك بالنسبة إلى ظنهم وزعمهم إذ ليس له ضدٌ ولا ندٌ .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ أين شركائي ﴾ وليس هذا إثباتاً للشركاء بل هو يتنزل على قول الخصم معناه أين شركائي بزعمكم . وقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « مَنْ عَمِل عَمَلاً أشْرَكَ فيه غَيري تَركته لِشريكي » معناه تركته لشريكي بزعمه .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ﴾ لم يقرّ فرعون برسالة موسى عليه السلام ، بل المعنى بزعمه أنه رسول .

الرابع : قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذي نزّل عليه الذّكرُ إنك لمجنون ﴾ ليس هذا إقراراً بتنزيل الذكر وإنما المعنى يا أيها الذي نزل عليه الذكر بزعمه .

الخامس : قوله تعالى[1]

---

(١) سقط من الأصل ذكر الآية والقسم السادس .

القسم الرابع عشر

التضمين : وهو أن يْضمن إسما معنى إسمٍ لافادة معنى الإسمين فتعديه تعديته في بعض المواطن وهو أربعة أقسام :

الأول : قوله تعالى : ﴿ حقيقٌ عليَّ أنْ لا أقولَ على اللهِ إلا الحقّ ﴾ ضُمن حقيقاً معنى حريصٍ ليفيد عليه أنه محقوق يقول الحق وحريص عليه .

الثاني : من التضمين أيضاً أن تضمّن فعلاً معنى فعلٍ آخر لافادة معنى فعلين وتعدّيه أيضاً في بعض المواطن وهو في القرآن كثير . منه قوله تعالى : ﴿ لا تُشرِك بي شيئاً ﴾ ضمن لا تشرك معنى لا تعدل ـ والعدل ـ التسوية أي لا تسوي بالله شيئاً في العبادة والمحبة فإنهم عبدوا الأصنام كعبادة الله وحبُّوها كحب الله ، ولذلك قال الذين في النار : ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذْ نُسوّيكم برَب العالمين ﴾ وماسوَّوْهم به إلا في العبادة والمحبة دون أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال .

الثالث : قوله عز وجل : ﴿ إن كادَت لَتُبدِي به لولا أن رَبَطنا على قلبها ﴾ ضمن لتبدي به معنى لتخبر به أو لتعلم ليفيد الاظهار معنى الإخبار لأن الخبر قد يقع سراً غير ظاهر .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ عيناً يَشرَب بها عبادُ الله ﴾ ضمن يشرب معنى يروي أو معنى يلتذ ليفيد الشرب والريّ أو الشرب والالتذاذ جميعاً .

القسم الخامس عشر

في مجاز اللزوم وهو ثمانية تحت كل قسم أقسام قد بيناها فيه :

الأول : التعبير بالإذن عن المشيئة لان الغالب أن الإذن في الشيء لا يقع إلا بمشيئة الآذن واختياره الملازمة الغالبة مصححة للمجاز . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذنِ الله ﴾ أي إلا بمشيئة الله . . ويجوز أن يراد في هذا بالإذن أمر التكوين والمعنى : وما كان لنفس أن تموت إلا بقول الله موتي . ونظيره : ﴿ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ فحذف تقديره فقال لهم الله موتوا فماتوا لدلالة قوله ـ ثم أحياهم ـ عليه . ومثله : ﴿ وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا باذنِ اللهِ ﴾ أي بمشيئة الله أو بأمر التكوين فإن ملازمة المشيئة للأمر غالباً كملازمة مشيئة المريد غالباً .

الثاني : التعبير بالإذن عن التيسير والتسهيل وهو في قوله تعالى :

﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة باذنه ﴾ أي بتسهيله وتيسيره إذ لا يحسن أن يقال دعوته باذني ولا قمت وقعدت باذني هذا قول الزمخشري . . ويجوز أن يراد بالإذن ههنا الأمر أي يدعوكم إلى الجنة والمغفرة بأمره .

الثالث : تسمية المسافر بابن السبيل . وذلك في قولـه تعالى :

﴿ وابن السبيل ﴾ لملازمته السبيل وهو الطريق كما يلازم الولد أمه . وذلك في قوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ لملازمته السبيل وهو الطريق كما يلازم الولد أمه . وذلك قيل للطير ابن الماء لملازمته للماء .

الرابع : نفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته للزومها عنه غالباً في مثل قوله تعالى : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد ﴾ أي وفاء عهد وإتمام عهد فنفي العهد لانتفاء ثمرته وهو الوفاء والاتمام . ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم ﴾ نفي الايمان بعد اثباتها لانتفاء ثمرتها وفائدتها وهو البر والوفاء . . ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره انهم لا وفاء أيمان لهم .

الخامس : اطلاق اسم الريب على الشك لملازمة الشك القلق والاضطراب فإن حقيقة الريب قلق النفس بدليل قوله : ﴿ نتربص بكم ريبَ المنون ﴾ أي مقلقات الدهور . وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الظبي الحاقف لا يريبه أحد ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها » . ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنونِ ورَيبها تَتوجع

السادس : إلتعبير بالمسافحة عن الزنا لأن السفح صب المنيّ وهو ملازم للجماع غالباً لكنه خص بالزناء إذ لا غرض فيه سوى صبُّ المني بخلاف النكاح فإن مقصوده الولد والتعاضُدُ والتناصر بالأختان والأصهار والأولاد والأحفاد . ومثاله قوله تعالى : ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ أي غير مزانين . وقوله تعالى : ﴿ محصنات غير مسافحات ﴾ أي غير مزانيات .

السابع : اطلاق اسم المحل على الحالّ فيه لما بينهما من

الملازمة الغالبة كالتعبير باليد عن القدرة والاستيلاء وبالعين عن الادراك وبالصدر عن القلب وبالقلب عن العقل وبالافواه عن الألسن وبالألسن عن اللغات وبالقرية عن قاطنيها وبالساحة عن نازليها وبالنادي والنديّ عن أهلها ، وبالغائط وهو المكان المنخفض عما يخرج من الانسان لانهم كانوا في الغالب يقضون الحاجة في الأماكن المنخفضة تستراً عن الناس (أما) التعبير باليد عن القدرة فهو في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ واما التعبير بالعين عن الإدراك فهو في قوله تعالى : ﴿ أم لهم أعين يُبصرون بها ﴾ أي يبصرون بإدراكها أو بنورها (وأما) التعبير بالصدر عن القلب فهو في القرآن كثير . من قوله تعالى : ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ أي في قلبك . ومنه قوله تعالى : ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ .

(وأما) بالقلب عن العقل فهو في القرآن في موضعين : أحدهما قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب ﴾ والثاني في قوله تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ أي لهم عقولٌ لا يفقهون بها . . ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره لهم قلوبٌ لا يفقهون بعقولها كما في قوله : ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ أي لا يسمعون بأسماعها أو بادراكها (وأما) التعبير بالأفواه عن الألسن فهو في قوله تعالى : ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ أي بألسنتهم لأن القول إنما يكون باللسان ومنه قوله تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قولهم ﴾ (وأما) التعبير بالألسن عن اللغات فهو في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ أي بلغتك ومنه قوله تعالى : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ أي بكلام عربي مبين (وأما) التعبير بالساحة عن نازليها ففي قوله تعالى : ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين ﴾ معناه فإذا نزل بهم (وأما) التعبير بالقرية عن قاطنيها ففي قوله تعالى : ﴿ واسئل القرية التي كنا فيها ﴾ (وأما) التعبير بالنادي عن أهله ففي قوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ (وأما) التعبير بالندى

عن أهله ففي قوله : ﴿ أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً ﴾ أي أحسن أهل مجلس (وأما) التعبير بالغائط وهو المكان المنخفض عما يخرج من الانسان ففي قوله تعالى : ﴿ أو جاء أحدكم من الغائط ﴾ ومن مجاز الملازمة وهو التعبير بالارادة عن المقاربة لأن من أراد شيئاً قربت مواقعته إياه غالباً وهو في قوله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ أي قارب الانقضاض . ومنه قول الشاعر :

يُـريدُ الـرّمـحُ صَـدْرَ أبي ريـاحٍ   ويَـرغبُ عَنْ دِمـاءِ بني عقيـلْ

(ومنه) التعبير بالكلام عن الغضب لأن الهجران وترك الكلام يلزمان الغضب غالباً وهو في القرآن العظيم في موضعين . أحدهما قوله تعالى : ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ﴾ والآخر قوله تعالى :

﴿ ولا يكلمهم ولا ينظر اليهم يوم القيامة ﴾ (ومنه) التجوز بالاياس عن العلم لأن الاياس من نقيض المعلوم ملازم للعلم غير منقلب عنه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ (ومنه) التعبير بالدخول عن الوطء لأن الغالب من الرجل إذا دخل بامرأته انه يطأها ليلة عرسها . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ ومنه وصف الزمان بصفة ما يشتمل عليه ويقع فيه وهو القرآن العظيم كثيرٌ . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ عسيرٌ ﴾ وصفه بالعسر ، والعسرُ صفةٌ للأهوال الواقعة في ذلك اليوم ومنه يومئذ قوله تعالى : ﴿ فيأخذكم عذابُ يوم عظيم ﴾ وصف اليوم بالعظم وهو صفةٌ للعذاب الواقع فيه . . وأما قوله تعالى : ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عقيم ﴾ فانه مجاز تشبيه شبه اليوم في انقطاع خيره بانقطاع ولادة العقيم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وقال هذا يومٌ عصيب ﴾ وصفه بكونه عصيباً وهو صفةٌ للشر الذي يقع فيه .

القسم السادس عشر

التجوز بالمجاز عن المجاز :

وهو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة الى مجاز آخر فيتجوز بالمجاز الأول عن الثاني بعلاقة بينه وبين الثاني . مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن لا تواعدوهنَّ سراً ﴾ ، فإنه مجاز عن مجاز فإن الوطء تجوز عنه بالسر لأنه لا يقع غالباً إلا في السر ، فلما لازم السر في الغالب سمي سراً وتجوز بالسر عن العقد ، لأنه سببٌ فيه ، فالمصحح للمجاز الأول الملازمة ، والمصحح للمجاز الثاني التعبير باسم المسبب الذي هو السر عن العقد الذي هو سببٌ كما سمي عقد النكاح نكاحاً ، لكونه سبباً في النكاح ، وكذلك سمي العقد سراً لأنه سبب في السر الذي هو النكاح ، فهذا مجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح فمعنى قوله ـ ولكن لا تواعدوهن سراً ـ لا تواعدوهن عقد نكاح وكذلك قوله : ﴿ ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله ﴾ قال مجاهدٌ : ومن يكفر بلا إلـه الا الله فقد حبط عمله فإن حمل قوله على ظاهره كان هذا من مجاز المجاز لأن قول لا إلّه الا الله مجاز عن تصديق القلب بمدلول هذا اللفظ والتعبير بلا إلّه الا الله عن الوحدانية من مجاز التعبير بالقول عن المقول فيه ، والأول من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ، لأن توحيد اللسان مسبب عن توحيد الجنان .

القسم السابع عشر

التجوز في الاسماء وهو على سبعة أقسام :

الأول : اطلاق اسم الأسد على الشجاع .

الثاني : التجوز بالبحر عن الجواد .

الثالث : اطلاق اسم الفوز والحياة على الايمان والعرفان .

الرابع : اطلاق اسم الظلمة والموت على الجهل والضلال .

الخامس : اطلاق اسم السراج والنور على الهادي .

السادس : اطلاق اسم الحطب على النميمة باثارتها نار الحقد والغضب .

السابع : اطلاق اسم الانسان على تمثاله وكذلك الحيوان والبلدان وقد تقدم جميع أمثلة ذلك إلا الحطب المعبر به عن النميمة فانه في قوله تعالى : ﴿ حمالة الحطب ﴾ .

القسم الثامن عشر

التجوز في الافعال وهو على عشرة أقسام وتحت كل قسم منها أقسام :

الأول : التجوز بالماضي عن المستقبل تشبيهاً له في التحقيق ، والعرب تفعل ذلك لفائدة وهو أن الفعل الماضي اذا أخبر به عن المضارع الذي لم يوجد بعدُ كان أبلغ وآكد وأعظم موقعاً وأفخم بياناً ، لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المقطوعة بكونها وحدوثها . ومنه قوله تعالى : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزَعَ مَنْ في السموات ومَن في الأرض إلا ما شاءَ اللهُ وكلٌّ أتوهُ داخرين ﴾ فإنه إنما قال ـ ففزع ـ بلفظ الماضي بعد قوله ـ يُنفخ ـ وهو مستقبل للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والارض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل بكونه مقطوعا به . ومن هذا الجنس قوله تعالى : ﴿ وبَرَزُوا لله جميعاً ﴾ فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة وانما جيء به بلفظ الماضي لان ما أخبر الله به لصدقه وصحته فإنه قد كان ووجد . ومثل ذلك قوله عز اسمه : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ فأتى ها هنا بمعنى يأتي وإنما حسن فيه لفظ الماضي لصدق إثبات الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه فصار يأتي بمنزلة أتى ومضى . وكذلك قوله تعالى : ﴿ ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وترَى الارضَ بارزة وَحشرْناهم فلم نُغادِرْ منهمْ أحداً ﴾ فإنه انما قال ـ

وحشرناهم ـ ماضياً بعد ـ نُسيّر . وترَى ـ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك وهو في القرآن العظيم كثير .

قال الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام في كتابه المعروف بالمجاز أكثر ما يكون هذا في الشروط وأجوبتها وقد يجيء في غيرها . مثاله في غير الشرط قوله تعالى : ﴿ وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابنَ مريَمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأميَ إلهينِ منْ دُونِ اللهِ ﴾ ومنه ﴿ ونادى أصحاب الاعراف ﴾ ومنه ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ ومنه ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ ومنه : ﴿ وقال قرينهُ هـذا ما لـدَيَّ عتيدٌ ﴾ ومنـه : ﴿ وقالـوا لجلودهم ﴾ . ومنه : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ . ومنه ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ وأمثاله في القرآن كثيرٌ (وأما) مثاله في الشرط فقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ معناه وإن تكونوا في ريب . ومنه : ﴿ وإن تبتم فهو خيرٌ لكم ﴾ معناه وإن تتوبوا فهو خير لكم . ومنه : ﴿ فإن كنت في شك مما نزلنا اليك ﴾ معناه فإن تك في شك . ومنه : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ﴾ معناه إن تكونوا مؤمنين بالله فعليه توكلوا (وأما) في جواب الشرط فقوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة ﴾ . ومنه : ﴿ وإن عدتم عُدنا ﴾ معناه وإن تعودوا الى قتال محمد عِدنا الى نصره والشرط لا يكون إلا مستقبلا ، والمرتب على المستقبل مستقبلٌ لا محالة ، وهذا من مجاز التشبيه شبه المستقبل في الحقيقة وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه .

الثاني : التعبير بالمستقبل عن الماضي وهو في القـرآن العظيم كثير . من ذلك قوله تعـالى : ﴿ واتبعوا مـا تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ . ومنه : ﴿ فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ معناه وفريقاً قتلتم . . ويجوز أن يكون القول في هاتين الآيتين حكاية حال ماضية مثله في قوله

تعالى : ﴿ تُريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤ نا ﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤ هم من قبل ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وكانوا يصرون على الحِنث العظيم ﴾ ومنه : ﴿ وقد كانوا يدعون الى السجود ﴾ ومنه : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ﴾ معناه وإذ قلت وهو في القرآن كثيرٌ (وانما) قصدت العرب بالاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل لأن الاخبار بالفعل المضارع اذا أتى به في حالة الاخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي والفرق بينه ، وبين القسم الذي قبله هو أن الفعل الماضي يخبر به عن المضارع اذا كان الفعل المضارع من الاشياء الهائلة التي لم توجد ، والأمور المتعاظمة التي لم تحدث فتجعل عند ذلك فيما قد كان ووجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه ، وأما الفعل المضارع اذا أخبر به عن الماضي ، فإن الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السماع كأنه يعاينها ويشاهدها .

الثالث : التجوز بلفظ الخبر عن الأمر وهو في القرآن العظيم كثيرٌ . من ذلك قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعنَ أولادهنَّ حولين كاملين ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم وَيَذَرُون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعةَ أشهر وعشرا ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسولهِ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ معناه آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ولذلك أجيب بالجزم في قوله : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ ﴾ ولا يصح أن يكون جواباً للاستفهام في قوله ـ هل أدلكم ـ لأن المغفرة وإدخال الجناتِ لا يترتب على مجرد الدلالة ، وهذا من مجاز التشبيه شبه الطلب في تأكيده بخبر الصادق الذي لا بد من وقوعه ، واذا شبه بالخبر الماضي كان آكد ، وكذلك الدعاء والأمر والنهي بالخبر الماضي اذا أريد

تأكيد ما عبر عنها بالخبر المستقبل ، فإن بالغت في التأكيد تجوزت عنها بالخبر الماضي .

الرابع : التجوز بلفظ الخبر عن الدعاء وهو في القرآن العظيم كثيرٌ . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد » ومن ذلك تشميت العاطس يرحمك الله ، وفي اجابته يهديكم الله ويصلح بالكم .. المعنى اللهم ارحمه اللهم اهدهم .

الخامس : التجوز بلفظ الخبر عن النهي وهو في القرآن كثيرٌ . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وما تنفقون الا ابتغاءَ وجهِ الله ﴾ معناه ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله . ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون الا الله ﴾ معناه لا تعبدوا الا الله . ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تسفكون دماءَكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ .

السادس : التجوز بلفظ الأمر عن الخبر توكيداً للخبر لأن الامر للايجاب فيشبه الخبر به في ايجابه وهو في القرآن في موضعين قوله تعالى : ﴿ قل مَن كانَ في الضلالة فليمددْ له الرحمن مداً ﴾ تقديره قل من كان في الضلالة يمدد له الرحمن مداً أو مد له الرحمن مداً . الثاني : ﴿ اتبعوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم ﴾ .

السابع : التجوز بجواب الشرط عن الأمر وهو في القرآن العظيم كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين ﴾ معناه عند الجمهور فليغلبوا مائتين . ومنه : ﴿ وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا ﴾ معناه فليغلبوا ألفاً ومنه : ﴿ فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين ﴾ معناه فليغلبوا مائتين ﴿ وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين ﴾ معناه فليغلبوا ألفين والمراد به التأكيد ، لأنه خبر تجوز به عن الطلب .

الثامن : التجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادةً بالنهي وانما المراد بها ما يقاربها أو يلازمها ، أو تكون مسببة عنهُ ، وهو في القرآن العظيم كثيرٌ . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَذرُوا البيْعَ ﴾ نهى عن البيع في اللفظ وهو مباحٌ وأراد ما يلزم عنه من ترك الواجب . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولَا تموتنَّ الَّا وأنتم مُسلمونَ ﴾ النهي عن الموت نفسه لا يصح ، لأنه ينافي التكليف ، لكنه تجوز به عما يقارنه من الكفر فكأنه قال ولا تكفروا عند موتكم . ومنه قولهم : لا أرينَّك هاهنا معناه لا تحضرن فأراك فتجوز برؤيته عن سببها وهو الحضور . ومنه نهيه صلى الله عليه وسلم عن البيع على بيع الأخ ، ليس النهي عن نفس البيع ، لأنه مجتمعٌ بشرائط الصحة إنما النهي عن أذية الأخ المقترنة بالبيع . ومنه النهي عن الخطبة على خبطة الأخ ليس النهي عن الخطبة نفسها ، وإنما النهي عما يلزمها من تأذي الخاطب .

التاسع : التجوز بالنهي لمن لا يصح نهيهُ والمراد به من يصح نهيه وهو في القرآن كثيرٌ . فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عنهُمْ ﴾ النهي في اللفظ للعينينَ والمراد بذلك ذُو العينين أي لا تنظر إلى غيرهم . ومنه : ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ النهي في اللفظ للأموال والأولاد وفي المعنى لذوي الأموال والأولاد . ومنه : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ النهي في اللفظ للتقلب والمرادُ به النهي عن الاغترار بالتقلب . ومنه قوله : ﴿ فَلَا تغُرَّنَّكُم الحياةُ الدُّنيا ﴾ النهي في اللفظ للحياة الدنيا والمراد به نهي المخاطبين عن الاغترار بها . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تعجبُكَ أموَالُهم وَلَا أولَادُهُمْ ﴾ النهي في اللفظ للأموال والأولاد وفي المعنى نهي المخاطبين عن الاعجاب بهما . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تأخُذْكمْ بهمَا رأفةٌ في دين الله ﴾ النهي للرأفة في اللفظ وللمخاطبين في المعنى . ومنه قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذينَ ظلموا منكم خاصة ﴾ النهي لضمير الفتنة في اللفظ

وللمخاطبين في المعنى لا تتعرضنَّ لاصابة الفتنة اياكم لسبب تقريرها وترك نكيرها والتقدير واتقُوا تقدير فتنة لا تصيبن عقوبتها أو شؤمها ، أو وبالها الذين ظلموا منكم خاصة .

العاشر : التجوز بنهي من يصح نهيه والمنهي في الحقيقة غيره ، وهو في القرآن العظيم كثيرٌ . منه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يصدُّنَّك عنْ آيات الله ﴾ معناه ولا تصدن عن آيات الله بسبب صدهم إياك . ومنه : ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ﴾ معناه فلا تصدن عنها . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ معناه ولا تخفن .

القسم التاسع عشر

التجوز بالحروف بعضها عن بعض وهو عشرة أقسام :

الاول : ـ هل ـ يُتجوز بها عن الأمر والنفي والتقدير وهو في القرآن العظيم كثير . . أما التجوز بها عن الامر ففي مواضع . منها قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ معناه أسلموا . ومنه قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مُنتهون ﴾ معناه فانتهوا . . أما التجوز بها في النفي فهو في مواضع . منها قوله تعالى : ﴿ فهل ترَى لهم من باقية ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فهل يهلكُ إلا القومُ الفاسقون ﴾ معناه فما ترى لهم من باقية فلا يهلك إلا القوم الفاسقون . وقوله تعالى : ﴿ هل يَنظُرون إلّا أن يأتيهمُ الله في ظُلَلٍ من الغَمام ﴾ معناه ما ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل ومثل هذا في القرآن كثير . وأما قوله تعالى : ﴿ هل من مزيد ﴾ فقيل إنه نفي الاستزادة معناه لا مزيد فيّ ، وقيل انه طلب لها معناه زدني . . وأما التجوز بها في التقرير فهو في القرآن العظيم في آيتين . احداهما قوله تعالى : ﴿ هل عندَكم من علم فتُخرِجوهُ لنا ﴾ الثانية في قوله تعالى : ﴿ هل لكم مما مَلَكتْ أيمانكم من شركاءَ فما رزقناكم ﴾ .

الثاني : ـ همزة الاستفهام ـ ويتجوّز بها عن النفي وعن الأمر والايجاب والتقرير والتوبيخ . . أما التجوز بها عن النفي ففي القرآن العظيم منه كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ معناه لست مكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وقوله

تعالى : ﴿ أفأنتَ تنقِذُ من في النار﴾ معناه لست منقذ من في النار . وقوله تعالى : ﴿ أفأنت تُسمِعُ الصمَّ أو تَهدي العُمي ﴾ معناه لست مسمع الأصمّ ، ولا هادي الأعمى ، ومثله في القرآن كثير . . وأما التجوز بها في الايجاب فهو في القرآن كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ أليس اللهُ بكافٍ عبدَهُ ﴾ معناه الوعد بكفاية العباد . وقوله : ﴿ أليس اللهُ بعزيزٍ ذي انتقام ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحييَ الموتى ﴾ . . ومنها قول جرير :

ألستُمْ خيـرَ من ركبَ المَـطَايَـا وَأنـدَى العَـالمينَ بُـطونَ رَاحِ

وقول الآخر :

ألستُ أرَى النجمَ الذي هو طالعٌ عَليهـا وَهـذَا لِلمُحبين نـافـعُ

وأما التجوز بها في التقرير فهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأميَ إلهين من دونِ اللهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ آلذَّكرينِ حرَّم أمِ الأنثيين ﴾ . . وأما التجوز بها في التوبيخ فهو في القرآن كثير .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ أفغيرَ اللهِ تتقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أتقولون على اللهِ ما لا تعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أتأمُرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتَكفرون ببعض ﴾ .

الثالث : التجوز ـ بفي ـ وله حقيقة تتحقق في قسمين :أحدهما : احتواء جرم على جرم كقوله تعالى : ﴿ أفأنتَ تُنقذُ مَن في النار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهم في الغرُفاتِ آمِنون ﴾ الثاني : احتواء جرم على معنى كقوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرَضٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يُعذِّبُنا اللهُ بما نقول ﴾ وكقوله : ﴿ إنْ في صـدُورِهم إلاّ كِبرٌ مـا هم

ببالغيه ﴾ وأمثاله في القرآن كثير . . وأما التجوز بها فهو أنواعٌ .الأول : أن يجعل المعنى ظرفاً لتعلقه بمعنى آخر وذلك قوله تعالى : ﴿ وجاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللهِ ﴾ وهو طاعته واجتناب معصيته أو القتال في سبيله ظرفاً لتعلق الجهاد ، والجهاد قائم بالمجاهد . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لا رَيبَ فيه ﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإنّ الساعةَ لآتيةٌ لا ريبَ فيها ﴾ جعل الساعة والكتاب ظرفين لتعلق الريب لا لنفس الريب ، فإن الريب حال في المرتاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ويستفتونك في النساء ﴾ أي في توريثهن جعل التوريث محلا لتعلق الاستفتاء ، ثم قال : ﴿ قل الله يفتيكم فيهن ﴾ أي في توريثهن فجعل التوريث محلا لتعلق بيان الفتيا وهو قول المفتي . ومنه قوله تعالى : ﴿ فهدَى اللهُ الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه ﴾ جعل الحق محلا لتعلق الاختلاف قائم بالمختلفين . ومنه قوله تعالى : ﴿ فادَّارَأتمْ فيها ﴾ أي فادّارأتم في قتلها فجعل القتل محلا لتعلق الدرء . ومنه قوله تعالى : ﴿ فـذِلكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيهِ ﴾ جعل حبه أو مراودته ظرفاً لتعلق لومهن لا لنفس اللوم ، فإن لومهن قائم بهن . .

الثاني : التجوز بها عن الباء التي للسبب وهي في القرآن العظيم كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وليس عليكم جُناحُ فيما أخطأتم به ﴾ أي بسبب ما أخطأتم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾ أي بسبب نصرة سبيل . وكذلك الحب في الله والبغض في الله أي بسبب تعظيم الله ، وله نظائر كثيرة ولما كان المسبب متعلقاً بالسبب جُعل السبب ظرفاً لتعلق المسبب . .

الثالث من التجوز به وهو أن يجعل الجرم محلا لتعلق المعنى ، وهو في القرآن المجيد كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ جعل الأجرام محلا لتعلق الفكر لا لنفس الفكر فإن الفكر قائم بالتفكر . ومنه قوله تعالى : ﴿ أوَلم ينظروا في

ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ﴾ جعل السموات والارض والمخلوقات كلها محلا لتعلق النظر لا لنفس النظر فان الناظر قائم بالنظر حالٌّ فيه . ومنه قوله تعالى : ﴿ أوَلم يتفكروا في أنفسهم ﴾ .

الرابع : من التجوز به أن يجعل المعنى محلا للجرم وهو عكس الأول فتجوْز به عن كثرة ما جعل ظرفاً مجازاً لما كان الحاوي أعظم من المحوى شبه به ما توالى أو كثر من المعاني ، ومنه في القرآن شيء كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ إنّا لنراكَ في ضلالٍ مبين ﴾ ومنه : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ في الظلمات ﴾ أي صم وبكم في الضلالات . ومنه قوله تعالى : ﴿ فهم في رَيبهم يَترَدَّدُون ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ ألا إنهم في مِريةٍ من لقاء ربهم ﴾ وأما قوله تعالى : ﴿ إنَّ المتقين في جناتٍ ونعيمٍ ، في جنات ونهَر . في جناتٍ وعُيون وفواكه ﴾ فمن جمع بين الحقيقة والمجاز جعل ـ في ـ بالنسبة الى الجنان ظرفا حقيقياً وبالنسبة إلى العيون والنهر والنعيم ظرفا مجازاً ، ومن لم يجمع بينهم يقدر ان المتقين في جنات وفي نعيم وفي عيون. وفي نهر فيكون في الثانية مجازاً محضاً مشبعاً بكثرة النعيم والانهار والعيون والفواكه ، ويدع الأولى على حقيقتها ، ولك أن تجعل الجميع مجازاً على حذف لذات تقديره إن المتقين في لذات جنات ونعيم ، وفي لذات جنات وعيون ، وفي لذات جنات ونهر ، وفي لذات وفواكه أو تقدر ان المتقين في نعيم جنات وعيون وفواكه أو ما أشبهه ، ولا تقدر مثل هذا في قوله ـ في جنات ونعيم ـ اذ يبقى التقدير ، وفي نعيم نعيم وهو سمج لا يقدر مثله في كتاب الله .

وأما قوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أنّ اللهَ يَسجدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدَّوابُّ ﴾ فظاهره عند من جمع بين الحقيقة والمجاز لحكمه فيمنْ يعقل على السجود المعهود ، وفيما لا يعقل على الانقياد للقدرة والارادة ، وأما قوله تعالى :

﴿ أفي اللهِ شك ﴾ فالتقدير فيه أفي وحدانية الله شك فهـو من جعل المعنى ظرفاً لتعلق المعنى . وأما قوله تعالى : ﴿ وهو اللهُ في السموات وفي الأرض ﴾ وقوله : ﴿ كلَّ يومٍ هو في شأن ﴾ فليس الـظرف هنا متعلق بجوهر ولا عرض ، وإنما هذا من مجاز التشبيه عبر بكونه في السموات والأرض عن علمه بما فيهن ، لأن من حضر مكانا لم يخف عليه ما فيه وأما قوله ـ كل يوم هو في شأن ـ فهو يشبه : ﴿ إنّ أصحابَ الجنةِ اليومَ في شغُل فاكِهون ﴾ وكقولهم : أنا في شغلك وحاجتك ولا يخفى وجه التشبيه فيه . .

الخامس : التجوز ـ بعلى ـ وحقيقتها استعلاء جرم على جرم كقوله تعالى : ﴿ وعلى الأعرافِ رجال ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ لتستوُوا على ظهـورِه ﴾ وأما مجـازها فعلى قسمين . أحدهما : التجـوز عن الثبـوت والاستقرار كقوله تعالى : ﴿ أولئك على هدىً من ربهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل إني على بَيّنةٍ مِن ربي ﴾ وقوله : ﴿ وإنّا أو إيّاكم لَعلى هدىً ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ وإنك لَعلى خُلُق عظيم ﴾ وهذا أيضاً من مجـاز التشبيه شبه التمكن من الهدى والأخلاق العظيمة الشريفة والثبوت عليها لمن علا دابة يصرّفها كيف شاء . .

الثاني : أن يجعل المعنى على الجرم تجوزاً كقوله تعالى : ﴿ رحمةُ الله وبرَكاته عليكم أهلَ البيت ﴾ وكقوله : ﴿ أولئك عليهم صلواتٌ مِن ربهم ورحمةٌ ﴾ والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة لأن ما علاك وجللك فقد أحاط بك . وأما قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوَى ﴾ فهو من نزول جرم على جرم ولا بد فيه من حذف تقدير ، وأنـزلنا على أشجاركم أو على محلتكم . وأما قوله تعالى : ﴿ فخرَجَ على قومِه في زينته ﴾ معناه فخرج على نادي قومه ، أو على محل قومه .

ومثله قوله تعالى ﴿ اخرُجْ عَليهنَّ ﴾ فمعناه اخرج على مجلسهن أو

مكانهن .

ومثله قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيها زَكريّا المِحرَابَ وَجَدَ عِندَها رِزْقاً ﴾ معناه كلما دخل مكانها أو محرابها .

السادس :ـ عن ـ وهي حقيقة في مجاوزة جرم عن جرم ، وتعديته عنه ، ثم يستعمل في المعاني على طريق التشبيه كقوله تعالى ﴿ وَمَن أعرَضَ عن ذِكري فَإنَّ لَهُ مَعيَشَةً ضَنْكاً ﴾ شبه انصراف البصيرة عن تأمل ذكره بانصراف المجاوز عما يجاوزه .

. وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَأعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ إن حمل على ترك القتال كان المعنى فانصرف عن قتالهم ، وإن حمل على غيره فمعناه تجاوز عن أذيتهم ، وفي الحديث تجاوز عما تعلم المعنى ترك المؤاخذة لأن المتجاوز عن الشيء تاركٌ له ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنفُسَهَا » .

السابع : حرف ـ من ـ وهي حقيقة في ابتداء غاية الأمكنة ، ويتجوز بها عن ابتداء الغاية في الأزمنة مثل قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَقْوَى مِن أوَّلِ يوم ٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ فاستعملها غاية في الأزمنة لشبهها بالأماكن ، وكذلك تجوز بها عن التعليل في مثل قوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَايَاهُمْ أُغْرِقُوا ﴾ أي من أجل خطاياهم أغرقوا لأن ابتداء غاية المعلول صادر عن علة ، فشبه ذلك بابتداء الغاية بالمكان .

الثامن :ـ حرف ـ ثم ـ ويستعمل حقيقة في تراخي الزمان والمكان ، ثم يتجوز بها في تراخي بعض الرتب عن بعض بالتباعد المعنوي ، فشبه التراخي المعنوي بالتراخي الزماني والمكان ، وهو في القرآن العظيم كَثيرٌ . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِن الَّذينَ آمَنُوا ﴾ فجاء ـ بثم ـ للتراخي الذي بين الايمان والعمل الصالح ، فإن الايمان أفضل من

جميع أعمال الانسان ، فهو متراخ في الفضل عن فك الرقاب ، وإطعام السغبان ، فهو مؤخر في اللفظ مقدمٌ في الفضيلة والرتبة ، على تباعد وتراخ ، يدل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمانُ بالله . قَالَ ثم ماذا ؟ قال : بِرُّ الوَالِدَينِ قال : ثم ماذا ؟ قال : الجِهَادُ في سَبِيلِ الله » ويَدُلُّ أن ـ ثم ـ ها هنا لتراخي الرتب لا لتراخي الزمان لأن الإيمان شرط في اعتبار فك الرقاب وإطعام السغابي ، فلا يجوز أن يتقدم المشروط على شرط . . ومنه قال الشاعر .

* إنَّ مَنْ سَادَ ثم سَادَ أَبُوهُ *

جاءَ بثم لتراخ بين السؤددين من الفضل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ على قول بعضهم قال جيْء بثم لتفاوت ما بين نعمة التصوير ونعمة السجود لآدم ، قال : فإن إسجاد الملائكة له أكمل إحسان ، وأتم إنعام من التصوير . وقدر بعضهم ولقد خلقنا طينتكم ، ثم صورناكم في ظهر أبيكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . وقال بعضهم نسبة الخلق والتصوير إلينا من مجاز نسبة ما يتعلق بالواحد إلى جماعة .

ومثاله قوله عز وجل : ﴿ بَرَاءةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ نسب المعاهدة إلى الجماعة والمرادُ بها معاهدةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثل قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تُقَاتِلُونَ قَوماً نَكَثُوا أيمانَهُم ﴾ نسب النكث إلى الكل وانما نكث بعضهم . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهودُ عُزيرٌ ابن اللهِ وَقَالَتِ النَّصارَى المَسِيحُ ابنُ اللهِ ﴾ ولم تقل اليهود كلها ذلك ، وكذلك النصارى ، لأن بعضهم قال ذلك وبعضَهم قال : هو الله ، وبعضهم قال هو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم هو عبد الله ورسوله ، فنسب إلى الفريقين ما وجد من بعضهم . ومثله قول

امرىء القيس :

* فَإنْ تَقتلونا نَقْتُلُكُمْ *

وأمَّا : من يقولُ إن ـ ثم ـ تستعمل في تراخي بعض الأخبار عن بعض ، فلا يستقيم في هذه الآية ولا في قول الشاعر :

* إنَّ من سادَ ثم سادَ أبوهُ *

لأنَّا نعلم أن الله تعالى ما راخى بين الأخبار في قوله ـ ولقد خلقناكُم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ـ وكذلك قول الشاعر ـ إن من سادَ ثم سادَ أبوه ـ يعلم أنه لم يقل ـ إن من سادَ ثم ـ وقف زماناً طويلاً متراخياً ثم قال ـ سادَ أبوه ـ وان استعمالها في تراخي الأخبار بعيدٌ في استعمال العربَ لأن التراخي الموجود في كلامهم إنما يقع في مداولات الألفاظ لا بين أنفس الألفاظ ، وهذا انما يصح استعماله في مقالات للأخبار فيها تعاقبٌ إن ثبت أنه قول من يعتمد على قوله في هذا الشأن .

التاسع : حرف ـ الباء ـ قال سيبويه : هي للإلصاق والاختلاط والالصاق أضرُب . أحدها : حقيقيٌ وهو إلصاق جرم بجرم كقولك : ألصقتُ القوس بالغِراء والخشبة بالجدار . والثاني : مجاز إلصاق المعنى بجرم كقولك لطفت بزيد ، ورأفتُ بعمرو ، فكأنك ألصقت اللطف والرأفة به لتعلقهما به ، وكقولك مررت بزيد ، ولا بد فيه من حذف تقديره مررت بمكان زيد أو بمحل زيد ، وهو من مجازات التشبيه كأنك ألصقت المرور بالمكان .

الثالث : إلصاق المعنى بالمعنى كقوله تعالى : ﴿ أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ والعَيْنَ بالعَينِ ﴾ أي النفس مقتولة بقتل النفس والعين مفقوءَة بفقوء العين ، أتى بالباء ليكون المسبب وهو القصاص منسوباً إلى الجناية

نسبة التشبيه ، وهو جار في جميع الأسباب .

العاشر : حرفان وهما ـ لعل وعسى ـ وهما مجاز تشبيه أو تسبب وحقيقتهما الترجي والتوقع ، فالله سبحانه تعالى وتنزه أن يوصف بحقيقتهما ، بل يصح حملهما على مجاز التشبيه والتسبب . أما مجاز التشبيه فلأن معاملته بالأمر والنهي والوعد والوعيد مشبه بمعاملة مَلك عامَلَ عبيده بذلك على رجاء إجابتهم ، فإن كل من سمع الملك يأمر وينهى ، ويعد ويوعد يرجو اجابة المأمول واثابته لا سيما إذا كان ذلك الملك كريماً صدوقاً لا يخلف الميعاد .

(وأما) مجاز التسبب فلأن رجاء الإجابة وما يترتب عليها من الفلاح مسبب عن لين الخطاب ، وحسن الترغيب والترهيب ، فكذلك أمر الرب ونهيه مع وعده وايعاده يوجبان لكل من سمعهما خوفا ورجاءً لا يوجد مثلهما في حق غيره . ويحقق ذلك أن الكلام المنفّر لا يتوقع منه اجابة ولا إنابة ، والكلام اللين المرغب يتوقع كل من سمعه الإجابة والانابة ، فلذلك قيل لموسى وهرون عليهما السلام : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَولاً لَيِناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى ﴾ لما كان القول اللين سبباً للتذكر والخشية أمرهما به لتقوم عليه الحجة ، فهذا الرجاء المتعلق بكلامه . وأما الرجاء المتعلق بأفعاله فكما في قوله سبحانه : ﴿ وَاللهُ أخرَجكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لا تَعلمون شَيئاً وَجَعلَ لكمُ السَمعَ والأبصارَ والأفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لما ذكر هذه النعم الجسام التي لا يتصور وجودها من غيره أردفها بقوله ـ لعلكم تشكرون ـ من جهة أن الشكر مرجو من المنعم عليه متوقع منه ، ولا سيما عند هذه النعم لأنه عاملهم بهذه النعم معاملة الراجي كما عاملهم بالفتن معاملة الفاتن ، فوصْفُهُ نفسه بكونه راجياً كوصفه نفسه بكونه فاتناً وكذلك نظائره .

القسم العشرون

من أقسام المجاز الاستعارة ، وهي على أربعة أقسام :
وقيل : على قسمين وقيل : على سبعة أقسام .
وقد بيناها في الوجه الثالث من الكلام عليها

اعلم وفقنا الله وإياك أن اللفظ إذا استعمل فيما وُضع له فهو حقيقة . وان استعمل في غير ما وضع له ، فإن لم يكن لمناسبة بينه وبين ما وُضع له ، فهو الموكَلُ(١)وان كان لمناسبة بينهما فإن حسن فيه أدلة التشبيه فهو مجاز التشبيه ، وان لم يحسن فيه إظهار أداة التشبيه فهو الاستعارة . .

وإذا تقرر هذا فالكلام في الاستعارة على وجوه :

الأول هل هي من أنواع المجاز أم لا ؟ . . الثاني في حدها . . الثالث في أقسامها . . الرابع في اشتقاقها . . الخامس فيما تتهيأ به الاستعارة وما لا تتهيأ . . السادس في الاستعارة التخييلية . . السابع في الاستعارة المجردة . . الثامن في الاستعارة المرشحة . . التاسع في الاستعارة الحسنة . . العاشر في الاستعارة القبيحة . . الحادي عشر في بيان ما يُظن أنه استعارة وليس باستعارة . . الثاني عشر في الاستعارة بالكناية . . الثالث عشر فيما تتنزل به الاستعارة منزلة الحقيقة .

---

(١) كذا في الأصل وكتب بهامشه لعله المنقول فليحرر

أما الأول : فقد اختار الإمام فخر الدين رحمه الله أن الاستعارة ليست من المجاز لعدم النقل ، وجمهور علماء هذا الشأن عدوها من المجاز لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له .

وأما الثاني : فقد اختلفت عبارات علماء هذا الشأن في حدها فقال علي بن عيسى : الإستعارة استعمال العبارة لغير ما وضعت له في أصل اللغة ، وقد أبطل الإمام فخر الدين ما قاله ابن عيسى في حد الاستعارة من وجوه أربعة . الأول : أنه يلزم أن يكون كل مجاز لغوي استعارة . الثاني يلزم أن تكون الاعلام المنقولة من باب المجاز . الثالث : استعمال اللفظ في غير معناه للجهل بذلك . الرابع : أنه يتناول الاستعارة التخييلية على ما سيأتي . .

وقال قوم الاستعارة جعل الشيء الشيءَ أو جعل الشيءِ للشيءِ لأجل المبالغة في التشبيه . فالأول : كما تقول لقيتُ أسداً ، وتعني الشجاع فقد جعلت الشجاع أسداً فهذا جعلُ الشيءِ الشيءَ. والثاني كقول الشاعر :

* إذ أصبحتْ بيدِ الشمال زمامها *

وسيأتي . . وقال المتقدمون من أرباب الصناعة والاستدلال بالشيء المحسوس على المعنى المعقول . وهذا هو أحد أنواع الاستعارة ، فإن الاستعارة على أقسام وسيأتي بيانه . . وقال قوم : الاستعارة ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح المشبه . . وقال الامام فخر الدين رحمه الله الاستعارة : ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه .

فقوله ـ ذكر الشيء باسم غيره ـ احترازاً عما إذا صرَّح بذكر المشبه كقولك : زيد أسد فإنك ما ذكرت زيداً باسم الأسد بل ذكرته باسمه الخاص فلا جرَم أن ذلك لم يكن استعارة .

وأما قوله ـ وإثبات ما لغيره له ـ ذكره لتدخل فيه الاستعارة التخييلية . وقوله ـ لأجل المبالغة في التشبيه ـ ذكره لتتميز به عن المجاز .

وأما الثالث : فقد اختلفت عبارات أرباب هذه الصناعة في أقسامها فقال قوم : أقسامها أربعة . الأول : أن يكون المستعار ، والمستعار منه محسوسين . الثاني : أن يكونا معقولين . الثالث : أن يكون المستعار معقولاً والمستعار منه محسوساً . الرابع : أن يكون على العكس . .

أما استعارة المحسوس للمحسوس فهي على قسمين أحدهما : أن يكون الاشتراك في الذات والاختلاف في الصفات ، والثاني أن يكون العكس . فمثال الأول أن يكونا حقيقتان تتفاوت إحداهما في الفضيلة أو النقص والقوة والضعف ، فينقل اللفظ الموضوع للأكمل في ذلك النوع إلى الأنقص . مثاله : استعارة الطيران للعدْو ، فانهما يشتركان في الحقيقة ، وهي الحركة المكانية إلا أن الطيران أسرع من العدْو ، فلما تساويا في الحقيقة واختلفا في القوة والضعف في السرعة لا جرَم نقلوا إسم الكامل في السرعة إلى الناقص فيها فسموا العدوَ طيراناً .

وقد يقع في هذا الجنس ما يظن أنه مستعار ولا يكون كذلك وذلك اذا كانت جهة الاختلاف خارجة عن مفهوم الاسم كقول بعضهم :

وفي يدكَ السيفُ الذي امتنعتَ بهِ صَفاةُ الهُدَى من ان تدِقّ فتُخرَقا

فالظاهر ان الخرق حقيقة في الثوب مجاز في الصفات ،ولكن التحقيق يأباه لأن الشق يستعمل في الخرق ، فيقال شققت الثوب ، والشق عيب في الثوب ، وهذه الملاقاة على وجه الحقيقة ، فلما قام الشق مقام الخرق ، وجب أن يقوم الخرق مقام الشق ظاهراً ، وإلا لو كان للخرق مفهوم سوى مفهوم الشق ، لكان لفظ الخرق مشتركا بينهما وهو خلاف الأصل فثبت أن الخرق والشق لفظان مترادفان ، ولما كان

الشق حقيقة في الصفات كان الخرق المرادف له حقيقة أيضاً فيه .

نعم لو قلت خرق الحشمة لم يكن من الحقيقة في شيءٍ لأنه ليس هناك شق فبهذا الطريق عرفنا أن الخرق ليس اسماً للتفرق من حيث أنه لا شق هناك كما تقدم خلاف ما تقدم من حيث أن الشق حاصل في الثوب ، بل هذه الخصوصية خارجة عن مفهوم لفظ الخرق ، ولما كانت لفظة الخصوصية التي بها تتميز تفرق أجزاء الحجر بعضها من بعض عن تفرق أجزاء الثوب غير داخلة في مفهوم الخرق كان استعماله في الحجر على طريق الاستعارة ، فهذا هو القانون في هذا الباب بعد أن لا تضايق في المثال هذا كله إذا كان الاشتراك في الحقيقة والاختلاف في العوارض والصفات . . وأما إذا كان بالعكس وهو أن يكون الاشتراك في الصفات والاختلاف في الحقيقة فمثل قولهم : رأيت شمساً ، ويريدون إنساناً يتهلل وجهه كالشمس ، فيشاركه في الوصف . .

(وأما) القسم الثاني وهو استعارة اسم شيءٍ معقول لشيءٍ معقول ، وهذا أيضاً إنما يكون في أمرين يشتركان في وصف عدمي أو ثبوتي وأحدهما بذلك الوصف أولى ، وفيه أكمل فينزل الناقص منزلة الكامل ، ثم إن المشتركين إما أن يكونا متعاندين أو لا يكونا ، كذلك فإن تعاندا فإما أن يكون التعاند بالثبوت ، أو الانتفاء أو بالتضاد .

(مثال) الأول : استعارة اسم المعدوم للموجود ، أو الموجود للمعدوم . أما الأول : فعند ما لا يحصل من ذلك الموجود فائدة مطلوبة فيكون ذلك الموجود مشاركا للمعدوم في عدم الفائدة ، لكن المعدوم بذلك أولى ، فيستعار لذلك الموجودة اسم المعدوم .

(وأما) الثاني : فعند ما تكون الآثار المطلوبة من الشيء باقية عند عدم الشيء ، فيكون عند ذلك المعدوم مشاركا للموجود بتلك الفوائد ، لكن الموجود أولى بذلك ، فيستعار لذلك المعدوم اسم الموجود .

وأما إذا كان التعاند بالتضاد حقيقة كان أو ظاهراً فمثاله : تشبيه الجهال بالأموات ، لأن المقصود بالحياة الإدراك والعقل ، فإذا عُدما فقد عُدمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة ، والموت أولى بذلك ، فتتنزل الحياة منزلته .

ثم الضدان إذا كانا متقابلين الأشدُّ والأضعف ففي أحد الطرفين اسم الأزيَد ، وفي الطرف الآخر اسم الأنقص . فشرط مساوىء التشبيه مثلا كل من كان أقلَّ علماً وأضعف قوّة كان أولى أن يستعار له اسم الميت .

ولما كان الادراك أقدم من الفعل في كونه خاصية للانسان لا جرَم كان الأقل علماً أولى باسم الميتِ أو الجماد من الأقل قوّة باسم الحياة ، فالاشرف علماً أولى بذلك لقوله تعالى : ﴿ أوَ مَن كَانَ مَيْتاً فأحْيَيْنَاهُ ﴾ هذا اذا كانا متقابلين أما إذا لم يكونا كذلك وهو أن يكونا موجودين يشتركان في وصف من عقول إلا أن ذلك الوصف لأحدهما أولى ، فيتنزل الناقص منزلة الكامل مثل قولهم : فلان لقي الموت إذا كان لقي شيئاً من الشدائد لأنها مشاركة للموت في الكراهية ، لكن الموت أولى بها فتتنزل تلك الشدائد منزلة الموت لاشتراكها في المكروهية ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ ويأتيهِ الموتُ مِن كلّ مَكانٍ وَمَا هَوَ بِمَيتٍ ﴾ .

وأما الثالث : فهو أن يستعار للمعقول اسم المحسوس ، وهو كاستعارة الحجة للنور الذي هو محسوس بالبصر ، واستعارة العدل للقسطاس المدرك بحاسة العين .

وأما الرابع : فهو استعارة اسم المعقول للمحسوس ، وهو غير جائز إلا على التأويل الذي نذكره في باب التشبيه إن شاء الله تعالى .

فصل

وهذه جملة مما احتوى عليه الكتاب العزيز من أقسام الاستعارة وصنوفها نذكرها مفصلة مبينة على حكم ما تقدم من الأقسام الأربعة ، إذ الغرض من هذا الكتاب معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان وأصناف البديع وفنون البلاغة ، وعيون الفصاحة وأجناس التجنيس . . أما ما جاء في الكتاب العزيز من استعارة المحسوس للمحسوس فآيات كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ واشتَعَلَ الرّأسُ شيباً ﴾ إذ المستعار منه النار والمستعار له الشيب والجامع بينهما الانبساط ، ولكنه في النار يقوى . وفي هذه الآية ثلاث فوائد أخر غير الاستعارة .

الفائدة الأولى : أنه سلك في الآية طريق ما أسند فيه الشيء الى الشيءِ وهو لشيءٍ آخر لما بينه وبين الأول من التعلق ، فيرفع ذكر ما أسند اليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبيناً ان ذلك الإسناد إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا .

الفائدة الثانية : بيان ما بينهما من الاتصال كقولهم : طاب زيد نفساً ، وتصبب عرقاً وأشباههما فيما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيءِ إلى ما ذلك الشيءُ من سببه ، فإنّا نعلم أن الاشتعال للشيب في المعنى وهو للرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس وتصبب للعرق ، وإن أسند الى ما أسند إليه ،

والدليل على أن شرفَ هذه الآية بسبب ذلك أنّا لو تركنا هذا الطريق وأسندنا الفعل الى الشيب صريحاً فقلنا : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس لانتفاء ذلك الحسن .

فإن قلتَ : فما السبب في إن كان اشتعل إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له هذا الفضل . فنقول السبب فيه أن يفيد مع لمعان الشيب في الرأس أنه شمل وشاع وأخذ به من نواحيه وعم بجملته حتى لم يبق من السواد شيء إلا القليل ، فهذه الفائدة لا تحصل إذا قيل اشتعل الشيب في الناس لا يوجب اللفظ أكثر من ظهور الشيب فيه . وبيانه أنك تقول اشتعل النار في البيت فلا يفيد أكثر من اصابتها جانباً . ومثاله من التنزيل قوله تعالى : ﴿ وَفجَّرنَا الأرْضَ عُيوناً ﴾ فالتفجير للعيون في المعنى ، لكنه وقع في اللفظ على الأرض ليفيد أن الأرض بالكلية صارت عيوناً .

الفائدة الثالثة : تعدية الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير الإضافة ، وهو أحد ما أوجب المزية ، ولو قيل واشتعل رأس لذهب الحسن . . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعضُهم يَموجُ في بَعضٍ ﴾ أصل الموج حركة الماء فاستعمل في حركتهم على سبيل الإستعارة . وقوله عز وجل : ﴿ والصُبح إذا تنفسَ ﴾ للظهورِ . . وأما استعارة المحسوس للمحسوس لشبه عقلي فكقوله تعالى : ﴿ إذ أرْسَلنَا عَلَيهِم الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ المستعار له الريح والمستعار منه المرأة العقيم والجامع بينهما المنع من ظهور النتيجة . ومنه قوله تعالى ﴿ وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسلَخُ مِنهُ النهارُ ﴾ المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته ، والجامع أمر عقلي ، وهو ترتيب أحدهما على الآخر . ومنه قوله تعالى ﴿ فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغن بالأمس ﴾ أصل الحصيد للنبات والجامع الهلاك وهو أمر عقلي . وقوله ﴿ خامدين ﴾ أصل الخمود للنار . ومنه قوله تعالى ﴿ وَإنهُ في أمِّ الكِتَابِ ﴾ وهو أفصح من أن يقال في أصل الكتاب . .

وأما استعارة المحسوس للمعقول فكقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحقّ عَلى البَاطِلِ فيَدمغُهُ ﴾ فالقذف والدمغ مستعاران . ومنه قوله تعالى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيهم الذلةُ أَيْنَما ثُقفُوا إلا بِحَبْلٍ مِن اللهِ وَحَبْلٍ من النَّاسِ ﴾ . ومنه قوله تعالى ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم ﴾ . ومنه قوله تعالى ﴿ وَإذَا رَأَيتَ الذينَ يَخوضُونَ في آياتِنا فأعرِضْ عَنهُمْ ﴾ وكل خوض ذمه الله في القرآن فلفظه مستعار من الخوض في الماء . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمرْ ﴾ استعارة لبيانه عما أوحى إليه لظهور ما في الزجاجة عند انصداعها . ومنه قوله تعالى : ﴿ أفمنْ أسَّسَ بنيانهُ ﴾ البنيان مستعار وأصله للحيطان . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوجاً ﴾ العوج مستعار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لِتخرجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ﴾ وكل ما في القرآن من الظلمات والنور مستعار .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَجَعْلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُوراً ﴾ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ ﴾ الوادي مستعار وكذلك الهيمان ، وهو على غاية الإفصاح . ومنه قَولهُ تعالى : ﴿ قَالتَا أَتَيْنَا طائعين ﴾ جعل للسموات والأرض **قولاً وطاعة**. ومنه قوله تعالى: ﴿ ولا تَجْعَلَ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ﴾ الآية . . وأما استعارةُ المعقول للمعقول فمنه قوله تعالى : ﴿ مَنْ بعثنا مِن مَرقدِنا ﴾ استعار الرقاد للموت ، وهما أمران معقولان ، والجامع عدم ظهور الأفعال . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولما سَكتَ عَن مُوسى الغَضَبُ ﴾ والسكوت والزوالُ أمران معقولان .

وأما استعارة المعقول للمحسوس فمنه قوله تعالى : ﴿ إنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُم في الجَارِيَةِ ﴾ المستعار منه التكبر والمستعار له الماءُ والجامع الاستعلاء المضر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بريحٍ صَرصرٍ عَاتيةٍ ﴾ والعتو ها هنا مستعار . ومنه قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَميزُ مِن الغَيظِ ﴾ فلفظ الغيظ مستعار . ومنه قوله تعالى :﴿وجَعلْنا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيتين فمحونا آيةَ اللَّيلِ وَجَعلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرَةً ﴾ وهو أفصح من مضيئة . ومنه قوله تعالى ﴿ حَتى تَضَع الحَربُ أوزَارَها ﴾ هذا الذي اختاره الامام فخر الدين ومن قبله

من المحققين . . وقال قوم الاستعارة على قسمين . الأول أن يعتمد نفس التشبيه ، وهو أن يشترك شيئان في وصف واخد ، أحدهما أنقص من الآخر فيعطي الناقص اسم مبالغة في تحقيق ذلك الوصف له ، كقولك : رأيت أسداً ، وأنت تعني رجلاً شجاعاً ، وعنّت لنا ظبية وأنت تعني امرأة ، وتجيءُ الأقسام الأربعة وقد تقدمت .

الثاني :أن تعتمد لوازمه وهو عندما تكون جهة الاشتراك وصفاً انما يثبت بكماله في المستعار منه بواسطة شيء آخر ، فيثبت ذلك الشيء في المستعار له مبالغة في إثبات المشترك ، ويسمى إستعارة تخييلية كقول لبيد :

وَغَـدَاةِ ريـحٍ قـد وزعـتُ وقِـرَّةٍ   إذْ أصبحَتْ بيـدِ الشَّمـالِ زِمـامُـهـا

استعار ـ اليد ـ للشمال ، وليس هناك مشارٌ إليه يمكن أن يجري اسم اليد عليه كما أجرى الأسد على الرجل ، لكنه خيل إلى نفسه أن الغداة في تصريف الشمال على حكم طبيعتها كالانسان المتصرف في بعيره وزمامه ومقادته في يده ، وتصرف الإنسان إنما يكمل باليد فأثبت لها اليد تحقيقاً للغرض وحكم الزمام في الإستعارة للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال . وكذلك قول تأبط شراً يصف سيفاً :

إذا هــزَّهُ في عَــظمِ قِــرْنٍ تهلَّلتْ   نـواجـذُ أفـواهِ المنايـا الضَّواحِـكِ

لما شبه المنايا عند هزه السيف بالمسرور وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذي تتهلل فيه النواجذ لا جرَم اثبته تحقيقاً للوصف المقصود ، وإلا فليس للمنايا ما ينقل اليه اسم النواجذ . وكذلك له في الحماسة :

سَقاهُ الرَّدَى سيفٌ اذا سُـلَّ أو مَضتْ   إليه ثنايا المـوتِ من كـلِّ مَـرقَـدِ

ـ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأخْفِضْ لهما جَناح الذلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ تحقيق هذا الخلاص عن التشبيه فإن من وضع في نفسه أن كل اسم يستعار فلا بد أن يكون هناك شيء تمكن الإشارة إليه تتناوله في حال المجاز كما يتناوله في حال الحقيقة . . وقال ابن الاثير : تقسم الاستعارة إلى قسمين . الأول يجب

استعماله وهو ما كان بينه وبين ما استعير له تشابه وتناسبٌ ، ولنضرب له أمثلة يستدل بها عليه . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وآية لَهمُ اللَّيلُ نَسلُخُ مِنهُ النَّهارَ ﴾ وهذا الوصف إنما هو على ما يظهر للعين لا على حقيقة المعنى لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجوّ عند إظلامه وإضاءته بغروب الشمس وطلوعها وليسا على الحقيقة شيئين ينسلخ أحدهما من الآخر إلا أنهما في رأي العين كأنهما كذلك ـ والسلخ ـ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض فلما كانت هوادى الصبح عند طلوعه كالملتحمة باعجاز الليل أجرى عليهما اسم السلخ ، وكان ذلك لائقاً في بابه ، وهو أولى من قوله يخرج ، لأنَّ السلخ أدل على الالتحام المتوهم من الاخراج . الثاني ما لا يجب استعماله وسيأتي بيانه . .

وقال قوم الاستعارة على سبعة أقسام : الأول : الإستعارة للمناسبة وهي على أربعة أقسام كما تقدم .الثاني : الاستعارة التخييلية وقد تقدم بيانها . الثالث : الاستعارة المجردة . الرابع : الاستعارة المرشحة . الخامس : الاستعارة البديعة . السادس : الإستعارة القبيحة . السابع : الإستعارة في الكناية ، وقد بينا متقدماً بعضها وسنبين الباقي إن شاء الله تعالى .

الوجه الرابع : من التقسيم الأول في اشتقاقها وهي مشتقة من العارية التي حقيقتها في الإجرام ، ولهذا قال ابن الأثير الاستعارة هي أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع الإفصاح بالتشبيه واظهاره ، وتجيء على اسم المشبه به ، فتعبر به عن اسم المشبه تجريه عليه كقولك : رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته ، وقوة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول ـ رأيت أسداً ـ والسين التي في الاستعارة ليست سين الإلتماس والطلب ، التي هي في قولهم استعان اذا طلب المعونة واستجار اذا طلب الجيرة ، وإنما هي كالتي في قوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ . وكقول الشاعر :

* فَلَم يَستجبْهُ عند ذاك مُجيبُ *

الوجه الخامس : فيما تصح منه الإستعارة وفيما لا تصح . . قال الامامُ فخر الدين وجماعةٌ من المحققين : إن الأسماءَ على ثلاثة أقسام : أسماء أعلام ، وأسماء مشتقةٌ ، وأسماء أجناس . . فأما الأسماء الأعلام فلا إستعارة فيها لأن المشابهة بين الأصل والفرع معتبرة في الإستعارة ، وهي غير معتبرة في الأعلام . . وأما الأسماءُ المشتقة فالإستعارة أيضاً لا تدخلها دخولاً أولياً ، وهل تتحقق في الفعل أم لا ؟ فنقول : الفعل شأنه الدلالة على ثبوت المصدر لشيء في زمان معين فالاستعارة تقع أولاً في المصدر بواسطة ذلك في الفعل ، فإذا قلت نطقت الحال ، وهذا إنما يصح لأن الحال مشابهة النطق في الدلالة على الشيء فلا جرم استعير النطق لتلك الحالة ، فالإستعارة أولاً واقعةٌ على المصدر بواسطته في الفعل ، فإذاً الإستعارة في الحقيقة ليست إلاّ في المصدر ، فإذا عرفت ذلك تبين لك أنَّ الأسماءَ المشتقة أيضاً كذلك فإن الإسم المشتق هو الذي يدل على ثبوت المشتق منه ، لشيء مع عدم الدلالة على زمان ذلك الثبوت ، فظهر منه أن الاستعارة إنما تقع وقوعاً أولياً في أسماءِ الاجناس . .

وتلخيص هذا الكلام أن المعنى يستعار أولاً بواسطة إستعارة اللفظ ، وأن الاستعارة تقع في المصدر ثم بواسطة في الفعل ، وإستعارة الفعل أما من جهة فاعله كقولك نطقت الحال بكذا ولعبت به الهموم ، وأما من جهة مفعوله كقول ابن المعتز :

جُمِعَ الحقُّ لنا في إمام قتلَ الجوعَ وأحيا السماحَ

أو من جهة مفعوليه كقول القطامي :

نُقْريهمُ لهذَميَّاتٍ نقدُّ بها ما كانَ خاطَ عليها كلُّ زرَّاد

أو لكليهما كقول الحريري :

وأقرِىء المسامعَ إما نطقتُ بيانًا يقودُ الحُرونَ الشَّموسا

أو من جهة الفاعل والمفعول . كقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخطفُ

أبصارَهم ﴾ . . وقال ابن الأثير في جامعه : إعلم أن الإستعارة قد جاءت في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً تقول : رأيت ليوثاً . ولقيت صُماً عن الخير . وأضاء الحق . إلّا أنه قد استعمل الضرب الثاني الذي ذكرناه وهو قولنا ـ زيد أسد ـ في باب الإستعارة وأورده جماعة من العلماء مثل قدامة والجاحظ وأبي هلال العسكري والغانمي ، وأبي محمد بن سنان الخفاجي في تصنيفاتهم في باب الإستعارة ولم يذكروا أن الأصل فيه أنه تشبيه بليغ فما أعلم هل ذلك لخفائه عليهم أو أنهم عرفوه ولم يذكروه وهو الأصل المقيس عليه في التشبيه الذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان وقد أوردناه نحن في كتابنا هذا في باب الإستعارة تشبيهاً بالقوم واستناناً بسننهم ، لأنهم السابقون في هذا الفن بالتصنيف إلا أن موضعه باب التشبيه فاعرف ذلك .

الوجه السادس : الإستعارة التخييلية ، وقد تقدم الكلام فيها ونزيد ذلك وضوحا وهو أن علماء البيان قالوا : إن أكثر الآيات التي يتمسك بها أهل التشبيه من هذا . فمنها قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُلِّ مِنَ الرَّحمةِ ﴾ اثبات الجناح للذل استعارة تخييلية . . روي أن أبا تمام لما نظم قوله : (هو حبيب بن أوس الطائي) .

لا تَسقِني مَاءَ المـلامِ فَـإنني صَبٌّ قد استعذبتُ مَاءَ بُكَائي

جاءه رجل بقصعة وقال : اعطني قليلاً من ـ ماء الملام ـ فقال أبو تمام : لا أعطيكه حتى تأتيني بريشة من ـ جناح الذل ـ فافحم الرجل . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سنفرُغ لكم أيها الثَّقلان ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي ومَن خلَقتُ وَحيداً ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ إلّا أن يَعفونَ أو يَعفُو الذي بيدِه عُقدَةُ النكاحِ ﴾ . ومنه قوله تعالى ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ﴾ وفي القرآن العظيم من ذلك كثير .

الوجه السابع : الاستعارة المجردة وهي أن تنظر إلى المستعار من غير نظر إلى غيره كقوله تعالى : ﴿ فأذاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجَوعِ والخَوفِ ﴾ وكقول

زهير :

* لدَى أسدٍ شاكي السِلاحِ مَقَذَّف *

لو نظر إلى المستعار منه لقال ـ فكساهم الله لباس الجوع ـ ولقال زهير ـ لدي أسد أوافي المخالب . أو وافي البراثن ـ .

الوجه الثامن : الإستعارة المرشحة وهي أن تنظر إلى جانب المستعار فتراعي جانبه وتواليه ما يستدعيه ، وتضم إليه ما يقتضيه مثل قول كثّير :

* رَمتني بِسهمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لم يَضر *

وقول النابغة :

* وَصَدْرٍ أراحَ الليلُ عازِبَ هَمّهِ *

المستعار في كل واحد منهما وهو الرمي والإزاحة منظور إليه في لفظي ـ السهم والعازب ـ

الوجه التاسع : الاستعارة البديعة البالغة ، وهي أن تتضمن المبالغة في التشبيه مع الإيجاز وغالب استعارات الكتاب العزيز كذلك ، وفي أشعار فصحاء العرب منها كثير .

الوجه العاشر : الاستعارة القبيحة ، وليس في الكتاب العزيز منها شيء ، وأما في أشعار العرب وغيرهم فكثير . . ومن قبيح الاستعارة قول أبي تمام :

سبعونَ ألفاً كآساد الشَّرَى نَضِجَتْ أعمارُهم قبلَ نضْجِ التين والعِنبِ

وهذا البيت ليس فيه وجه من وجوه الحسن ، وقد روي في غير هذه الرواية ـ نضجت جلودهمُ قبلَ ـ وعلى هذه الرواية ليس في البيت استعارة قبيحة فإن القتلى أنضجت الشمس جلودهم كما تنضج التين والعنب . . وكذلك قوله :

* أيا مَن رَمى قَلبي بسَهمٍ فأدخَلا *

أقام ـ أدخلَ ـ مقام أنفذ . وفي رواية ـ فأقصَدا ـ وفي رواية ـ فأنفَذا ـ فعلى من روى فأقصدا وأنفذا فهي استعارة حسنة . . ومما يزيد الإستعارة حسناً وهو أصل في هذا الباب أن يجمع بين عدّةٍ من الإستعارات قصداً لإلحاق الشكل بالشكل ، لاتمام التشبيه كقول امرىء القيس في وصف ليل طويل :

فقلتُ لـه لمّا تمـطّى بِصُلْبِـهِ وأردَفَ أعجـازاً وَنـاءَ بِكَـلْكَـلِ

لمّا جعل لليل صلباً قد تمطى به بيَّن ذلك فجعل له كلكلاً قد ناء به فاستوفى جملة أركان الشخص ، وراعى ما يراه الناظر من جميع جوانبه .

الوجه الحادي عشر : الاستعارة بالكناية وبيان ما تتنزل به الإستعارة بالكناية منزلة الحقيقة . . أما الإستعارة بالكناية فهي إذا لم يصرح بذكر المستعار ، بل بذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه كقول أبي ذؤيب :

وإذا المنيّـةُ أنشبَتْ أظـفـارَهـا ألفيتَ كـلّ تميمـةٍ لا تـنفـعُ

فكأنه حاول استعارة السبع للمنية ، لكنه لم يصرح بها بل بذكر لوازمها تنبيهاً بها على المقصود .

الثاني عشر : ما تتنزل به الإستعارة منزلة الحقيقة : وهو أن يذكر لفظاً يوهم به أن الإستعارة أصلا كقول أبي تمام :

ويصعَـدُ حتى يـظنَّ الـجَهُـولُ بـأنَّ لَـهُ حَـاجـةً في السَّمَـاءِ

لمّا استعار العلوّ لزيادة العلوّ في الفضل والقدر ، ذَكَره ذِكْرَ من يذكر علو مكان . . وكقول ابن العميد :

قَـامَـتْ تُـظَلّلُني مِـنَ الشَـمْسِ نَفْسٌ أعـزُّ عَـلَيَّ مِـنَ نَـفْسِ
قَـامَـتْ تُـظَلِلُني وَمِـنْ عَـجَبٍ شَـمْسٌ تُـظَلِلُني مِـنَ الـشَـمْسِ

ومدار هذا النوع على التعجب وقد يجيء على عكسه كقوله :

لا تـعـجـبـوا مـن بِـلا غِـلالـتِـه
قَـدْ زَرّ أزْرارُه عـلى الـقَـمـرِ

وهذا إنما يتم بالحكم الجِدّي بكونه قمراً ليكون من شأنه أن يبلى الكتان .

الوجه الثالث عشر : شروط الإستعارة الكاملة . . قال ابن الأثير : لا بد للإستعارة من ثلاثة أشياء : مستعار . ومستعار منه . ومستعار له . فاللفظ المستعار قد نقل من أصل إلى فرع للإبانة ، والمستعار منه ، والمستعار له لفظان حمل أحدهما على الآخر في معنى من المعاني هو حقيقي للمحمول عليه مجازي للمحمول . مثال ذلك قوله تعالى ﴿ **واشْتَعَلَ** الرأسُ شَيباً ﴾ فهذا مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له ، فالمستعار هو الإشتعال ، وقد نقل من الأصل الذي هو النار إلى الفرع الذي هو الشيب قصداً للإبانة ، وأما المستعار منه فهو النار ، والإشتعال لها حقيقة ، وأما المستعار له فهو الشيب والإشتعال له مجاز .

القسم الحادي والعشرون

التشبيه والكلام عليه من وجوه

الأول :هل هو من المجاز أو لا ؟ . الثاني : بيان الغرض بالتشبيه. .الثالث: في حده . . الرابع : في معرفة الأشياء التي يكون منها التشبيه . .الخامس: في أقسامه . . السادس : في ذكر أدوات التشبيه ما يكون بأداة ، وما يكون بغير أداة . .السابع : في تشبيه الشيئين بالشيءِ الواحد . . الثامن : في ذكر ما حسن به موقع التشبيه . . التاسع : في الشرط الذي لا يكون التشبيه حسناً إلا به . . العاشر : فيما يجوز عكسه من التشبيه ، وما لا يجوز . . الحادي عشر : التشبيه في الهيئات التي تقع عليها الحركات . . الثاني عشر : الفرق بين الاستعارة والتشبيه .

أما الأول : فالذي عليه جُمهور أهل هذه الصناعة أن التشبيه من أنواع المجاز ، وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير اليه . وذهب المحققون من متأخري علماء هذه الصناعة وحُذاقها إلى أن التشبيه ليس من المجاز لأنه معنى من المعاني ، وله حروف وألفاظ تدل عليه وضعاً كان الكلام حقيقة أو مجازاً ، فإذا قلتُ زيد كالأسد . وهذا الخبر كالشمس في الشهرة . وله رأي كالسيف في المضاء . لم يكن مثل نقل اللفظ عن موضوعه فلا يكون مجازاً .

وأما الثاني : فالغرض بالتشبيه وفائدته الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسب من فضيلة الايجاز والإختصار ، والدليل على ذلك قولنا ـ زيد أسد ـ

فإن الغرض بهذا القول أن نبين حال زيد وأنه متصف بشهامة النفس وقوة البطش والشجاعة وغير ذلك مما جرى هذا المجرى ، إلا أنا لم نجد شيئاً يدل عليه سوى جعلناه شبيهاً بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به مقصورة عليه ، فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوي البطش جريء الجنان وأشباه ذلك ، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به ، فإنه معروف بها مشهور بكونها فيه .

وأما الثالث : فقد اختلفت عبارات أهل هذا الشأن في حده ، فقال قوم : حده أن يثبت للمشبه حكما من أحكام المشبه به . . وقال قوم : حده الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني ،وأن أحدهما يسدّ مسدّ الآخر وينوبُ منابَه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازاً ، أما الحقيقة : فهو أن يقال في شيئين أحدهما يشبه الآخر في بعض أوصافه كقولنا ـ زيد أسد ـ فهذا القول صواب من حيث العرف ، وداخل في باب المبالغة الا أنه لم يكن زيد أسد على الحقيقة .

وأما الرابع : فقال المحققون من علماء هذا الشأن الاشياء التي يكون منها التشبيه لا يخلو إما أن تكون صفة حقيقية ، أو حالة اضافية . فأما الأول فلا يخلو إما أن يكون كيفية جثمانية أو نفسانية ، والاول لا يخلو إما أن تكون صفة محسوسة أو لا تكون محسوسة ، فإن كانت محسوسة ، فإما أن تكون محسوسة أولا أو ثانياً ، والمحسوسات الأول هي مدركات السمع . والبصر . والشم . والذوق . واللمس . فالاشتراك في الكيفية المبصرة مثل تشبيه الورد بالخد لاشتراكهما وكذلك تشبيه الوجه بالنهار والشعر بالليل . والاشتراك في كيفية مسموعة كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج في قول الشاعر :

كأنَّ أصواتَ منْ ايغالِهنَّ بِنَا   أواخرَ المَيْسِ أصواتُ الفَرَارِيجِ

التقدير ـ كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن

بنا ـ فَصَل بين المضاف والمضاف اليه . والاشتراك في كيفية مذوقة كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر . والاشتراك في كيفية مسمومة كتشبيه بعض الرياحين برائحة الكافور والمسك والاشتراك في كيفية ملموسة كتشبيه لين ناعم بالخز والحرير ، والخشن بالمِسح من الشَّعر ، هذا إذا كان فيه الاشتراك محسوساً أولاً . أما اذا كان محسوساً ثانياً ، فالمحسوسات الثانية هي : الاشكال . والمقادير . والحركات . والأشكال : إما مستقيمة أو مستديرة فالتشبيه لأجل الاشتراك في الاستقامة مثل تشبيه المستوى المنتصب بالرمح ، والقد بالقضيب والغصن . وان كان الاشتراك في الاستدارة ، فكتشبيه الشيء المستدير بالكرة تارة وبالحلقة أخرى .

وإن كان الاشتراك في المقادير فكتشبيه عظيم الجثة بالجبل والفيل وإن كان في الحركة مع اعتدال الاستقامة ، فكتشبيه الذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم ، وأما إذا كان الاشتراك في كيفية جثمانية غير محسوسة ، فهو كالاشتراك في الصلابة ، والرخاوة . وأما اذا كان الاشتراك في كيفية نفسانية فهو كالاشتراك في الغرائز والاخلاق مثل : الكرم . والحلم . والقدرة . والعُلى . والذكر . والفطنة . والتيقظ والمعرفة .

وأما اذا كان الاشتراك في حالة الاضافية لا في كيفية حقيقية ، فهو مثل قولك ـ هذه حجة كالشمس ـ فاشتراكهما ليس في شيء من الكيفيات الحقيقية ، ولكن في أمر إضافيّ وهو أن كل واحد منهما مزيل للحجاب . . ثم ان هذه الاضافات قد تكون جلية أو قد تكون خفية ، وربما يبلغ الجلي في القوة الى أن يقرب من القسم الأول . مثال الجلي تشبيه الحجة بالشمس . وكذلك قولهم في صفة الكلام ألفاظ كالماء في السلاسة . وكالنسيم في الرقة . وكالعسل في الحلاوة . يريدون أن اللفظ اذا لم تتنافر حروفه تنافراً يثقل على اللسان ، ولم يكن غريباً حُوشياً ، بل

كان مألوفاً ، ثم إن القلب يرتاح له والنفس تنشرح به فلسرعة وصوله الى النفس صار كالماء الذي يسوغ في الحلق وكالنسيم الذي يمري في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة ، ولأجل اهتزاز[1] النفس به أشبه العسل الذي يلذ طعمه ويميل الطبع اليه .. هذا المثال أشد حاجة إلى التفسير من تشبيه الحجة بالشمس ، ولكنه مع ذلك غير بعيد عن الفهم ، وأما المتوغل في البعدعن الطبع وشدة الحاجة إلى التأويل فكقول من ذكر بني المهلب هم كالحلقة المفرغة لا ينتهي طرفاها ألا ترى أنه لا يفهم المقصود من ذلك إلا من له طبع يرتفع عن طبع العامة ؟ ..

ومن وجوه التشبيه أيضاً التشبيه بالوجه المعقول ، وهو عندهم أقوى وأظهر من التشبه بالمحسوس ، لأن تشبيه المحسوس بالمحسوس يمكن أن يكون لأجل الاشتراك في وصف محسوس ويمكن أن يكون لأجل الاشتراك في وصف معقول ويمكن أن يكون لأجلهما جميعاً . مثال الأول : تشبيه الخد بالورد . ومثال الثاني : قوله عليه الصلاة والسلام ايَّاكم وخضراء الدِمَن الحسنَ الظاهر القبيح الباطن وهو أمر عقلي . وكذلك تشبيه الرجل النبيه بالشمس ، فإن النباهة صفة عقلية وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام أصحابي كالنجوم المعنى به أنه يهتدى بهم في أمور الأديان كما يهتدى بالنجوم في الليالي المظلمة ، فالشبه في أمر عقلي . ومثال الثالث : تشبيه الشخص الرفيع القدر الحسن الوجه بالشمس . وأما الاقسام الثلاثة أعني تشبيه المعقول بالمعقول ، والمعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول ، فيمتنع أن يكون وجه المشابهة غير عقلي ، لأن وجه المشابهة لو كان مشتركا بين الجانبين لكان المعقول الموصوف به محسوساً من ذلك الوجه ، وهو محال ، فثبت أن التشبيه بالوصف

---

(١) كذا في الاصل ولعله التذاذ فليحرر .

المعقول أعم من التشبيه بالوصف المحسوس ، وإذا علم هذا وتبيَّن الوجه الذي يكون منه التشبيه تعيَّن ذكر أقسام التشبيه مبينة منزَّلة على ما قدَّمناه .

وأما الخامس : فقد أطبق جمهور علماء هذه الصناعة على أن أقسامه أربعة : الاول : تشبيه محسوس بمحسوس . الثاني : تشبيه معقول بمعقول . الثالث : أن يكون المشبه معقولاً ، والمشبه به محسوساً . الرابع : أن يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولا . وقد زاد ابن الأثير قسما خامساً ، وسماه غلبة الفروع على الأصول ، وسيأتي بيانه .

أما الأول وهو تشبيه المحسوس بالمحسوس فكقوله تعالى : ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجونِ القَدِيمِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أعجازُ نخلٍ خاويةٍ ﴾ ومن شرط هذا النوع أن يكون المشبه والمشبه به مشتركين من وجهٍ مختلفين من وجهٍ ، ولا يخلو إما أن يكون اشتراكهما في الذات واختلافهما في الصفات ، وإما أن يكون بالعكس . فالأول مثل تشبيه العدْو بالطيران لأنه ليس الاختلاف بينهما إلا بالسرعة وبالبطء . والثاني كتشبيه الشعر بالليل والوجه بالنهار . . وأما القسم الثاني وهو تشبيه المعقول بالمعقول فهو كتشبيه الموجود العاري عن الفوائد بالمعدوم أو تشبيه الشيء الذي تبقى فوائده بعد عدمه بالموجود . ومنه قول الشاعر :

فـرحتُ وآمالي كحـظي كـواسفٌ وعزمي يُحاكي سعيَهُ في المكارم

وأما القسم الثالث الذي هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، فهو كقوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا أعمالهم كَسَرَابٍ بَقيعةٍ ﴾ . وقوله : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُون اللهِ أولياءَ كَمَثَلِ العنكبوتِ اتخذَتْ بيتاً ﴾ . وقوله

تعالى : ﴿مَثلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصفٍ﴾ وأيضاً مثل تشبيه الحجة بالشمس وبالنور الذي هو محسوس بالبصر ، وليس لأحد ان يقول الحجة أيضاً مسموعة .

قلنا المفيد هو المعاني العقلية الحاصلة في الذهن ووجه المشابهة أن القلب مع الشبه كالبصر مع الظلمة في أن البصر في الظلمة لا يفيد لصاحبه مكنة السعي ، ولو سعى فربما دُفع إلى الهلاك فتردّى في أهوية ومن الأمثلة تشبيه العدل بالقسطاس . .

وأما القسم الرابع وهو تشبيه المحسوس بالمعقول فهو غير جائز لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية اليها ، ولذلك قيل : من فقد حساً فقد علماً ، وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلًا للفرع أصلًا وللأصل فرعاً ، وهو غير جائز ، وكذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور أو المسك بالطيب فقال الشمس في الظهور كالحجة والمسك في الطيب كخلق فلان كان سُخفاً من القول مع أنه قد ورد في الكلام الفصيح وأشعار العرب والمتأخرين منه ما لا يحصى . فمن ذلك قول بعضهم :

وكأنّ النجومَ بينَ دُجاها   سُننٌ لاحَ بَينهنّ ابتداعُ

ـ وكقول بعضهم :

وَلَقَدْ ذَكرْتكِ والظَلامُ كأنه   يومُ النوَى وفؤادُ مَن لَمْ يعشق

ـ وقول بعضهم :

كأنَّ آبيضاضَ البَدْرِ من تحتِ غيمهِ   نَجاةٌ من البَأْسَاءِ بعدَ وُقوعهِ

ـ وقول التنوخي :

أمَا تـرَى البـرْدَ قـد وافت عَسَـاكِرُهُ وعَسكَـرُ الحـرِّ كَيفَ انصـاعَ مُنـطَلِقـا
فَـانهضْ بنـارٍ الى فَحْـمٍ كـأنهـمـا في العَين ظُلمٌ وانصـافٌ قـد اتفقـا
جَاءتْ ونَحن كَقلب الصَبِّ حِينَ سلاَ بَـرْداً فَصُـرْنـا كَقَلْبِ الصَّبِّ إذ عَشِقَـا

ـ وقال آخرْ :

رُبَّ ليلٍ كأنه أمَلي فِيك وَقَد رُحتُ عنكَ بالحِرْمانِ

ـ وقول الصاحب حين أهدى العطر إلى القاضي أبي الحسن :

يا أيها القاضي الذي نفسي لـه في قُـرْبِ عهـدِ لِقـائِـه مُشتـاقـهْ
أهـديتُ عِطراً مثـلِ طِيبِ ثَنـائِـه فَكَـأنمـا أهـدِي لَـه أخـلاقُـهُ

ومثل هذا في أشعارهم كثير لا يحصى والذي يجمع بين هذا وبين القواعد العقلية أن هذه الاشياء المعقولة لتقررها في الذهن وتخيلها في العقل ، صارت بمنزلة المحسوسات ، فلما نزلت منزلة المحسوسات صح التشبيه وقويت ، وصار المعقول للمبالغة أثبت في النفس وأقوى من المحسوس ، فصار لذلك أصـلاً يشبَّه بـه . ومن هذا قـوله تعـالى : ﴿ طَلْعُها كأنه رؤسُ الشياطين ﴾ ولهذا قال امرؤ القيس يُشبه نصـول الرماح :

ومسنونةٍ زُرْقٍ كأنيابِ أغوال

فإنهم وإن كانوا لم يُشاهدوا الغول وأنيابها لكنهم لما اعتقدوا فيها أي في أنيابها غاية الحدّة حسن التشبيه ، والصحيح أن المحسوس أعرف من التشبيه بالوصف المعقول لثلاثة أوجه . الأول أن أكثر الغرض من التشبيه التخييل الذي يقوم مقام التصديق في الترهيب والترغيب والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة منه على الأمور الاضافية .

والثاني أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق من الاشتراك في مقتضاها . الثالث أن المشابهة في الصفة قد تبلغ الى حيث يتوهم أن احدهما الآخر . وأما المشابهة في مقتضى الصفة لا تبلغ إلى هذا الحد لأن من المستحيل أن لا يجد العاقل فصلا بين ما يقتضيه ذوق العسل في نفس الذائق ، وبين ما يحصل بالكلام المقبول في نفس السامع . . وأما القسم الخامس فقال ابن الاثير : ومن أقسام التشبيه قسم يقال له غلبة الفروع على الأصول ، وهو ضربٌ من الكلام ظريف لا يكاد يوجد منه شيء الا والغرض به المبالغة . . فما جاء من ذلك قول ذي الرُّمة :

ورَمْـلٍ كـأوراك الـعـذَارَى قـطعتُـهُ   إذا ألبستْـهُ المـظلِمـات الـحَنـادِس

ـ ومثل ذلك قول بعضهم :

في طلعةِ البـدْرِ شَيءُ من مَـلاحَتِهَا   وفي القَضِيـب نصيبُ مـن تَثَنيـهـا

والغرض بهذا النوع المبالغة في وصف المشبه به كأن هذا المعنى ثبت له وصار أصلاً .

وأما السادس : في أدوات التشبيه فأدواته اسماءٌ وأفعال وحروف . أما الاسماء فمثل بسكون الثاء وتحريكها وشبه بسكون الباء وتحريكها وأشباهُ ذلك . وأما الافعال كحسبت وخلت ويحسب ويخال ونظائرها . وأما الحروف فالكاف مفردة واذا أضيف اليها ما يجري مجرى ذلك وقد نطق بذلك كله الكتاب العزيز والسنة .

أما الأسماء فقال الله تعالى : ﴿ مَثلهم كَمثلِ الَّذي اسْتَوقَدَ ناراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مَثَل ما يُنفقون في هذه الحَياة الدُنيا كمثَل رِيحٍ فيها صرٌّ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مثَلُ الفَريقَين كالأعمَى والأصمّ والبَصيرُ

والسَميعُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِهِ ﴾ . وقال تعالى ﴿ فَجَزَاءٌ مِثلَ مَا قَتل مِنَ النعم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأوتُوا بهِ مُتَشَابِهاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنا ﴾ وفي الحديث الصحيح فمن أين يكون الشبَهُ والشَّبْهُ . وأما الافعال فكقوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُ الظَمآن مَاءً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إليه مِن سِحْرِهِم أنَّها تَسْعَى ﴾ .

وأما الحروف فكقوله تعالى : ﴿ كَالَّذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئاء النَّاس ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَتْ به الرِيحُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ كَدَأبِ آلِ فِرْعَونَ ﴾ . وأما ـ كأنَّ ـ فكقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَياطين ﴾ وفي القرآن من هذا كثير .

وأما في كلام العرب الفصحاء منهم وأشعارهم فشيء كثير أضربنا عن ذكره لكثرته وشهرته . . وقال ابن الاثير وقد وقع في القرآن العزيز التشبيه بغير أداة في مواضع كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُمي فَهم لا يَرجِعُون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِم وَعَلى سَمْعِهِمْ وعَلَى أبْصارِهِم غِشاوةٌ ﴾ وهو أبلغ في التشبيه . . قال جمهور علماء هذا الشأن : التشبيه يكون بأداة تارة ، وتارة بغير أداة ، لكن إذا كان بغير أداة كان أبلغ وأوجز ، لأن قولنا ـ زيد أسد ـ يعطي ظاهره من المعنى أنَّا أخبرنا عن زيد أنه أسد ، وذكرنا أنه هو الا أن حرف التشبيه الذي كان مخفياً في الاول فيصير حينئذ تشبيهاً لزيد بالأسد ، والاول كان قد جعل هو الأسد ، وحرف التشبيه يقدر فيه تقديراً فمن هذا الوجه كان الأول أبلغ وأشد وقعاً في النفس . وأما كونه أوجز فلأن قولنا ـ زيد أسدٌ ـ أخص من قولنا ـ زيدٌ كأنه الأسد ـ وان كان المعنيان سواء .

وأما السابع : في تشبيه الشيئين بالشيء ، وقد يشبه الشيئين بالشيء الواحد ، وانما جاز ذلك لأنَّ المشبه قد يأخذ صفة من صفات

نفسه وصفة غيره ثم يشبههما بشيء آخر كقول الشاعر :

صَـدغُ الحبيب وَحَـالِي   كِـلاَهُـمَـا كَـالـلَّيَـالـي

وقد وقع تشبيه الشيئين بالشيء الواحد ، وانما جاز ذلك لأنه لا يخلو الشيئان في تشبيه أحدهما بالآخر من ثلاثة أقسام : إما تشبيه معنى بمعنى ، وإما تشبيه معنى بصورة ، وإما تشبيه صورة بصورة ، وكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة لا يخلو من ثلاثة أقسام : إما تشبيه مفرد بمفرد . . وإما تشبيه مركب بمركب . وإما تشبيه مفرد بمركب . فأما تشبيه المفرد بالمفرد فكقول البحتري :

تبسمُ وقُـطوبٌ في نـدىً ووغىً   كَالغَيثِ والبَرقِ تَحتَ العَارِضِ البَرِدِ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأ الذي آتيناهُ آياتنا فانْسَلَخَ منها فاتبَعهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأرضَ واتَّبعَ هَواهُ فمثلهُ كَمثلِ الكَلبِ ﴾ الآية . وأما تشبيه المركب بالمركب فقوله تعالى : ﴿ إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَماءٍ أَنزلنَاهُ مِنَ السَّمَاء فاختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا تَأْكُلُ النَّاسُ والأنْعَامُ ﴾ الى قوله : ﴿ كَأَنْ لَم تَغن بالأمْسِ ﴾ الآية . فشبه حال الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض وذلك تشبيه معنىً بصورة وهو أبدع ما يجيء في هذا القسم . ومثله في حق المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثلِ الَّذي اسْتَوقَدَ ناراً فَلمَّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِم وَتَركَهُم في ظُلُمَاتٍ لاَ يُبصرون ﴾ تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله ، واتقى ما يخاف وأمن فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي مظلماً خائفاً متحيراً ، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الايمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده ، فإذا مات عاد إلى الخوف وبقي في العذاب والنقمة .

ويجوز أن يكن المعنى أنهم لما وصفوا ـ بأنهم اشتروا الضلال بالهدى ـ عقب ذلك بهذا التمثيل مثّل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئه ما حول المستوقد ـ والضلالة ـ التي اشتروها ، وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، ثم قال الله ـ صمٌّ بكمٌ عمي ـ كانت حواسهم سليمة لكن لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة الى الحق وأبوا أن ينطقوا به بألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جُعلوا كأنما أصابت هذه الحواس منهم الآفات ، وهذا من عجائب التشبيه وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم ـ ليوث ـ للشجعان ـ بحور ـ للكرام . . وبعض علماء هذه الصناعة يجعلون ما كان على مثال قوله تعالى : ﴿ صُم بُكْم عُميٌ ﴾ استعارة وليس كذلك لأن المستعار مذكور .

ـ ومن هذا القسم قول الشاعر :

بَكَيتُ عَليهِ حِينَ لم يَبلغ المُنى ولم يَرو من ماءِ الحَياةِ المكدَّرِ

ومنه قول المتنبي :

كأن الجَفُونَ عَلى مُقلتيَّ ثيابٌ شُقِقن على ثاكِلِ

وأما تشبيه المفرد بالمركب فمن ذلك قول بعضهم :

كأن السُّهى انسانُ عينٍ غريقةٍ من الدَّمعِ يبدُو كلما ذَرَفتْ ذَرْفا

وأما الثامن : في ذكر ما يحسن به موقع التشبيه . . قال أئمة هذا الشأن : ان كثرة التقييدات يعظم بها حسن موقع التشبيه وتكون أدخل في التشبيه من غيرها لأنها عقليه . مِثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّما مَثل الحياةِ الدنيا كَماءٍ أنزلنَاهُ مِنَ السَّماءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَأنْ لَم تغن بالأمس ﴾ وهذه فيها عشر جمل قيد بعضها ببعضٍ حتى صارت جملة واحدة ، وهي مع ذلك لا يمتنع أن تكون صور الجُمَل معناها حاصلاً يمكن أن يشار

بها واحدة واحدة ، ثم أن التشبيه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، فإنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه . . وقد يقع من التشبيه جُمل لا يخل اسقاط بعضها بالتشبيه ، وهي كل جملة جمعت أغراضاً كثيرة كل واحد منها منفرد بنفسه ولهذا النوع خاصيتان : الأولى أنه لا يجب فيها الترتيب ، ألا ترى أنك اذا قلت ـ زيد كالأسد بأساً . والبحر جوداً . والسيف مضاءً . والبدر بهاءً ـ لم يجب عليك أن تحفظ في هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً وهو كقول بعضهم :

يـا هـلالاً يُـدعى أبـوهُ هِـلالاً جَـلّ باريـكَ في الوَرى وتَعـالَى
أنتَ بـدرٌ حُسْنـاً وشمسٌ عـلواً وحُسـامٌ حَـزمـاً وبحُـرٌ نَـوالاَ

ـ الثانية إذا سقط البعض فإنه لا يتغير حال الباقي كقولهم يصفو ويكدر ويحلو ويمر ولو تركت ذكر الكدروة والمرارة لو وجدت المعنى في تشبيهك بالماء في الصفاء والعسل في الحلاوة باقياً على حاله . وقد وقع في بعض الاشعار ما يظن أن فيه تشبيهات مجموعة ، وليس كذلك بل هو تشبيه واحد ، وذلك كقول الشاعر :

كما أبرَقت قوْماً عِطاشاً غمامةٌ فلما رَجوها أقشعت وتجلت

وأما التاسع : فهو في الشرط الذي لا يكون التشبيه حسناً الا به وهو أن يكون التشبيه جلياً ويكون بحال يتبادر الذهن إليه وإلى إدراكه ، ولا يحتاج إلى اطالة فكرة ولا إمعان نظر ، فإن الغرض بالتشبيه بيان حسن موقع التشبيه وظهور مزية المشبه بحسن حال المشبه به أو قبحه ، ولذلك هجنوا تشبيه من شبه الشمس بالمرآة في كف الأشل وكتشبيه البرق بأصبع السارق في قول بعضهم :

أرِقْتَ أم نمتَ لِضَوءِ بارقِ مؤتلفاً مثلَ الفوادِ الخافق
كأنه إصبعُ كف سارِقِ

وأما العاشر : فيما يجوز عكسه من التشبيه وما لا يجوز . فأما الذي لا يجوز عكسه ، فكل تشبيه كان الغرض به إلحاق الناقص بالزائد مبالغة في اثبات الحكم للناقص فهذا يمتنع عكسه ، وهو كما اذا شبهت شيئاً أسود بما هو الاصل في شدة السواد كخافيتي الغراب والقار امتنع فيه العكس، لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص تضاد المبالغة في الاثبات. واما الذي يجوز عكسه فهو الجمع بين شيئين في مطلق الصورة أو الشكل ، أو اللون فالعكس مستقيم فيه فهو كتشبيه الصبح بغرة الفرس مع كون البياض قليلاً بالاضافة إلى السواد ، وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة والدينار الخارج من السكة كقول ابن المعتز فهذا حسن مقبول ، وان اعظم التفاوت بينهما لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور ، وانما قصدت إلى مستدير يتلألأ ويلمع ، ثم خصوص جنس اللون الموجود في المرآة المجلوة والدينار للتخلص من حمى المسبك يوجد في الشمس ، فأما مقدار النور بأنه زائد أو ناقص والجرم عظيم أو صغير فمما لم يتعرض له وعلى هذا خرج قوله تعالى : ﴿ الله نُورُ السَّمواتِ والأَرْض مَثَل نُوره كمشكاة فيها مصباحٌ المصباحُ في زُجاجَة الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّي ﴾ الآية ، فإنه سبحانه وتعالى لم يرد بالتشبيه بهده الزجاجة الموصوفة بهذه الصفة المشاركة بين نوره وبين نور هذه الزجاجة ،إذ لا مناسبة بينهما، بل كان ذلك من التشبيه الذي ينعكس بل الذي يتعين عكسه .

وأما الحادي عشر : في الهيئات التي تقع عليها الحركات فهي عند أرباب هذا العلم على قسمين : أحدهما أن تعرف تغيرها من الأوصاف كالشكل . واللون الثاني أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها . فمن الأول قول ابن المعتز :

والشمس كالمرآة في كفِّ الأشلِ

أراد أن يربك مع الاستدارة ، والاشراق الحركة التي تراها في الشمس إذا أنعمت التأمل ، ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة ، وذلك أن

للشمس حركة متصلة دائمة ولنورها بسبب ذلك تموج واضطراب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الاشل لأن حركته تدوم وتتصل ، ويكون لها سرعة وبدوام الحركة يتموج نور المرآة وتلك حال الشمس لأنك ترى شعاعها كانه يهم أن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ، ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي تراه إلى الانقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة ابن سناء الملك في أبيات هجا فيها الشمس قال فيها :

لا كـانتِ الشمسُ فكمْ أصْدَأت صفْحـة خدٍّ كـالحسـام الصَّقيـل
وكم وكم صـدّت بوادي الكـرى طَيفَ خيـالٍ زَارني مـن خَليـل
تكـذِبُ في الـوَعـدِ وبُرهـانـه أن سـراب القَفرِ مِنهـا سَليـل
وتحسـب النهـرَ حُسامـاً فترْتا ع وتحـكي فيه قلـبَ الذليل

ومما يشبه التشبيه الاول وان صور في عين المرآة قول المهلب بن ابي صفرة الوزير :

الشمسُ مِنْ مُشـرقهـا قـدْ بَـدَتْ مُـشـرَقـةً ليس لـهـا حـاجـبُ
كـأنـهـا بـوتـقـة أحـميـتْ يـجـول فـيـهـا ذهـبٌ ذائـب

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بشكل البوتقة على النار فإنه يتحرك فيها كل حركة على الحد الذي وصفت لك ، وما في طبع الذهب من النعومة وفي أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم بمنعه أن يقع فيها غليان كما في الماء فيرتفع وسطه ارتفاعا شديدا وجملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرناه من الانبساط الى الجوانب ثم انقباض ومنها قوله :

كأن في غُدْرانِها حوَاجبا

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ، ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنائها وتحدّ بها وكأنها تنتقل من التقوس إلى الاستواء ، وذلك

أشبه شيء بالحواجب اذا بدت . والثاني ما يكون التشبيه في هيئة الحركة فقط مجردة من كل وصف يقاربها وهناك أيضاً لا بد من أخلاط كثيرة في جهات متفرقة مختلفة وكلما كان التقارب أكثر كان التركيب في الهيئة المتحركة أكثر . وقد يقع التشبيه أيضاً بالسكون كقول الاخطل في وصف مصلوب :

كأنه عاشقٌ قد مدّ صفحتَه يومَ الوداعِ الى تودِيعِ مُرتحلِ
أو نائمٌ منْ نعاسٍ فيه لوثته مواصلٌ لتمطيهِ من الكسلِ

فلطفه بسبب ما فيه من التفصيل ، ولو قال كأنه ممتط من نعاس واقتصر عليه كان قريب التناول . وقد وقع في القرآن العظيم آيات كثيرة شبه فيها الحركات بالحركات والسكون بالسكون . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَرى الجِبَالَ تحسبُها جامِدةً وهي تمرّ مَرَّ السحابِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَكادُ البَرقُ يَخطفُ أبصارَهم ﴾ . وقوله تعالى ﴿ يَومَ نطوي السَماءَ كطيّ السِّجِلّ لِلكُتُبِ ﴾ شبه سرعة سير الجبال مع سرعة سكون بسرعة سير السحاب مع سكون أيضاً وشبه سرعة وميض البرق بسرعة يد المختطف وشبه حركة التفاف جرم السماء بحركة التفاف جرم الكتاب بعضه على بعض وكذلك السكون . ومنه قوله تعالى ﴿ وَاتْرُكِ البَحرَ رَهواً ﴾ ـ والرهو ـ الساكن شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند سكونها ، تقول العرب جاءت الخيل رهواً أي ساكنة فشبه البحر بها وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى عليه الصلاة والسلام دع البحر ساكنا قائماً ماؤه كما أخبر الله سبحانه وتعالى : ﴿ فأوْحَينا إلى مُوسَى أنِ اضْربْ بِعَصاكَ البَحرَ فانفلقَ فَكَانَ كُلّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظيمِ ﴾ .

وأما الثاني عشر : فهو الفرق بين الاستعارة والتشبيه . ذهب جماعة من أهل هذا الشأن إلى ان التشبيه والاستعارة شيئان وفرق الحذاق ، وقالوا إن التشبيه حكم إضافي لا بد فيه من ذكر مشبه ومشبه به ، فإنك اذا قلت ـ رأيت أسداً ـ فهو استعارة لم تذكر شيئاً حتى تشبهه بالأسد ، ولو كان تشبيهاً لتعيَّن أن تقول زيد أسد أو زيد كالأسد ولم يكن غرضك في قولك زيد أسد إلا المبالغة

في مدح زيد بالشجاعة . . فرق ثان أن التشبيه لا يكون إلا بأداة التشبيه غالباً والاستعارة لا تحتاج الى أداة فإنك إذا قلت ـ لعبثْ به يد الصبا ـ لم يكن كقولك ـ فلان له خلق كالصبا ـ . . فرق ثالث أن الاستعارة أوجز من التشبيه ، فإنك اذا قلت ـ زيد أسد ـ أوجز من قولك ـ زيد في بسالة الأسد ـ فثبت على هذا التقدير أن التشبيه أحد غرضي الاستعارة .

فصل

ومنها التمثيل . . قد أطلق علماء هذه الصناعة اسم التشبيه على كل تمثيل منتزع من أمور مجتمعة بتقييد البعض بالبعض ، وهو قريب من الاستعارة ، ومنه في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل اللهِ كمثَلِ حبّةٍ أنبتتْ سَبعَ سَنابلَ في كلِّ سُنبُلةٍ مائةُ حَبّةٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَثَل ما يُنفِقون في هذه الحياةِ الدُّنيا ﴾ الآية . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فمثلُهُ كمَثَلِ الكلبِ إنْ تحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تترُكْهُ ﴾ . . وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوْراةَ ثمَّ لم يحملوها ﴾ الآية ومثله في القرآن كثير . . ومن هذا النوع المثل السائر ومعنى السائر أنه كثر استعماله واستعماله على أن الثاني بمعنى الأول ، لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعينة انها بمنزلة من قيل له هذا القول والأمثال كلها حكايات لا تغيَّر وهي أكثر من أن تحصى ، وقد صنف العلماء فيها كتباً وشرحوا معانيها والخوض في ذكرها يطول وقصدت الاختصار لا الإكثار . . ومن الأمثال السائرة في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ لَيسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفةٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجِبَال تحسبها جامدَةً وهي تَمرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ صِبغَةَ اللهِ وَمَن أحْسَنُ من اللهِ صِبغَةً ﴾ . . ومنه في السنة قوله صلى الله عليه وسلم الآن حَمي الوطيس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أول من فاه بهذا المثل ، ثم صار مثلاً سائراً . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكم وخضراءَ الدِّمن » . وفي

غضون كلامه صلى الله عليه وسلم من هذا كثير . . وأما أشعار العرب فقد ورد فيها من ذلك كثير منها ما في البيت مثل واحد ، ومنها ما في البيت مثلان ومنها ما فيه ثلاثة ، ومنها ما فيه أربعة ، ومنها ما فيه خمسة ، ومنها ما فيه ستة فأما ما فيه مثل واحد فكقول أبي فراس :

تهونُ علينا في المعـالي نفوسُنـا ومَن طَلب الحسناء لم يُغلِه المَهْرُ

وقول أبي تمام :

فلو صـورتَ نفسـكَ لم تَـزِدْهـا على ما فيكَ من كـرَمِ الطبـاعِ

ـ ومما جاء من الشعر فيه مثلان قول بعضهم :

الله أنـجَـحَ مـا طـلبـتَ بـهِ والبـرُّ خيـرُ حقيبَـةِ الـرَّحْـلِ

في كل قسم منه مثل قائم بنفسه غير محتاج إلى صاحبه . . ومنه قول الحطيئة :

مَن يَفعَلِ الخيرَ لا يَعـدَمْ جَـوازِيـهُ لا يَـذْهبُ العُـرْفُ بين اللهِ والنـاسِ

ـ وقول أبي فراس :

ومَـن لـم يُـوَقِ اللهُ فـهـو مُـضيَّـعُ ومَـن لـم يُـعـزّ اللهُ فـهـو ذَلـيـلُ

ـ وقول المتنبي :

وكـلُّ امـرىء يـولي الجميـلَ محبَّبٌ وكـلُّ مكـانٍ يُنبـتُ العـزَّ طيّـبُ

ـ وأما ما فيه ثلاثة أمثال فكقول زهير بن أبي سُلمى :

وفي الحلم إدهـانٌ وفي العفـوِ ذِلَّـةٌ وفي الصدْقِ مَنجاةٌ من الشرّ فاصدُق

ـ وأما فيه أربعة أمثال فكقول بعض العرب :

فـالهمُّ فضـلٌ وطـولُ العيشِ مُنقـطعٌ والـرّزق آتٍ ورزقُ اللهِ مُـنـتَـظَرُ

ـ وأما ما فيه خمسة فكقول الشاعر :

خـاطرْ تُفَدْ وارْتـدْ تجـدْ واكـرُمْ تَسُـدْ   وانقَـدْ تَقُـدْ واصغَـرْ تُعَـدُّ الأكبـرَا

ـ وأما ما فيه ستة فكقول ابن اللبَّانة الأندلسي :

تِـهْ أحتمِلْ واستـطِلْ أصبرْ وعِـزَّ أهُنْ   ولَـلّ أقبِلْ وقُـلْ أسمَـعْ ومُـرْ أطـعِ

ـ والمثل ـ جمعه أمثال وسمى المثل مثلا لأنه ماثلٌ بخاطر الانسان أي شاخص يتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو والشاخص المنتصب وهو من قولهم طللٌ ماثل أي شاخص ، وهذا رسمه اللغوي ، والذي تقدم في أول الباب حده الصناعي .

القسم الثاني والعشرون

من المجاز

الإيجاز والاختصار

وهو على قسمين : وجيز بلفظه ، ووجيز بحذف .

فأما الوجيز بلفظه : فهو عند أرباب هذه الصناعة أن يكون اللفظ بالتشبيه إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة ، وسبب حسنه أنه يدل على التمكن في الفصاحة والملكة في البلاغة ، وحصول ملاذ كثيرة دفعة واحدة ، واللفظ لا يخلو إما أن يكون مساوياً لمعناه وهو المقدر أو أقلّ منه وهو المقصور . . أما المقدر فكقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى ، وَينهَى عنِ الفَحشاءِ والمُنْكَرِ والبَغيِ يَعِظُكُم لَعلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ أمر الله في أول هذه الآية بالعدل والاحسان وإيتاء القربى ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ووعظ في آخرها ، وذكر فجمع في هذه ضروباً من البيان وأنواعاً من الإحسان ، فذكر العدل والاحسان والفحشاء والمنكر بالألف واللازم التي هي للاستغراق ، أي استغراق الجنس المحتوى على جميع أنواعه وضروبه ، وجمع فيها بين الطباق اللفظي والطباق المعنوي ، أما اللفظي ففي قوله ـ إن الله يأمر وينهى ـ وأما المعنوي ففي قوله ـ العدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ـ وقوله ـ الفحشاء والمنكر والبغي ـ فإن الثلاثة الأواخر أضداد الثلاثة الأول لأن الثلاثة الأول من الفعل الحسن ، والثلاثة الأواخر من القبيح ، فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية ، ثم بين خصوصية ذوي القربى بإعادة الايصاء

عليهم والإيتاء لهم مع أن الأمر بالاحسان قد تناولهم ، وبدأ بالعدل لأنه فرض ، وتلاوة بالإحسان لأنه مندوب اليه ، وقد يجب فاحتوت الآية على حسن النسق وعطف الجمل بعضها على بعض فقدم العدل وعطف عليه الإحسان الذي هو جنس عام ، وخص منه نوعاً خاصاً وهو إيتاء ذي القربى ، ثم أتى بالأمر مقدماً وعطف عليه النهي بالواو ، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا ما لو بث في أسفار عديدة لما اسفرت عن وجوه معانيها ، ولا احتوت على أصولها ومبانيها وسبحان من لا يشبه خلقه ذاتاً ولا كلاماً ولا إحكاماً ولا أحكاماً .

وفي القرآن العظيم من هذا النمط كثير وقد وقع آيات كثيرة قلت حروفها وكثرت معانيها ،وظهرت دلائل الإعجاز فيها مثل قوله تعالى : ﴿ فإمَّا تخافنَّ من قَومٍ خِيانةً فانبذ إليهم عَلى سَواءٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيهِ كُفْرُهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ ﴾ . ومن ذلك في السنة كثيرٌ كقوله صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات والمجالس بالامانات » . وكقوله : « الضعيف أمير الرَّكْبِ » يعني أنه ينبغي متابعته في السير ، كما ينبغيمتابعة أمير الركب ، وقد صرَّح بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : « سير واسير أضعفكم » .

ومن ذلك في أشعار العرب وخطبهم كثير وكثرته وشهرته أغنت عن ذكره .

وأما المقصور : فإما أن يكون من نقصان لفظه عن معناه لاحتمال لفظه معان كثيرة ، أو لا يكون كذلك . الثاني كما في قوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفَ وأعْرِضْ عَن الجَاهلينَ ﴾ . وكذلك قوله تعالى : أُولَئِكَ لَهُم الأمْنُ

وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وَلَكُم فِي القِصَاصِ حيَاةٌ ﴾ وهذا أحسن من قولهم القتل أنفى للقتل لوجوه سبعة .

الأول : أن قولهم القتل أنفى للقتل في ظاهره متناقض ، لأنه جعل حقيقة الشيء منافية لنفسه ، وإن قيل أن المراد منه ان كل واحد من أفراد هذا النوع ينفي غيره ، فهو أيضاً ليس أنفى للقتل قصاصه ، بل أدعى له ، وإنما يصح إذا خصص فقيل القتل قصاصاً أنفى للقتل ، فيصير كلاماً طويلاً مع أن التقييدات بأسرها حاصلة في الآية .

الثاني : أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً من حيث أنه قتل ، بل من حيث أنه قصاص وهذه الجملة غير معتبرة في كلامهم .

الثالث : أن حصول الحياة هو المقصود الأصلي ونفي القتل انما يراد لحصول الحياة والتنصيص على الغرض الاصلي أولى من التنصيص على غيره .

الرابع : إن التكرار عيب وهو موجود في كلامهم دون الآية .

الخامس : أن حروف ـ في القصاص حياة ـ اثنا عشر وحروف ـ القتل أنفى للقتل ـ أربعة عشر .

السادس : أنه ليس في كلامهم كلمة يجمع فيها حرفان متلاصقان متحركان إلا في موضع واحد ، بل ليس فيها الأسباب حقيقة متوالية ، وقد عرف أن ذلك مما ينقص من سلاسة الكلام بخلاف الآية .

السابع : أن الدافع لصدور القتل عن الانسان كراهته لذلك ، وصارفه القوى عنه حتى انه ربما يعلم أنه لو قَتَل قُتلَ ثم لا يرتدع ، وإنما رادعه القوى هو إما الطمع في الثواب ، أو الذكر الجميل ، وإذا كان كذلك فليس أنفى الأسباب للقتل هو القتلُ بل الأنفى لذلك هو العارف القوي . وقوله تعالى ـ في القصاص حياة ـ لم يجعل القصاص مقتضياً الحياة على الاطلاق ، بل الحياة

منكرة ، والسبب فيه أن شرعية القصاص تكون رادعة عن الاقدام على القتل غالباً . ثم لتعلم أن في هذا التنكير فائدة أخرى لطيفة ، وهي أن الإنسان إذا علم أنه اذا قَتَلَ قُتلَ ارتدع بذلك عن القتيل فسلم صاحبه ، فصارت حياة هذا الموهوم قتله في المستقبل مستفادة بالقصاص ، وصار كأنه قد حيي في بقي عمره ، ولذلك وجب التنكير وامتنع التعريف من جهة أن التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها ، وليس الأمر كذلك .

ومثل هذا التنكير قوله تعالى : ﴿ ولَتجِدَنهم أحرَصَ الناسِ عَلى حَياةٍ ﴾ وفائدة التنكير أن الحريص لا بدّ وأن يكون حياً ، وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة ، بل على الحياة المستقبلة ، ولمّا لم يكن الحرص متعلقاً بالحياة على الإطلاق ، بل بالحياة في بعض الأحوال لا جرَم جاءت بلفظ التنكير . . واعلم أن للتنكير في قوله تعالى - في القصاص حياة - فائدة أخرى : وهي أن الرجل قد يرتدع بالقصاص حتى لا يقدم على القتل ، لكن من الجائز أن لا يكون للانسان عدوٌّ فيقصد قتله حتى يمنعه خوف القصاص ، وحينئذ لا تكون حياة ذلك الإنسان لأجل الخوف من القصاص ض، ولما دخل الخصوص في هذه القصة وجب ان يقال حياة ، ولا يقال الحياة ، وكذلك يقال شفاءٌ ، ولا يقال الشفاء في قوله تعالى : ﴿ يخرج من بُطونها شَرابٌ مختلفٌ ألوانُه ﴾ حيث لم يكن شفاءً للجميع . . ومن بديع هذا النوع أن أبا جعفر المنصور سأل معن بن زياد أيما أحبّ اليك دولتنا أو دولة بني أمية ؟ فقال : ذلك إليك ، ومعناه أن زيادة هذه المحبة ونقصانها بيدك ، لأنها على قدر إحسانك . والفرق بين هذا القسم وبين المقدم وهو أن يكون نقصان اللفظ لأجل احتماله معان كثيرة ، وذلك كاللفظ المشترك أو الذي له مجازات ، أو حقيقة ومجاز إذا أريدت معانيه كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلّونَ على النبي ﴾ والصلاة من الله تعالى رحمة ، ومن الملائكة استغفار . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يَسجدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرض

والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدَّوابُّ ﴾ والسجود من الناس وضع الجبهة على الأرض ، وهو حقيقة شرعية ، وأيضا الخشوع وهو حقيقة لغوية ، ومن غير الناس الإنقياد لصنع الله تعالى وهو مجاز . . ومن ذلك قول المتنبي :

وأظلمُ أهلِ الظلمِ من باتَ حاسداً لـمَن بـاتَ فـي نَعـمـائـهِ يَتـقـلَّبُ

وهذا يحتمل ثلاثة معان : الأول : من بات في نعماء المحسود . الثاني : من بات في نعماء الحاسد . والثالث : من بات في نعماء غير الحاسد والمحسود ، فيكون ذلك مدحاً للذي يبيت في نعمائه وبيانه أنَّ كل أحد يتمكن من تحصيل تلك النعمة بمدح هذا المنعم فيكون حينئذ ممن أنعم عليه .

وأما الوجيز بالحذف : فالكلام عليه من وجوه : الأول المعنى الذي حسن الحذف من أجله . الثاني في فائدته . الثالث في شرطه . الرابع في أقسامه . الخامس في توابعه . السادس فيما يقبح منه . . أما الأوّل فـإن المعنى الذي حسن الحـذف من أجله طلب الايجاز والاختصـار وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل .

وأما الثاني : ففائدته زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحـذوف ، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأكثر ، وكان ذلك أحسن . . وأمـا الثـالث : فشـرطـه أن يكــون في اللفظ دلالـة على المحذوف ، وإلا لم يتمكن من معرفته فيكون اللفظ مخلاً بالفهم ، وتلك الدلالة قد تحصل من إعراب اللفظ ، وذلك كما اذا كان منصوباً فيعلم أنه لا بد له من ناصب وإذا لم يكن ظاهراً لم يكن بُد من أن يكون مقدَّراً ، وذلك كقولنا ـ أهلاً وسهلاً ومرحباً ـ ومعناه وجدتَ أهلا وسلكتَ

سهلا وصادفتَ رُحباً . ومنه في القرآن كثير كقوله تعالى : ﴿ الحَمد لله ﴾ على قراءة من قرأ بالنصب . وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقوا اللهَ الذي تَسَاءَلون به والأرحامَ ﴾ والتقدير أحمد الحمدَ أو أقرأ الحمد واحفظوا الأرحام . وقوله تعالى : ﴿ صِبغَةَ اللهِ ومَن أحسنُ من اللهِ صبغةً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مِلّةَ إبراهيمَ ﴾ وفي القرآن منه كثير وفي الكلام الفصيح منه كثير وكثرته تغني عن ذكره . غير أن سيبويه ذكر منه أشياء جعلها حجة في الباب . من ذلك قول العرب ـ اللهم ضَبعاً وذئباً ـ أي اجعل فيها ضَبعاً وذئباً . وقول بعضهم حين قيل له لم أفسدتم مكانكم ؟ فقال ـ الصبيان بأبي ـ أي لُمِ الصبيان . ومنه ما قدمناه أولا وهو أهلاً وسهلاً ومرحباً .

وقد تحصل تلك الدلالة بالنظر في المعنى والعلم بأنه إنما يتم بمحذوف مقدَّر ، وهذا يكون أحسن من الأول لزيادة غموضه كما في قولهم فلان يَحلُّ ويَربُط ومعناه : أنه يحل الأمور ويربطها أي ذو تصرف .

وقد عقد بعض علماء هذه الصناعة عقداً فقال :اللفظ المحذوف إما أن يكون مفرداً أو مركباً فإن كان مفرداً فسيأتي بيانه ، وإن كان مركباً فإما أن يكون كلاماً مفيداً أو لا يكون كذلك ، فهذه ثلاثة أقسام : الأول أن يكون كلاماً مفيداً ، وهذا أحسن والكلام المفيد المحذوف قد يكون قليلا وهو على وجهين : أحدهما أن يكون المحذوف استفهاماً ويسمى ما يدلّ عليه استئنافا ، وهذا إما أن يكون بإعادة اسم أو صفة أو لا يكون ، كذلك إما الذي بإعادة اسم فكما إذا أعقب اسم من تقدم الحديث عنه كقولنا أحسنتَ إلى زيدٍ زيدٌ أحقّ باحسانك . وقولنا ـ زيدٌ أحق بإحسانك ـ جواب عن سؤال كأنه قيل وما وجه الإحسان إلى زيد فقيل زيد أحق باحسانك ، فيكون هذا السؤال محذوفا . . وأما الذي بإعادة صفة فكقولنا أحسنتَ إلى زيد صديقك القديم هو أحق بذلك . تقديره وما وجه الإحسان إلى زيد فنقول ـ لأنه صديقك القديم ـ وهذا أحسن من

إعادة الإسم لاشتماله على سبب الإحسان .. وأما الذي ليس كذلك فكقوله تعالى : ﴿ آلَمّ ذلك الكِتابُ لا رَيبَ فيهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأُولئكَ هُم المُفْلِحُـون ﴾ فقـولـه ـ أولئـك على هـدىً من ربهم وأولئـك هـمُ المفلِحون ـ استشرف وهو جواب لسؤال مقدَّر كأنه قيل وما يحصل لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات فقيل أنهم على هدى من ربهم وانهم مفلحون وكذلك قوله تعالى : ﴿ إني آمَنتُ بربّكم فاسمَعونِ قِيلَ ادخُلِ الجنةَ ﴾ فقوله ـ قيل ادخل الجنة ـ جواب عن سؤال كأنه قيل وما فُعلَ بهذا فقيل قيل له ادخل الجنة ، وإنما لم يقل قيل له لأن ذلك معلوم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ قلْ يـا قومِ اعمَلوا على مَكـانتكم ﴾ فإن قـرىء ﴿ فسوفَ تعلمون ﴾ لم يكن فيه استئناف وإن قرىء سوف تعلمون كان ذلك كأنه قيل وما يكون اذا عمِلنا نحن على مكانتنا وعمِلت أنت على مكانتك فقيل : ﴿ سَوفَ تَعْلَمُونَ من يَأتِيهِ عذابٌ يخزيهِ ﴾ .

وثانيها : أن لا يكون المحذوف استفهـاماً وذلـك كما إذا كـان مسبباً ، وقد دلّ عليه سببه كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنت بِجانِبِ الغَرْبيِّ إذ قَضينا إلى موسَى الأمرَ ، وما كنتَ من الشاهدينِ ﴾ كأنه قال وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه ، ولكنا أوحينا اليك وسبب هذا الوحي أنّا أنشأنا قرونا إلى زمانك فتطاوَلَ عليهمُ العُمُرُ أي مدة الفترة فنُسي ما كان جرى فأوحينا اليك فيكون المحذوف هو السبب والمذكور الدال عليه هو سببه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنت بجانِبِ الطُّور إذْ نَادَينا ﴾ ..

وأما الرابع في أقسامه : أما أقسامه فقد تظافرَت وأقوال أرباب علم البيان على أن المحذوفات على قسمين حسنة وقبيحة . أما القبيحة فهو أن يخلّ المحذوف بالمعنى أو يحطه عن رتبته ، وسيأتي بيانه . وأما الحسنة فهي على قسمين : جملٌ . ومفردات . فأما الجمل فهي على

قسمين : موجزة . ومطولة . . فالموجزة مثل قوله تعالى : ﴿ واللائي يَئِسنَ من المحيضِ من نسائكم إنِ ارْتبتمْ فعِدَّتُهُنَّ ثلاثةُ أشهُرٍ واللائي لم يَحِضْنَ ﴾ تقديره واللائي لم يحضن فعدتهن كذلك . وقد تقدم في الفصل الذي قبل هذا من نظائره كثير والقرآن العظيم مشحون به . . وأما الجمل المطولة فكقوله تعالى : ﴿ إذهبْ بكتابي هذا فألقِه إليهمْ ﴾ الآية . فأعقبه بقوله حكاية عنها : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأ إني أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كَريمٌ ﴾ تقديره فأخذ الكتاب فألقاه إليهم فرأته المرأة بلقيس وقرأته ـ وقالت يا أيها الملأ ـ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا يَحيى خُذِ الكِتابَ بقُوَّةٍ وآتيناهُ الحُكمَ صبيًّا ﴾ فيه محذوف مطوّل تقديره ، فلما وُلد يحيى ونشأ وترعرع قلنا له ـ يا يَحيى خذ الكتاب بقوة ـ . . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ لَنْ نَبرَحَ عَلَيه عَاكِفين حَتى يَرجِعَ إلينا مُوسَى قَالَ يا هَرونُ ما مَنَعكَ إذْ رأيتهُمْ ضلّوا ألّا تتَّبعني أفعصيت أمري ﴾ تقديره فلما جاءهم موسى ووجدهم على تلك الحالة ـ قال يا هرون ـ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُستقِراً عِندَهُ قال هذا من فضل ربي ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَها ﴾ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أفَمن شَرَح اللهُ صَدْرَهُ للاسلام فَهُوَ عَلى نُورٍ رَبِّهِ ﴾ فيه محذوف تقديره أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه وتركه على ظلمة من كفر ، ودل على المحذوف قوله تعالى : ﴿ فَوَيلٌ للقاسِيَةِ قلوبُهم عن ذِكر اللهِ ﴾ وذلك في القرآن العظيم كثير جداً .

وأما المفردات فهي ثلاث أقسام : أسماءٌ . وأفعالٌ . وحروفٌ أما الاسماءُ فهي أنواعٌ . الأول حذف الفاعل ، وقد اختلف في حذفه ، فنص على منع حذفه ابن جني وكثير من النحويين ، والحق جوازه اذا وُجد ما يدّل عليه كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إذا بَلَغَتِ التراقيَ ﴾ تقديره اذا بلغت الروح التراقي . ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى توارَتْ بالحِجابِ ﴾ تقديره حتى توارت الشمس ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فلَما جاءَ سُليمانَ ﴾

تقديره فلما جاء الرسول سليمان .

الثاني : حذف المفعول وهو على ثلاثة أقسام : الأول : حذفه من كل فعل ليس له مفعول معيَّن ، بل يكون المقصود من الكلام بيان حال الفاعل فقط . ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتوي الذين يَعلمونَ والذينَ لا يَعلمون ﴾ أي هل يستوي ذو العلم ومن لا علم له . وفي مثل هذا يتعين أن لا يُعدّى الفعل لفظاً ولا تقديراً ، ويكون حاله كحال غير المتعدي ، فإن عدّيته تخصه بما تعدّيه اليه فينقص الغرض .

ومن ذلك المحذوف من الافعال التي لها مفعول معيَّن وحذفه لأمور . الأول : أن يكون المراد بيان حال الفاعل ، وأن ذلك دأبه لا بيان حال المفعول . مثاله قوله تعالى : ﴿ ولمّا وَرَدَ ماءَ مَدْينَ وَجدَ عليهِ أمَّةً من الناس يَسقون ﴾ إلى قوله : ﴿ فسقى لهما ﴾ فحذف المفعول به من أربعة مواضع إذ لو أضافه الى الغنم مثلا لتوهم أن الانكار إنما جاء من ذَود الغنم لا من مطلق الذود ، كما تقول ما لك تمنع أخاك ، وكلٌّ مخلٌّ بالمقصود ومثله قول الشاعر :

هُمُ خلطونا بالنفوسِ وألجئوا الى حُجُراتٍ أدْفئتْ وأظلَّتِ

أراد ألجئونا وأظلتنا وأدفأتنا فحذف فكأنه قد أبهم أمره ، ولم يقصد شيئاً يقع عليه فلو قال أدفأتنا وأظلتنا ، لكان الأمر مختصاً بهم وبطل الغرض . الثاني أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهاماً بأنك لا تقصد ذكره كقول البحتري :

شجْوُ حُسّادِه وغيظ عُداهُ أنْ يَرَى مُبصرٌ ويسمعُ واعِ

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنه ويسمع واع أخباره . . الثالث : ان يحذف لكونه مبيناً كقولك ـ أصغيتُ إليك ـ أي أذني . و ـ أغضيتُ عنك ـ أي جفني . . وقال ابن الاثير حذف المفاعيل على قسمين . الأول : حذف مفاعيل غلب حذفها على اثباتها كمفعول المشيئة والإرادة في باب الشرط ، وباب لَوْ أو كمفعول الأقسام . فأما حذف مفعول

المشيئة والارادة في باب لو وباب الشرط ففي القرآن العظيم منه كثير. منها قوله تعالى: ﴿ولو شاءَ اللهُ ما اقتتلوا﴾ تقديره لو شاء الله أن لا يقتتلوا ما اقتتلوا بحذف مفعول المشيئة لدلالة ما بعده عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ﴾ تقديره ولو شاء الله هدايتكم كلكم لهداكم أجمعين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما فَعَلُوه﴾ ومثله في القرآن كثير. وقد[1]ومنه قوله تعالى: ﴿لَو أرَدْنَا أن نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ من لدُنا﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿لَو أرادَ اللهُ أنْ يَتخذَ وَلداً﴾.. وقد ظهر مفعول المشيئة في قول الشاعر:

ولـو شئتُ أنْ أبكي دَمـاً لبكيتُـهُ عليكَ ولكنْ ساحـةُ الصبرِ أوْسـعُ

ـ وأما حذف مفعول الافساد فمنه قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المفسدين﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذا قيلَ لهم لا تفْسِدُوا في الأرضِ قالوا إنما نحنُ مُصلِحون﴾. وقوله تعالى: ﴿يُفسدون في الأرضِ ولا يُصلحُون﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا تفسِدُوا في الأرضِ بعد إصلاحِها﴾ وهو كثير.. الثاني ما يحذف لدلالة السياق عليه. فمنه قوله تعالى: ﴿يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ ويَقدِرُ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يَعلمون﴾ تقديره ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله القابض الباسط. وقوله تعالى: ﴿وما يُخَادِعُونَ إلّا أنفسَهم وَمَا يشعُرُون﴾ تقديره وما يشعرون أنهم لأنفسهم يخادعون ونحوه.

ونذكر: ها هنا قاعدة ينبني عليها حكم الفاعل والمفعول، وهو أن العرب ينظرون إلى مقصود الإفادة في هذا الباب ونحوه، فإن كان المقصود نسبة الفعل الى الفاعل اقتصروا عليه فقالوا ـ فلان يُعطي ويمنع ويصل ويقطع. والله يحيي ويميت ـ لأنه ليس الغرض ذكر المعطى

---

(١) كذا في الأصل.. والظاهر أنه أراد وأما حذف مفعول الارادة في باب الشرط وباب لو ففي القرآن منه كثير ومنه الخ.

والممنوع والموصول والمقطوع والمحيا والممات ، ولكن الغرض وصف الفاعل بهذه الأفعال .

فإن كان الغرض ذكر المفعول لا غير لم يتعرَّضوا للفاعل كقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الخرَّاصون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الانسانُ ما أكفَرَه ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ليس الغرض من هذا ذكر الكابت ولا القاتل ولا اللاعن ولا المبسل وانما الغرض من نسبة القتل واللعن ، والكبت والابسال الى المذكورين . وان تعلق الغرض بالفاعل والمفعول أتوا بهما كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ اللهُ السَمَواتِ والأرض ﴾ . وقوله : ﴿ وَخَلَقَ كلَّ شيءٍ ﴾ . وقوله : ﴿ بَل لعَنهمُ الله بِكُفْرِهِمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهم لعَنَّاهُم ﴾ .. ومن ذلك حذف ضمائر الموصولات . ومنه قوله تعالى : ﴿ أهذا الذي بَعثَ اللهُ رَسُولاً ﴾ تقديره أهذا الذي بعثه الله رسولاً . وقوله تعالى : ﴿ إنكم وَمَا تعبُدون من دُون اللهِ حَصَبُ جهنَّم ﴾ تقديره إنكم وما تعبدون او تعبدونهم ، وقوله تعالى : ﴿ وما ذَرَأَ لَكُمْ في الأرضِ ﴾ تقديره وما ذرأه . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ ﴾ تقديره خلقه الله . ومنه في القرآن العظيم كثير . .

الثالث : حذف المضاف تارة والمضاف إليه أخرى وإقامة أحدهما مقام الآخر . . أما حذف المضاف فكقوله تعالى : ﴿ واسألِ القَرْية التي كنّا فيها ﴾ وكذلك ﴿ إذا فتِحتْ يأجوجُ ومأجوجُ ﴾ أي فتحت سُدَدُهُم . وربما نكرت المحذوف كما في قوله : ﴿ فقَبضتُ قَبْضةً من أثرِ الرَّسولِ ﴾ يريد من أثر حافر فرس الرسول . . ومنه قول الشاعر :

إذا قامتا تضوَّع المسكُ مِنهما   نَسِيم الصَّبا جاءَتْ بِريَّا القَرنفلِ

وأما حذف المضاف إليه فهو أقلّ استعمالا . ومنه قوله تعالى: ﴿للهِ الأمرُ من قبل وَمِنْ بَعدُ﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده . . الرابع : حذف الصفة تارة وحذف الموصوف أخرى . أما حذف الصفة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » . أي لا صلاة تامة أو كاملة . وأما حذف الموصوف فأكثره في النداء والمصدر . . أما النداء ففي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ تقديره يا أيها الرجل الساحر . وكذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ﴾ تقديره يا أيها القوم الذين آمنوا . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ ﴾ تقديره يا أيها القوم المؤمنون . . وأما المصدر فكقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ وقد يجيء في غير النداء كما في قول البحتري :

في أخضرٍ ماس على أصفر   يختالُ في صبغتهِ وَرْسُ

يريد على فرس أصفر . . الخامس : حذف الشرط تارة ، وحذف الجزاء أخرى ، وإقامة أحدهما مقام الآخر . . أما حذف الشرط فكقوله تعالى : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعة ﴾ أي فإذا كنتم في أرض لا تتمكنوا فيها من عبادتي فإياي فاعبدون في غيرها . وقوله تعالى : ﴿ فمن كَانَ مِنكُم مَريضاً أَوْ بِهِ أذىً مِن رأسِه ففِدْيةٌ ﴾ أي فإن لم يحلق فعليه فدية . . وأما حذف جزاء الشرط فكقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرأَيْتُمْ إن كَانَ مِن عِندِ اللهِ وكَفَرْتُم بِهِ ﴾ معناه ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين . ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْكُمْ إلاَّ وارِدُها ﴾ تقديره وإن منكم والله إلا واردها . ولهذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله لن يَردَ النار الاّ تحلّة القسم . ومنه قوله تعالى : ﴿لتُبلَوُنّ في أَمْوَالِكُم وَأَنْفُسِكُم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لتَرَوُنّ الجحيمَ ﴾ وهو في القرآن العظيم كثير . . أما حذف جواب القسم فكقوله تعالى : ﴿ والشّفْعِ والوَترِ والليلِ إذا يَسْرِ هَلْ في ذلك قَسمٌ لذي حِجْرِ ﴾

معناه وحق هذه لأعبدن هؤلاء . يدلّ على المحذوف قوله تعالى : ﴿ ألم ترَ كيف فعَلَ ربّكَ بعادٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قٓ والقرآن المَجيدِ بَلْ عجبوا أنْ جاءَهُم مُنْذِرٌ منهم ، فقالَ الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ ﴾ معنى - قٓ والقرآن المجيد - لتبعثنّ ويدل على ذلك قوله : ﴿ أإذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ذَلِكَ رَجْعٌ بعيدٌ ﴾ . . السابع : حذف جواب - لو - وهو في القرآن كثير . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذ فزِعُوا فَلا فَوْتَ وأخِذُوا منْ مَكانٍ قَريبٍ ﴾ تقديره لرأيت أمراً هائلا ونحو ذلك . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَو أنَّ لي بِكم قوّة أوْ آوي إلى رُكْن شديدٍ ﴾ تقديره لمنعتكم ونحو ذلك . وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولوْ أن قرآناً سُيِّرت به الجبالُ ﴾ تقديره لكان هذا القرآن . . الثامن : حذف جواب - لولا - كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيكم ورحمَتهُ وَأنَّ اللهَ تَوابٌ حكيمٌ ﴾ تقديرهُ لما أنزلَ عليكم ستر هذه الفاحشة . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيكُم ورَحمَتُهُ وأنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ تقديره لعجل لكم العذاب . ويدل على المحذوف في هاتين الآيتين ما تقدمهما . . التاسع : حذف جواب - لمّا - وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ للجَبين وَنادَيناهُ أنْ يا إبراهِيمُ قَدْ صَدَّقتَ الرُّؤيا ﴾ تقديره كان ما كان من اغتباطهما بما أنعم الله عليهما من دفع ذلك البلاء . .

العاشر : حذف جواب - أمّا - كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذينَ اسوَدَّتْ وُجوهُهم أكَفَرتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ ﴾ تقديره فيقال لهم - أكفرتم بعد ايمانكم - . . الحادي عشر : حذف جواب - إذا - كقوله تعالى : ﴿ وَإذا قِيلَ لَهمُ اتَّقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم وَمَا خَلفَكُم لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ وَمَا تَأتِيهِمْ مِن آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلاّ كانوا عَنْها مُعرِضينَ ﴾ تقديره - واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون - أعرضوا - وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلاّ كانوا أيضاً عنها معرضين - .

قال المصنف عفا الله عنه : هذه الأجوبة المحذوفة بعضها يصلح أن يكون في باب حذف الجمل ، وبعضها يصلح أن يكون في باب الأفعال ، لكن الأئمة أوردوها هكذا فأوردناها كما أوردوها ، والمتأمل اللوذعي لا يخفى عليه ذلك . . الثاني عشر : حذف المبتدأ تارة والخبر أخرى . . أما حذف المبتدأ فكقول المستهل ـ الهلال والله ـ معناه هذا الهلال ـ عبدُ الله ورب الكعبة ـ أي هذا عبد الله . وحذف المبتدأ في القرآن العظيم كثير . منه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَاحِرٌ كَذّابٌ ﴾ تقديره فقالوا ـ هذا ساحر كذاب ـ ومنه : ﴿ إلاّ قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ ﴾ . . وأما حذف الخبر فكقول بعضهم : خرجتُ فاذا السبعُ ـ تقديره قائم أو رابض . وهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَـامكُم حِلٌّ لَهُمْ . والمُحْصَنَاتُ من المُؤمِنات ﴾ تقديره والمحصنات من المؤمنات كذلك وقول الله تعالى : ﴿ فَصَبرٌ جَميلٌ ﴾ شاهد للوجهين يجوز أن يكون من باب حذف الخبر ، ومن باب حذف المبتدأ فإن جعلته من حذف المبتدأ كان التقدير فالأمر ، أو فأمري صبر جميل ، وإن جعلته من باب حذف الخبر ، يكون التقدير فصبر جميل أجمل . . وقد يحذفان جملة وهو قليل . ومنه قوله تعالى : ﴿ واللائي يئِسن مِنَ المَحِيض مِنْ نِسَائِكُم إنِ ارتَبْتُم فَعِدتُهُنّ ثَلاَثَةُ أشْهُرٍ واللائي لَم يَحِضنَ ﴾ تقديره واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر .

وأما الافعال : فحذفها على قسمين . الأول : ما دل على حذفه بيان مفعوله ، كما في قوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاها ﴾ وكقول النبي صلى الله عليه وسلم لجابر وقد تزوّج ـ « هلاّ بِكراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ » أي هلا تزوجت جارية بكراً . وكذلك قولهم ـ أهلكَ والليلَ ـ أي أدرك أهلك وبادر الليل . ومنه في القرآن كثير . الثاني : ما لا يدل عليه مفعوله ، ولكن يعرف بالنظر كقوله تعالى : ﴿ وعُرِضُوا عَلى رَبّكَ صَفاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم ﴾ معناه فقيل فقد جئتمونا . وكذلك : ﴿ ويَومَ يُعرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلى النارِ أذْهبتم طيّباتِكم ﴾ وكذلك : ﴿ فَأَجمِعوا أمرَكم وشركاءَكم ﴾ والمراد فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَإذَا لَقِيتُم الَّذِينَ كَفَروا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أي فاضربوا رقابهم ضرباً . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلِكُ آئتوني بهِ أستخلِصْه لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إنك اليومَ ﴾ تقديره فأتوه به ـ فلما كلمه ـ

وأما : حذف فعل الأمر : فله مثال واحد كقوله تعالى : ﴿ إنَّما أُمِرْتُ أن أعبدَ ربَّ هٰذه البَلْدَة ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أبتغِي حَكَماً ﴾ تقديره قل ـ أفغير الله أبتغي حكما ـ

وأما الحروف : أعني حذف الحروف التي لها معان ، وليست حروف الهجاء التي تكلم النحويون على اثباتها وحذفها وابدالها لأنهم أرادوا بذلك تصحيح الألفاظ وردّها إلى أصولها ، وليس هذا من غرضنا في هذا الكتاب ، إنما غرضنا الحروف التي يفيد حذفها واثباتها معنىً لم يكن . . وهي عند علماء البيان على قسمين . مفردة ومركبة .

فالمفردة : مثل ـ الواو ـ التي حذفها مع ما فيه من الايجاز يجعل للكلام بلاغة ، ويكون في معناه أشد ، وذلك لأن إثباتها يقتضي تغاير المعطوف والمعطوف عليه ، فإذا حُذِفت أشعر ذلك بأن الكل كالشيء الواحد . ومن ذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه ـ كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون لا يتوضئون ـ اثبات الواو أدل على عدم الوضوء من قوله ـ لا يتوضئون ـ . ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً من دُونِكم لَا يَأْلُونَكُم خبالاً وَدُّوا ما عَنِتمْ قد بَدَتِ البغضاء من أفواههم ﴾ تقديره ولَا يألونكم خبالا وقد بدت البغضاء . . وقد ثبت الواو فيما من شأنه أن لا يكون فيه واو

فيكون ذلك أيضاً أبلغ وأحسن كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهلَكْنَا مِن قَريةٍ إلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ .

وأما المركب : فكثير وهو على أقسام . الاول حذف ـ لا ـ في قوله تعالى : ﴿ تَاللهِ تَفتأ تَذكُرُ يوسُف ﴾ تقديره لا تفتأ تذكر يوسف أي لا تبرح . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذينَ يُطيقونهُ فِدْيةٌ طعام مسكينٍ ﴾ تقديره وعلى الذين لا يطيقونه على قول بعض المفسرين . ومثله في القرآن العظيم كثير . ومنه قول امرىء القيس :

فَقُلتُ يمينَ اللهِ أبــرَحُ قَــاعِــداً وَلَو قَطَعوا رَأسي لَدَيكِ وَأوْصالي

معناه لا أبرح قاعداً . الثاني : حذف ـ لو ـ وهو في قوله تعالى : ﴿ مَا آتخذَ اللهُ من وَلد وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إذاً لَذَهبَ كلُّ إِلَهٍ بما خلَقَ ، ولَعَلَا بعضُهم على بعضٍ ﴾ تقديره لو كان معه آلهة لذهب كل إِلَه بما خلق . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تتلو مِن قبلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تخُطهُ بيمينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾ معناه لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون . ومن هذا النوع قول الشاعر :

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستبحْ إبلي بَنُـو اللَّقيطةِ من ذُهْـلِ بنِ شَيبَانـا
إذاً لَقَـامَ بنَصْـري مَعشـر خُشُنٌ عنـدَ الحَفيظةِ إنْ ذو لـوْثـةٍ لانـا

تقديره اذاً لو كنت منهم لقام بنصري .

الحذف القبيح : وسبب قبحه إخلاله بالمعنى . قال ابن الاثير : ومن الحذف أيضاً المخل بالمعنى وهو يُطلق على ما يحذف من أصل اللفظ وهو اسقاط بعض حروفه ، ولا يجوز استعماله في القرآن العظيم ، ولا في التأليف ، لكنه يجوز في الشعر ، لأن العرب قد أوردته في أشعارها واستعملته في كلامها ، فحذفت بعض الالفاظ استخفافاً حذفاً لا

يخل بالباقي وتعرّض بالشبهة . فمنها قول علقمة :

كـأنَّ ابـرِيقَهم ظبيٌ على شَـرَفٍ مُفـدَّمـاً بسَبـا الكَتّـانِ مَلثـومُ

فقوله ـ بسبا الكتان ـ يريد بسبائب الكتان . وكذلك قول لبيد :

دَرَسَ المَنا بمُتَالعٍ فأبانِ

أراد المنازل . وعلى نحو من هذا جاء قول أبي دُؤاد :

يـذرينَ جَنـدَلَ جـابرٍ بجنـوبهـا فكـأنمـا تُـذكي سَنـابِكُهـا الحُبـا

أراد الحباحب ـ والحباحب ـ طائر على مثال الجُنْدُب الصغير يُرى منه نور ضعيف ليلا . وهذا وأمثاله قليل جداً وإياك أيها المؤلف أن تستعمله في كلامك وإن كان جائزاً وقد ورد في أشعار العرب مثله .

قال المصنف عفا الله عنه : هذا الذي ذكره ابن الاثير فيه نظر لأنه قد صح عن ابن عباس وجماعة من أكابر الصحابة والسلف الصالح أن هذه الحروف التي في أوائل السور كل حرف منها دال على كلمة حُذف أكثرها ، ودل هذا المنطوق به على المحذوف .

وقالوا : إن معنى « آلم » أنا الله الملك . وقالوا في « كهيعص » أن الكاف من كافٍ والهاء من هاد . واستدلوا على ذلك بأن العرب استغنت بذكر حرف من الكلمة عن ذكرها في كثير من كلامها وأشعارها ففهمت المراد من ذلك الحرف . ومنه قول الشاعر :

جـاريـةٌ قـد وعـدَتني أن تـا تـدْهـنَ رأسي أو تـفلي أو تـا

أراد أن تأتي وتدهن رأسه وتفلي أو تمسح . وقال آخر :

نـــادَوهــمُ أن تُـلْجـمــوا الأَّ تــا   قــالــوا جميعــاً كلهـم الأَّ فــا

ـ وقال آخر :

قلتُ لهـا ألا قفي قـالت قــاف   لا تحسبن أنَا نسينـا الإلحــاف

أي قف أنت . ومثل هذا في أشعار العرب وكلامهم كثير وإذا كثر استعماله كان من الكلام الفصيح معدوداً وحسن في التركيب ، وكلما بَعد غور الكلمة واستعجم معناها كان فهمه بـأول وهلة دليلاً على صحـة الأفهام وجودة الغرائز ، وسلامة الطباع وحسن موقع اللفظ به .

فصل

ومن أنواع المحذوف : أن يكون اللفظ مركباً ، ولكن ليس بكلام ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَليَّ هَيِّنٌ وَلْنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ تقديره وجعلناه لنجعله آية للناس ، فيكون المحذوف ههنا هو السبب والدال عليه هو سببه . . وقد يكون بعكس هذا كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأتَ القُرآنَ فاستعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم ﴾ تقديره واذا أردت قراءة القرآن ، فالمحذوف هنا الارادة وهي سبب القراءة ، ويجوز أن يكون التقدير ، وإذا قرأت القرآن وحضرك الشيطان ، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

القسم الثالث والعشرون

في التقديم والتأخير . والكلام عليه من وجوه ثلاثة :

الاول : في ذكر المعنى الذي أتى به من أجله . الثاني : في هل هو من المجاز أم لا . الثالث : في أقسامه .

أما الاول : فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم للكلام وتلعبهم به وتصرفهم فيه على حكم ما يختارونه وانقياده لهم لقوة ملكتهم فيه ، وفي معانيه ثقة بصفاء اذهانهم وغرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزاً بليغاً ، وله في النفوس حسن موقع وعذوبة مذاق .

وأما الثاني : فقد اختلف أرباب علم البيان فيه . . فقال قوم : هو من المجاز لأن فيه تقديم ما رتبته التأخير كالمنقول وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل والمفعول به في نقل كل واحد منهما على رتبته وحقه . . وقال قوم : ليس هو من المجاز لأن المجاز نقل مما وضع له إلى ما لم يوضع له .

وأما الثالث : فقال علماء هذا الشأن اقسامه أربعة . . وقالوا التقديم والتأخير لا يخلو إما أن يكون موجباً لزيادة في المعنى أو لا يكون كذلك ، وإما أن يكون ما قدم الأولى به التقديم ، أو الأولى به التأخير ، أو يتكافأ الأمران فيه . . أما الاول فهو ما يلزم فيه زيادة معنى فلا يخلو إما أن يكون المقصود بتقديمه زيادة المعنى خاصة كقوله تعالى : ﴿ إياكَ

نَعْبُدُ وإياكَ نَستَعِينُ ﴾ فإنّ المقصود بتقديم - إياك - تعظيم الله سبحانه وتعالى والاهتمام بذكره مع إفادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله تعالى ليصير الكلام حسناً متناسقاً ، ولو قال نعبدك ونستعينك لم يكن الكلام متناسباً . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يومئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فإن هذا مع افادته إن نظرها لا يكون إلا إلى الله تعالى يفيد في جودة انتظام الكلام . وكذلك قوله تعالى : ﴿ والْتفت الساقُ بالساق إلى رَبّك يومئذٍ المساقُ ﴾ . وأما ما يراد بتقديمه زيادة المعنى فقط . فمنه تقديم المفعول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أفغَيرَ اللهِ تَأْمُرُوني أعبدُ أيُّهـا الجَاهِلونَ ﴾ وكذلك : ﴿ بَلِ اللهَ فاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَاكِرِينَ ﴾ فإن المراد هاهنا بتقديم المفعول لتخصيصه بالعبادة ، ولو أخره ما أفاد ذلك ، فإنه لو قيـل : ضربتُ زيداً لم يشعر ذلك باختصاص زيد بالضرب ، ولا كذلك لو قيل زيداً ضربت .

ومنه تقديم الخبر على المبتدأ كما في قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِن اللهِ ﴾ ولو قال : وظنوا أن حصونهم من الله مانعتهم لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها اياهم . وكذلك : ﴿ أرَاغِبٌ أنْتَ عَن آلِهَتِي يَا ابراهيم ﴾ ولو قال : أأنت راغب عنها ما أفاد زيادة الإنكار على ابراهيم بالرغبة عنها . وكذلك : ﴿ واقْتَربَ الوَعْدُ الحَقُّ فإذا هي شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذينَ كَفَرُوا ﴾ ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة وكان يستغني عن الضمير لأن هـذا لا يفيد اختصـاص الذين كفـروا بالشخوص ، ولا اختصاص الذين كفروا بالضمير .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في البحر « هو الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ » . وكذا تقديم الظرف في الهيئات كقوله تعالى : ﴿ إنَّ إلينَا إيَابَهم ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ . . وتقديم الجار والمجرور كقوله تعالى : ﴿ لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمْدُ ﴾ فإن هذا يفيد اختصاص ذلك بالله تعالى . .

وأما اذا كان الظرف في النفي فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه كما فى قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُم عَنْهَا يُنزَفُون ﴾ أي ليس في خمر الجنة ما في خمر غيرها من الغول . وأما تأخيره فإنما يفيد النفي فقط كما في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيه ﴾ وكذلك إذا قلت لا عيب في الدار كان معناه نفي العيب عن الدار ، وإذا قلت لا في الدار عيب كان معناه انها تفضل على غيرها بعدم العيب . . وأما الثاني فهو ما لا يلزم تقديمه زيادة في المعنى ، ومع ذلك يكون تقديمه أحسن ، وهذا إنما يكون كذلك لأمر يتعلق بالمتقدم والمتأخر ، أو لأمر خارج عنهما . والذي لأمر يتعلق بهما إما أن يكون ذلك بالنسبة إلى شيء خارج عنهما ، أو لا يكون كذلك ، فالأول كما إذا كان التقدم أدل على قدرة الخالق من التأخر كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَن يَمْشي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى رِجْلَين وَمِنهمْ مَنْ يَمشي عَلى أرْبَعٍ ﴾ .

والثاني : إما أن يكون للمتقدم تأثير في وجود المتأخر أو لا يكون كذلك[١] . والثاني كما إذا كان المتقدم أكثر وجوباً كما في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخَيْرَاتِ بإذْنِ الله ﴾ والاول : إما أن يكون المتقدم في الوجود المتأخر بالذات ، أو بالعرض . أما الذي بالذات فكما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَمَاءِ مَاءً طَهوراً لِنُحْييَ بِهِ بَلْدَةً مَيتاً وَنُسْقِيهُ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاماً وَأَنَاسِيّ كَثيراً ﴾ فإنه قدم الإنعام لأن صلاح حالها سبب لصلاح حال الناس . وأما الذي بالعرض فكما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ فإنه قدم العبادة لأنها وسيلة إلى تحصيل الاستعانة . وأما الذي يكون كذلك لأمر خارج عن المتقدم والمتأخر ، فأما أن يكون ذلك لأجل كلام تقدم ، أو لا يكون

(١) بياض في الاصل .

كذلك . والذي لأجل الكلام المتقدم ، إما أن يكون لتعلق المذكور ، أوّلاً به أو لتعلقه هو بالمذكور أوّلا ، والأول كما في قوله تعالى : ﴿ وما يَعزُبُ عن ربك من مِثقَال ذَرَّةٍ في الأرْضِ وَلاَ في السَّمَاءِ ﴾ فإنه قدم ـ الارض ـ لأن هذا بعد قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تعمَلُونَ مِن عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهوداً إذ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وهذا الخطاب لأهل الأرض وعملهم يكون في الأرض . والثاني إما أن يكون ذلك لما يتعلق بمعنى الكلام الأول ، أو بلفظه . والمتعلق بمعناه كما في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شقيٌ وَسَعِيدٌ ﴾ فإنه قدّم الشقي لأن المراد بهذا وما قبله التخويف . والمتعلق بلفظه كما في قوله تعالى : ﴿ فأمَّا الَّذينَ شَقُوا ففي النَّار ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففي الجَنَّةِ ﴾ فإن تقديم حال الاشقياء هاهنا لاجل تقديمه أوَّلا الشقي . والذي يكون كذلك لا لأجل المتقدم إما أن يكون لأجل حال في الكلام نفسه أو لا يكون كذلك . والثاني كما في قوله تعالى : ﴿ يَهبُ لِمَنْ يَشَاءُ إناثاً ويَهبُ لِمنْ يَشاءُ الذُّكورَ ﴾ فإن تقديم الإناث هنا إنما كَانَ لأن المقصود بيان أن الخلق كله بمشيئته سبحانه وتعالى لا على وفق العباد . والأول كما إذا كان يتم بذلك السجع ، وذلك كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ ولو قال : ثم صلوه الجحيم لأفاد المعنى ، ولكن كان يفوت السجع ، فلذلك كان الأحسن تقديم الجحيم . وقيل ان هذه الصورة تفيد أيضاً الاختصاص كما في القسم الأوّل . . قال الامام فخر الدين وهو الذي يظهر لي وان منعه الآخرون ، فهذه أسباب عشرة ، وقد يجتمع في شيء واحد عدة منها فيكون تقديمه أولى ، وإذا تعارضت أسباب روعي أقواها ، وإن تساوت كان المتكلم بالخيار في تقديم أي الامرين معاً .

وأما الثالث فهو الذي لا يلزم تقديمه زيادة في المعنى ويكون الأحسن تأخيره فإذا قدّم كان ذلك مفاضلة معنوية ، وذلك كتقديم الصفة على الموصوف ، والعلة على المعلول ، ونحو ذلك . وهذا لا يمكن وروده في القرآن لركته وسماجته مثاله قول الفرزدق :

وما مثلهُ في الناسِ إلا مُملَّكا أبو أمهِ حيٌّ أبوهُ يُقاربه

معناه : وما مثله في الناس حيّ يقاربه إلا مُملكا أبو أمه أبوه .

وقال أيضاً :

الى مَلكٍ ما أمهُ من محاربٍ أبوهُ ولا كانت كليبٌ تُصاهرُهْ

معناه إلى ملك أبوه ما أمه من محارب أي ما أم أبيه منهم . وقال أيضاً :

وليست خُراسانُ الذي كان خالدٌ بها أسدٌ إذ كانَ سيفاً أميرُها

معناه ليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها . والغرض مدح خالد وذم أسد المتولي بعده .

وأما الرابع : فهو ما يتكافأ تقديمه وتأخيره ، وهذا كالحال فإنه يقدّم كقولك ـ جاء راكباً زيد ـ ويؤخر كقولك ـ جاء زيد راكباً ـ وهما سواءٌ . وكذلك المستثنى كقولنا ـ ما قام إلا زيداً أحد . وما قام أحد إلا زيداً ـ ، وقد وقع في الكتاب العزيز آيات فيها تقديم وتأخير جارية على نمط ما تقدّم . من ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسلِّمُوا عَلى أهلِها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعدِ الذِّكْرِ ﴾ على قَوْلِ من قال إن الذكر هاهنا القرآن . . وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقد هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أن رَأى بُرْهَانَ رَبهِ ﴾ أن في

الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره ، ولقد همت به ولَوْلَا أن رأى بُرهَانَ ربّهِ همَّ بها وهذا حَسنٌ لكن في تأويله قلق ولا يُضطر الى هذا التأويل إلا على قول من قال ان الانبياء معصومون من الكبائر والصغائر .

وأما على قول من قال : ان الصغائر يجوز وقوعها منهم . فلا يضطر الى هذا التقديم والتأخير . . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ اقتربَت السَّاعةُ وانْشَقَّ القَمرُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ والتقدير فجعله أحوى غثاء . ومنه قول الشاعر :

طَافَ الخَيالُ وَأينَ مِنْكَ لِمَامَا فَارْجعْ لزَوْرِكَ بالسَّلَامِ سلَامَا

تقديره طاف الخيال لماماً وأين مِنْكَ . . وقال الفرزدق :

نُفَلّقُ هَا مَن لم تَنلْهُ سُيوفُنَا بأَسْيَافِنَا هَامَ الملُوكِ القَماقم

تقديره نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم ، ومن لم تنله سيوفنا ـ وها ـ للتنبيه تقديره تنبهوا لهذا المعنى . وانما دَعَاهُ إلى التقديم والتأخير إيقَاعُ اللَّبْسِ عَلى السَّامِعِ وَجَعْلِهِ مِن بَابِ الألغَازِ .

القسم الرابع والعشرون

في الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظة واحدة

والجمع بينهما عند من رآه مجازاً لأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، فإنه وضع للحقيقة وحدها ، ثم استعمل فيها وفي المجاز . وله أمثلة .

أحدها في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائكةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ ﴾ ـ ولعنة الله ـ ابعاد ـ ولعنة الملائكة والناس ـ دعاؤهم بالابعاد ، وقد جمعهما في لفظة واحدة ، ومن لا يرى ذلك يقدر أولئك عليهم لعنة الله ، ولعنة الملائكة فيكون من مجاز الحذف . والثاني منه قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ وَمَلائِكتهُ يُصَلّون عَلَى النَّبي ﴾ ـ الصلاة ـ حقيقة في الدعاء مجاز في اجابة الدعاء ، لأن الاجابة مسببة عن الدعاء فصلاة الملائكة حقيقة لأنها دعاء ، وصلاة الله من مجاز التعبير بلفظ السبب الذي هو الدعاء عن المسبب الذي هو الإجابة ، وقد جمع بينهما في قوله ـ إن الله وملائكته يصلون على النبي ـ فيكون الضمير في ـ يصلون ـ لله والملائكة وجمعه معهم في الضمير مستكره فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكر على بعض خطباء العرب قوله ـ ومن يعصهما فقد غوى ـ وقال بئس خطيب القوم أنت . وقد جمع بينهما عليه الصلاة والسلام في قوله ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ـ وفي قوله عليه الصلاة والسلام ـ فإن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم ـ وإنما أنكر على

الأعرابي الجمع لاعتقاده التسوية بينهما والرسول عليه الصلاة والسلام آمنٌ من ذلك .

ومن لا يرى الجمع بين الحقيقة والمجاز يقدر ان الله يصلي على النبي وملائكته يصلون على النبي فيكون يصلون على النبي حقيقة في حق الملائكة ، ويكون يصلي المقدرة مجازاً في حق الله .

وكذلك القول في قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذي يُصَلي عَلَيكم وَملائكته ﴾ في الجمع بين الحقيقة والمجاز وافرادهما . ومثل هذا قولـه تعالى : ﴿ وَاللهُ وَرَسُولَهُ أَحَقُّ أَنْ يُرضُوهُ ﴾ لو قال أحق أن يرضوهما لكان جامعاً بين الله ورسوله في الضمير ، وبين الحقيقة والمجاز ، فإن رضى الرسول عليه الصلاة والسلام حقيقي ورضى الله تعالى مجازي . ومن لا يرى ذلك يقول : والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كقول الشاعر :

نَحنُ بمـا عِنـدَنـا وأنـتَ بمـا عِـنـدَكَ رَاضٍ والـرَّأيُ مُـخْـتَـلِفُ

وهذه الأربعة وعشرون قسماً التي ذكرناها من أقسام المجاز تحت كل قسم منها أقسام كثيرة يَعرف ذلك من تأملها ونظر فيها . وحيث انتهى الكلام في الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز فلنأخذ في ذكر ما تضمنه الكتاب العزيز من فنون البلاغة وعيون الفصاحة وضروب علم البيـان وبدائع البديع وأجناس التجنيس . . ولنبدأ من ذلك فيما يتعلق بالمعاني ، ثم نتلوه بما يتعلق بالألفاظ والاعتماد في ذلك معونة الله تعالى وتوفيقه وتيسيره وهدايته إلى الصواب والارشاد إلى ما يؤدي إلى جزيل الثواب وحسن المآب . . أما ما يختص بالمعاني فينقسم الى أقسام :

القسم الأول

التناسب . ويسمى التشابه أيضاً

وهو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر . والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه ولا تباين . . ومنه قول النابغة :

الـرِّفـق يُـمـنٌ والأنـاةُ سَـعـادةٌ فـاستـأن في رفق تنـالُ نُجـاحـا
واليـأسُ عما فات يُعقِبُ راحـةً ولـرُبَّ مـطعمـةٍ تعـودُ ذِبـاحـا

ويسمى التشابه أيضاً . . وقيل التشابه أن تكون الألفاظ غير متباينة ، ولكن متقاربة في الجزالة والمتانة والدقة والسلاسة ، وتكون المعاني مناسبة لألفاظها من غير أن يكسى اللفظ الشريف المعنى السخيف ، أو على الضد ، بل يصاغان معاً صياغة تتناسب وتتلاءم حتى لا يكون الكلام كما قيل :

وبعضُ قَريضِ القومِ أولادُ عَلةٍ يُكـلُّ لسـانَ النـاطقِ المتحفّظِ

قال المصنف عفا الله عنه : المناسبة عند أرباب هذا الشأن على قسمين : معنوية . ولفظية . فالمعنوية أن يبتدىء المتكلم بمعنى ، ثم يتمم كلامه بما يناسبه في المعنى دون اللفظ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذينَ كَفروا بغيظهم لَم يَنَالُوا خَيراً وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنينَ القِتال وَكَانَ اللهُ قَويًا عزيزاً ﴾ أخبر سبحانه في فاصلة الآية بأنه قويّ عزيز ليدل على أن تلك الريح التي أصابت المشركين ليست اتفاقاً ، وليست هي من أنواع

السحر ، بل هي من ارساله على أعدائه كعادته وسنته في أمثاله من نصره لعباده المؤمنين مرّة بالقتال كيوم بدر ، ومرّة بالريح كيوم الاحزاب ، ومرة بالرعب كبني النضير ، وأن النصر من عند الله لا من عند غيره ، ولهذا لم ينصرهم حين خالفوا نبيهم يوم أحـد وحين أعجبتهم كثرتهم يـوم حنين ، وبعد ذلك كانت العاقبة لهم . وقد صرّح سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وما النصرُ إلاّ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنْ يَنصُرْكم اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإنْ يَخذِلكُمُ فمنِ ذا الَّذي يَنصُرُكمْ مِنْ بَعدِهِ ﴾ ولو اقتصر على الآية ولم يذكر فيها ـ والله قوي عزيز ـ لخفي هذا المعنى وغمض والتبس الأمر فيه وأشكـل . . وأما المنـاسبة اللفـظية فهي أيضـاً على قسمين : تامة وغير تامة . فالتامة أن تكون الكلمات مع الإبراز مقفّاة والأخرى ليست بمقفاة فالتقفيه غير لازمة للمناسبة . .

فمن المناسبة التي ليست بمقفاة قوله تعالى : ﴿ قٓ والقُرآنِ المجيدِ بَل عَجِبُوا أنْ جَاءَهُم مُنذِرٌ مِنْهم فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ ﴾ وما سوى هذه التامة كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ نٓ وَالقَلمِ وَمَا يَسْطُرُون مَا أَنْتَ بِنعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإنَّ لَكَ لأَجْراً غَيرَ مَمْنُونٍ ﴾ . . ومن التامة في السنَّة قول النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يَرقى به الحسن والحسين عليهما السلام أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة ، فقال صلى الله عليه وسلم ـ لامَّة ـ ولم يقل ملمة . وقوله صلى الله عليه وسلم ـ « مرحباً بالوَفد غير خزايا ولا ندامى بحسن المناسبة » . ومثله قوله صلى الله عليه وسلم ـ » ارجعنَ مَأْزُورَاتٍ غَيرَ مَأْجُـورَاتٍ » والمستعمل ـ موزورات ـ لأنه من الوزر غير مهموز فلفظ به صلى الله عليه وسلم لمكان المناسبة اللفظية التامة . وأما ما جاءَ من السنة الغير مقفاة فكقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أَحبكم إليّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَومَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُم أَخْلاَقاً المُوطؤون أَكْنَافاً » فناسب صلى الله عليه وسلم بين ـ أخلاق وأكناف ـ مناسبة أبراز دون تفقية . ومما جمع بين المناسبتين

قوله صلى الله عليه وسلم في بعض أدعيته : « اللهم إني أسألك رحمة تَهْدِي بِهَا قَلْبِي . وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي . وَتَلُم بِهَا شَعْثِي . وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي . وَتَرفَعُ بِهَا شَاهِدي . وَتُزَكِي بِهَا عَمَلِي . وَتُلْهِمَنِي بِهَا رُشْدِي . وَتَردُّ بِهَا الْفِي . وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِن كُلِ سُوءٍ ، اللَّهُم إني أَسْأَلُكَ الفَوْزَ في القَضَاء . وَمُنَزّل الشُهداءِ . وعيش السُعَدَاء . والنَّصْرُ عَلَى الأَعْدَاءِ »

فناسب صلى الله عليه وسلم بين ـ قلبي وأمري ـ مناسبة غير تامة بالزنة دون التقفية ، ثم ناسب بين ـ الشهداء والسعداء ـ مناسبة تامة بالزنة والتقفية .

القسم الثاني

التكميل

وهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح ، أو غيره من فنون النظم والنثر ، ثم يرى مدحه فيه اقتصاد وقصور عن الغرض وانه يحتاج إلى تكميل يزيده بياناً وايضاحاً ، فيكمله بمعنى آخر . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَوفَ يَأتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحبّهم وَيحُبُّونَهُ أذلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرينَ ﴾ فانظر إلى هذه البلاغة فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين ، وإن كانت صفة مدح إذ وصفهم بالرياضة لإخوانهم المؤمنين والإنقياد لأمرهم ،كان المدح غير كامل فكمل مدحهم بأن وصفهم بالعزة على الكافرين ، فأتى بوصفهم بالامتناع منهم والغلبة لهم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . ومثاله من النظم قول كثير عزة :

وَلَوْ أنَّ عَزَّة خَاصَمَتْ شَمس الضُحَى　　في الحُسْنِ عِنْدَ مُوفَقٍ لَقُضِي لَهَا

القسم الثالث

التتميم

وهو أن تردف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس ، وتقربه إلى الفهم ، وتزيل عنه الوهم وتقرره في النفس . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلَّا أممٌ أَمْثَالُكُم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةِ أيامٍ في الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ومثاله في القرآن كثير . ومثله قول امرىء القيس :

كأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطباً ويَابساً لَدَى وَكْرِهَا العنَّاب والحشفُ البالي

ـ وقال آخر :

كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ حولَ خبائنا وأرحُلنا الجزْع الذي لم يُثقَّب

تمم المعنى بقوله ـ الحشْفُ البالي . والجزع الذي لم يثقب ـ

القسم الرابع

التقسيم

وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيءِ . مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مَنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطنِه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى رِجْلَين ﴾ إلى قوله :ـ ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴾ . ومثله في القرآن كثيرٌ وخصوصاً في سورة براءة . ومثله في كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى :

وأعلمُ مـا في اليَـومِ والأمْسِ قَبْلَهُ　　　وَلَكنني عَن عِلْمِ مـا في غَـدٍ عَمي

وذكر ابن الأثير في جامعه أن أرباب علم البيان لم يـريدوا بـالتقسيم القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكلمون ، فإن القسمة العقلية تقتضي أشياء مستحيلة كما قالوا : الجواهر لا يخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة ، أو لا مجتمعة ولا مفترقة ، أو مجتمعة ومفترقة معاً ، أو بعضها مجتمع وبعضها مفترق ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الأقسام جميعها ، وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده ، فإن الشيء لا يكون مجتمعاً مفترقاً في حالة واحدة .

وإنما أرادوا بالتقسيم ما يقتضيه المعنى ، مما يمكن وجوده وهو أن

يأتي المؤلف الى جميع أقسام الكلم المحتملة فيستوفيها غير تارك منها قسماً واحداً . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذينَ اصْطَفَينَا مِن عِبَادَنا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بالخَيرات بإِذْنِ اللهِ ﴾ فإنه لا يخلو العالم جميعه من هذا التقسيم ، إما عاصٍ ظالم لنفسه وإما مطيع مبادر إلى الخيرات ، وإما مقتصد بينهما ، وهذا من أصح التقسيمات وأكملها فاعرفه . . ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثةً فَأَصْحَابُ الميمنةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنةِ وأَصْحَابُ المَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ والسَّابقونَ السَّابِقُونَ ﴾ الآية . اعلم أن هذه الآية مماثلة في المعنى لِما سبق ذكره ـ وأصحاب المشئمة ـ هم الظالمون لأنفسهم ـ وأصحاب الميمنة ـ هم المقتصدون ـ والسابقون ـ هم السابقون بالخيرات . وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذي يُريكُم البَرْقَ خَوفاً وطَمَعاً ﴾ ألا ترى إلى براعة هذه القسمة ، فإن الناس عند رؤ ية البرق بين خائف وطامع ، وليس لهم ثالث .

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة المنتصبين في صدرها يعجبون بقول بعض العرب في هذا المعنى ويقولون : إن ذلك من أصح التقسيمات وهو قوله ـ النعم ثلاث : نعمة في حال كونها . ونعمة ترجى مستقبلة . ونعمة تأتي غير محتسبة . فأبقى الله عليك ما أنت فيه . وحقق ظنك فيما ترتجيه . وتفضل عليك بما لم تحتسبه ـ فقالوا : إنه ليس في أقسام النعم التي يقع الانتفاع بها قسم رابع سوى ما ذكره الأعرابي ، وهذا القول فاسد ، وهو أن في أقسام النعم التي قسمها ههنا نقصاً لا بد منه وزيادة لا حاجة إليها أما النقص فاغفاله ذكر النعمة الماضية ، وأما الزيادة فقوله بعد النعمة المستقبلة التي تأتي غير محتسبة ، وهذا خطأ فإن النعمة التي تأتي غير محتسبة هي داخلة في قسم المستقبلة ، وذلك أن النعمة المستقبلة تنقسم الى قسمين : أحدهما يرجى حصوله ويتوقع بلوغه . والآخر لا يحتسب ولا يشعر بوجوده . فقوله ـ ونعمة تأتي غير محتسبة ـ

يوهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل في جملته ولو قال ـ ونعمة مستقبلة ـ من غير أن يقول ـ ونعمة تأتي غير محتسبة ـ لكان قوله كافياً إذ النعمة التي ترتجى والنعمة التي لا تحتسب يدخلان تحت قسم المستقبل ، وكان ينبغي أن يقول ـ النعم ثلاث ـ نعمة ماضية . ونعمة حال كونها . ونعمة تأتي مستقبلة . فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها ووفر حظك من النعمة التي تستقبلها ـ ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبَّق به مفصل الخطاب فافهم ما ذكرناه وقس عليه . .

وقف اعرابي على مجلس الحسن فقال : رحم الله من أعطى من سعة . أو آسى من كفاف . أو آثر من قلة فقال الحسن ما ترك لأحد عذراً فانصرف الأعرابي بخير كثير . . ومن هذا الضرب ما ذكره أبو هلال العسكري في كتابه وذلك أنه أخذ على جميل قوله :

لو أنَّ في قلبي كقَدْر قُلامةٍ   حُباً وصلْتكِ أو أتتكِ رسائلي

فقال أبو هلال إن إتيان الرسائل داخل في جملة الوصل . وليس الأمر كما وقع له فان جميلا انما أراد بقوله ـ وصلتك ـ أي أتيتك زائراً أو قاصداً أو كنتُ راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين القسمين إما رسالة أو زيارة . . وقال ابن الاثير ومن أعجب ما شاهدته في هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الأحنف :

وِصالكم هَجرٌ وهَجْرُكم قِلًا   وعَطفكم صدٌّ وَسلْمُكم حُرْبُ

ثم روى المشار اليه عن أبي القاسم الآمدي أنه قال : إن بعض نقدة الكلام من البلغاء لما سمع هذا البيت قال : والله هذا أحسن من تقسيمات اقليدس . ومن العجب كيف ذكر الغانمي ذلك في كتابه وفاته النظر فيه مع تقدمه في هذه الصناعة . وأعجب منهما جميعاً استحسان

ناقد الكلام لهذا التقسيم ألا ترى أن هذا البيت يبني عليه شيء آخر من جنسه فإنه لو أضيف إليه بيت غيره فقيل :

وِلينُكُمْ عُـنفٌ وقـرْبكمُ نـوى   وإعطاؤكم منعٌ وصِـدْقكمُ كِذْبُ

لجاز ذلك ويحتمل أن يزاد على هذا البيت بيت آخر ثالث ورابع ، ولو كان التقسيم في البيت الأول صحيحاً لما احتمل أن يضاف إليه شيء آخر البتة ، لأن من صحة التقسيم أن لا يحتمل الزيادة . . ومن نحو هذا قول بعضهم في حق مكسورين في الحرب فمن بين جريح مضرَّج بدمائه ، وهارب لا يلتفت إلى ورائه ، فإن الجريح قد يكون هاربا والهارب قد يكون جريحاً ولو قال ـ فمن بين قتيل ومأسور وناج ـ لصح له التقسيم لأن المكسورين في الحرب الذين دارت عليهم الدائرة لا يخرجون عن هذه الاقسام الثلاثة ، فإما قتيل أو مأسور أو ناج ، وأما الجريح فإنه يدخل في جملة الناجي والمأسور ، لأن كلًّا منهما يجوز أن يكون جريحاً وأن لا يكون فاعرف ذلك وقس عليه .

القسم الخامس

المؤاخاة

وهي على قسمين : الأول المؤاخاة في المعاني . الثاني المؤاخاة في الألفاظ ويكون للكلام بها رونق ، لأنّ النفس يعرض لها عند الشعور شيء يُطلع إلى مناسبة فلا يرد إلا بعد تشوف ، ولا كذلك المباين ، فلذلك يقبح ذكر الشيء مع مباينه في المعنى المذكور فيه . ولذلك قبح قول الكميت :

أم هَـل ظَعـائنُ بـالـعَليـاءِ رَافِعـةً   وَقَـدْ تَكَـامَـلَ مِنهـا الـدَّلُّ والشَّنَبُ

فإن ـ الدل والشنب ـ لا مناسبة بينهما . وكذلك يقبح الشيء مع مباينه في البناء . ولذلك قبح قول أبي تمام :

مُثَقَّفـاتٍ سَلبنَ العُـرْبَ سُمـرَتهـا   والـرُّومَ رِقتهـا والعَـاشِقَ القَصفَـا

وكان ينبغي أن يقول ـ والعشاق قصفها ـ لكن منعه الوزن والقافية فلذلك لا يُعابُ هذا على الشاعر كما يعاب على الناثر إذ المجال للناثر متسع . . ومما استقبح قول أبي نواس :

ألا يـا ابن الـذين فَنَـوا فمـاتـوا   أمَـا واللهِ مـا مـاتـوا لـتَبـقَـى
ومـا لـكَ فـاعلَمنْ فيهـا مقـامٌ   اذا استكـمَلْتَ آجـالاً ورِزقـا

وكان ينبغي أن يقول ـ وأرزاقاً ـ واعلم أن استقباح تباين المباني دون استقباح تباين المعاني .

قال المصنف عفا الله عنه : التباين في المباني ليس بمستقبح وقد ورد في القرآن العظيم منه كثير . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾ الآية . .

القسم السادس

الاعتراض والحشو

وهو أن يدخل في خلال الكلام كلمة تزيد اللفظ تمكناً وتفيد معنىً آخر مع أن اللفظ يستقل بدونها ويلتئم بغيرها مثل قـوله عـز وجل : ﴿ لتَدْخُلُنّ المَسجِدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمِنين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهوا فتيَاتِكم عَلى البِغَاءِ إن أرَدْن تحَصُّناً ﴾ أو لم يردن ولكن أفاد قوله ـ إن أردن تحصناً ـ الاعلام بترغيب الشرع في التحصين وأنه مطلوبه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وأدْخِل يَدَكَ في جَيبكَ تخرُجْ بيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ويَجعلون للهِ البناتِ سبحانه ولهم ما يَشْتَهُونَ ﴾ .

قال المصنف عفا الله عنه : قال ابن الاثير في كتابه الموسـوم بـالجامـع الكبير : الاعتـراض الصناعي عنـد ارباب علم البيـان على قسمين : الأول : لا يأتي في الكلام إلا لفائدة : وهو جار مجرى التوكيد في كلام العرب .

والقسم الآخر أن يأتي في الكلام لغير فائدة فإما أن يكون دخوله في التأليف كخروجه منه ، وإما أن يؤثر في التأليف نقصاً وفي المعنى فساداً فالأول وهو الذي يأتي في الكلام لفائدة . فمنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجوم وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لو تَعْلَمُونَ عَظِيم إِنَّه لَقُرآنٌ كَرِيمٌ في كتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ هذا كلام فيه اعتراضان أحدهما قوله ـ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ـ لانه اعترض بين القسم الذي هو ـ فلا أقسم بمواقع

النجوم - وبين جوابه الذي هو - إنه لقرآن كريم - وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو - قسم - وبين صفته التي هي - عظيم - وهو قوله تعالى - لو تعلمون - فذانّك اعتراضان ، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب ان يكون فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم ، وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هو تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع . ألا ترى إلى قوله تعالى - لو تعلمون عظيم - كيف هذا الاعتراض بين الصفة والموصوف وذلك أوقع في النفس لتعظيم المقسم به أي انه من عظيم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّينا الإِنسان بِوَالِدَيْهِ حُسناً حملتْهُ أمُّهُ ﴾ إلى : ﴿ وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ الآية . ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذي طبق مفصل البلاغة فإنه لم يؤت به الاّ لفائدة كبيرة ، وذلك أنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم من المشاق والمتاعب في حمل الولد مما لا يتكلفه الوالد . ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك قال ثم من ؟ قال : أُمُّك قال : ثم من ؟ قال أُمُّكَ قَالَ : ثُمَّ مَن ؟ قَالَ : أبوك » . وفي رواية أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فادناك . . ومما جاء على هذا الاسلوب قوله تعالى : ﴿ وَإِذ قَتَلتم نَفْساً فَادَّارَأْتُم فِيهَا وَاللهَ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُم تَكْتُمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَعْقِلُون ﴾ فقوله تعالى : - والله مخرج ما كنتم تكتمون - اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفائدته أن يقرر في انفس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بني اسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم في اخفائه وكتمانه ، لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه ، ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان - وَإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها - ولا يخفى على العارف بهذه الصناعة الفرق بين ذلك ، وبين كونه معترضاً فيه . . ومن هذا الجنس قول النابغة :

لَعَمْـري وَمَـا عَمْـرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ لَقَـد نَطقت بُطلاً عليّ الأقـارِعِ

فقوله ـ وما عمري علي بهين ـ من محموده ونادره لما فيه من تفخيم المقسم به . . وعلى نحو من هذا جاء قول كثيّر :

لـو أنّ البـاخلين وأنت منهـم رَأوْكِ تَـعَلَّمُـوا مِـنـكَ المِـطَالاَ

فقوله ـ وأنت منهم ـ من الاعتراض الذي يؤكد به المعنى المقصود ويزداد به مزية ونبلاً ، وفائدته هنا أن التصريح بما هو المراد يثبته في النفس ويقرره في الاذهان . . وقال بعضهم لعبد الله بن طاهر وهو أحسن ما قيل في هذا الباب :

إن الـثـمـانـيـنَ وَبـلغـتَـهـا قد أحوجتَ سَمعي إلى تَرْجمان

وأمثاله كثيرة . . وأما الثاني وهو الذي يأتي في الكلام لغير فائدة فهو ضربان . الأول : أن يكون دخوله في التأليف كخروجه منه لا يؤثر حسناً ولا قبحاً . . فمن ذلك قول النابغة :

يَقُـولُ رِجـالٌ يجهلون خَليمـتي لعـلّ زيـاداً لا أبـالـكَ غـافـلُ

فقوله ـ لا أبالك ـ اعتراض لا فائدة فيه ، وليس مؤثراً في هذا البيت حسناً ولا قبحاً .

الضرب الثاني منه : وهو الذي يكون مؤثراً في الكلام نقصاً وفي المعنى فساداً . ومنه قول بعضهم :

فقـد وأبيـكَ بيّن لـي عِشـاءً بـوَشـكِ فِـراقِهم صُـرَدٌ يصيـحُ

فإن في هذا البيت من رديء الاعتراض ما اذكره وهو الفصل بين ـ قد ـ والفعل الذي هو ـ بيَّن ـ وذلك قبيح لقوة اتصال ـ قد ـ بما تدخل عليه من الافعال ألا تراها تعدّ مع الفعل كالجزء منه ، ولذلك دخلت اللام المراد بها توكيد الفعل على ـ قد ـ في قوله تعالى : ﴿ وَلَقد أوحِيَ إلَيكَ وَإلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ ﴾ . . وقول الشاعر وهو الفراة السلمي :

وقد أجمعُ رجليَّ بها حذَر الموْتِ وإني لغرورُ

إلا أنه اذا فصل بين ـ قد ـ والفعل بالقسم فإن ذلك لا بأس به نحو قولك ـ قد والله كان ذلك . وقد[1] فجاء هذا البيت لا خفاء بقبحه . . ومن بديع الاعتراض قول المتنبي :

ويحتقر الدُنْيا احْتِقَارَ مُجرِّبٍ يَرَى أنَّ ما فيها وحَاشَاكَ فانِيا

وهذا البيت حشوه يصلح أن يكون من باب الحشوْ ، ويصلح أن يكون من باب الاحتراس .

قال المصنف عفا الله عنه : ذكر أسامة في بديعه أن الحشو غير المفيد أن تأتي في الكلام بألفاظ زائدة ليس فيها فائدة مثل قول النابغة :

توَهَّمتُ آياتٍ لها فعرَفتُها لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

ـ وقال آخر :

نَأَتْ سَلْمى فَعَاوَدَني صُدَاعُ الرَّأسِ والوَصَبُ

فقوله ـ الرأس ـ حشو لا فائدة فيه لأن الصداع لا يكون إلا في

---

(١) بياض بالاصل .

الرأس . . وفي الحماسة :

أنعي فتىً لم تذرَّ الشمسُ طالعةً يوماً من الدهرِ إلا ضـرَّ أو نفَعا

فقوله ـ طالعة ـ حشو لا فائدة فيه لأن قـولهم ذرَّت الشمس أي طلعت .

قال المصنف عفا الله عنه : وهذه الكلمات التي ذكرهـا ليست بزائدة بل لها معان . فقوله ـ لستة أعوام وذا العام سابع ـ فليس بزائد ، وقد ورد مثله في القرآن وهو قوله تعالى : ﴿ ثَلاَثَةُ أيَّامٍ في الحَجِّ وسَبعةٍ إذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملة ﴾ وانما قال ذلك الذي تقدم بيانه في باب التتميم وهو رفع اللبس وتقرير المعنى في النفس . وأما قوله ـ صداع الرأس ـ فهو من الإصابة والشِّق ومثل ذلك يتهيأ في سائر الأعضاء . وأما قوله ـ تذر الشمس طالعة ـ فهما وإن كانا بمعنى واحد فالعرب من عادتها ان تكرر لفظين بمعنى واحد للتأكيد . كقول الشاعر :

وهندٌ أتى من دُونها النأيُ والبُعدُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمهّلِ الكافِرينَ أمهِلْهُمْ رُويداً ﴾ . . والذي اقتضاه قول أسامة وغيره من العلماء أن الحشو على قسمين . قبيح وحسن . فالقبيح ما أشار اليه أسامة . والحسن ما أشار اليه غيره والله أعلم .

القسم السابع

الالتفات

وهو نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى ، وأرباب هذا الشأن فيه على ثلاثة مذاهب : ذهب قوم أنه على ثلاثة أقسام : الأول : الانتقال من الغيبة إلى الحضور ، ومن الحضور إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ مَلكِ يَوْمِ الدّين ، إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ وعكسه ﴿ الَّذينَ أَنْعمتَ عَلَيهمْ غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِم ﴾ ولم يقل غير الذين غضبت عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذي أسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجِد الأقصى الذي بَارَكنا حَوْلَه لِنَريَهُ مَن آياتِنَا إنهُ هُوَ السَميعُ البصير ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأوْحى في كُلِ سَماءٍ أمرَها وَزَيَّنَّا السَماءَ الدُّنيا بمَصَابِيحَ وحِفْظاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرَّحمنُ ولداً لقد جئتمْ شيئاً إدًّا ﴾ ومثله في القرآن كثير ، ولا يخلو شيء من ذلك من حِكم جُزئية تليق بذلك الكلام الخاص كما في هذا الموضع ، وأن القول إذا اشتمل على سوء أدب على عظيم كان الأولى التعبير عنه بلفظ الغائب ، إذ الإقدام على ذلك إقدام الحاضر أفحش وأكثر جُرأة والجناب العظيم ينبغي أن يحاشي من ذلك .

يُبين ذلك قوله تعالى : ـ وقالوا اتخذ الرحمنُ وَلداً لقد جئتم شيئاً إدًّا ـ ثم لما أن أراد توبيخهم على هذا القول عبَّر عنه بالحضور ، لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الاهانة . . الثاني : الالتفات من الماضي إلى

المضارع كقوله تعالى : ﴿ قل أَمَرَ رَبي بالقِسطِ وأقيموا وُجوهَكم عند كُلِ مَسجدٍ وادْعوهُ مخلِصين ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكم بَهيمة الأنعامِ إلا ما يُتلى عليكم فاجتنبوا الرِّجْسَ مِن الأوثانِ واجتنبوا قَوْلَ الزورِ ﴾ . .الثالث : الالتفات من الماضي إلى المستقبل وبالعكس : كقوله تعالى : ﴿ فَكَأَنما خَرَّ من السَماءِ فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سَحيق ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ واللهُ الذي أرسَل الرياحَ فتثيرُ سَحاباً فسُقناهُ إلَى بَلدٍ مَيْتٍ فأحيَينا بِهِ الأرضَ بعدَ موتِها كذلك النُشُور ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَيَومَ يُنفَخ في الصُورِ فَفَزِعَ مَن في السَّمواتِ وَمَنْ في الأرضِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وترَى الأرضَ بارِزَةً وَحشرْناهم فلم نُغادِر منهم أحداً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَم ترَ أنَّ الله أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فتُصبحُ الأرض مخضرَّة إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ له ما في السموات ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل اللهِ ﴾ ولا يخلو هذا عن حكمة كما في هذه الآية فإن الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبَّر عنه بالماضي ليفيد ذلك مع كونه باقياً أنه قد مضى عليه زمان ، ولا كذلك الصد عن سبيل الله ، فإن حكمه إنما يثبت حال حصوله نعني بذلك فهو في كل وقت كافر ما لم يأت بالايمان ، ولا كذلك الصد عن سبيل الله ، ومع ذلك فإن الفعل المستقبل فيه إشعار بالكثير فيكون قوله ـ ويصدون عن سبيل الله ـ مشعراً بأنهم في كل وقت كذلك . ولا كذلك لو قال وصدوا لأن ذلك يكون مشعراً بأن صدهم قد انقطع .

وذهب قوم إلى أن الالتفات إذا انقطع الكلام يعقبه بجملة ملاقية اياه في المعنى ليكون تتميماً له على جهة المثَل والدعاء أو غيرهما كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلَ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ومن هذا النوع قول جرير :

* مجازيعُ عندَ البأسِ والحرُّ يَصبرُ *

وذهب قوم إلى أن الالتفات هو أن تذكر معنىً فتتوهم أن السامع اعترضه شك في ذلك أو في سببه ، أو علته فتذكر ما يزيل شكه كقول الاخطل :

تبينُ صلاتُ الحرْب منّا ومنهمُ إذا ما التقينا والمسالم يأذَنُ

فتبيَّن بقوله ـ والمسالم يأذن ـ كيفية ظهور المحارب منه ، والصحيح القول الأول وما ذكره بعده يجوز أن يكون من أنواع الالتفات . . ومن بديعه قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا واسْتَغْفِري لِذَنبِكَ ﴾ خاطب يوسف بأعرض عن هذا والتفت الى زليخا . ومنه أيضاً قوله عز وجل ﴿ حَتَّى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وَجَرَين بهم بِريحٍ طيّبة ﴾ . . ومن بديع ما جاء منه في النظم قول امرىء القيس :

تطاوَلَ ليلُكَ بالأثمَدِ ونامَ الخليّ ولم تَرْقُدِ
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ كليلةِ ذي العائرِ الأرْمدِ
وذلك عن خبرٍ جاءني وخبّرتهُ عن أبي الأسوَدِ

قال المصنف عفا الله عنه : ذكر ابن الاثير في جامعه أن الالتفات على ثمانية أقسام : الاول الرجوع من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى : ﴿ ألحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمين ﴾ إلى قوله : ﴿ إيَّاك نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ وانما فعل ذلك لفوائد وهي انه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة ، والملك الخاص فعلم المُعلَّم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له والاستعانة به في المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فقيل ـ إياك نعبد وإياك نستعين ـ يا من هذه صفاته .

والفائدة الأخرى أن قوله ـ إياك نعبد وإياك نستعين ـ ليس العدول فيه اتساعاً ، وإنما عُدِل إليه لأن الحمد دون العبادة فإنك تحمد نظيرك

ولا تعبده ، فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال ـ الحمد لله ـ ولم يقل لك ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال ـ إياك نعبد ـ تصريحاً بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدوده منها ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال ـ صراط الذين أنعمتَ عليهم ـ فصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم قال ـ غير المغضوب عليهم ـ ولم يقل غير الذين غضبت عليهم ، لأن الاول موضع التقرب إلى الله بذكر النعمة ، فلما صار إلى ذكر الغضب قال ـ غير المغضوب عليهم ـ فجاء باللفظ منحرفا به عن ذكر الغضب فأسند النعمة إليه لفظاً وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً . . ومن هذا الجنس قوله تعالى : ﴿ الحمدُ للهِ الذي لم يتخذ وَلَداً ﴾ وشبهه . . الثاني : الرجوع من الخطاب إلى الغيبة كقوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذي يُسيّركُم في البَرِّ والبَحْرِ حَتَّى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وَجَرَين بِهِمْ بريحٍ طَيّبةٍ وفَرِحُوا بِهَا ﴾ الآية صرف الكلام ههنا من خطاب المواجهة إلى الغيبة وانما فعل ذلك وهو أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ، ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتقبيح لفعلهم ولو قال ـ حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بكم ـ وساق الخطاب إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكم أمةً واحدةً وأنا رَبُّكم فَاتَّقون فَتَقَطَّعوا أمرَهم بَينَهُم ﴾ الأصل أن يعطف على الفعل الاوَّل الَّا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبّح عليهم ما فعلوه ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، وذلك مثلٌ لاختلافهم فيه وتباينهم ، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوه . .
ومما ينخرط في هذا السلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاس إني رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم جَميعاً الَّذي لَهُ مُلكُ السَمَواتِ وَالأَرْضِ ﴾ إلى

﴿وكلماته﴾ الآية . فإنه انما قال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ رَبِي ﴾ حيث قال أولا ـ إني رسول الله اليكم ـ لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص المستقبل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري اضطراراً للنصفة وبُعداً للتعصب لنفسه فقرر أولاً في صدر الآية بأنه رسول الله إلى الناس وأثبت ذلك في أنفسهم ، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى الغيبة لغرضين كبيرين قد ذكرتهما . الأول : إجراء تلك الصفات عليه . الثاني : الخروج من تهمة العصبية لنفسه فافهم ذلك .
الثالث : الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر فعَل ذلك تعظيماً لمن أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيما لأمره وبالضد من ذلك في حق من أجري عليه فعل الأمر . فمما جاء من ذلك قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الآية . فإنه انما قال ـ أشهِدُ اللهَ واشهَدُوا ـ ولم يقل وأشهدكم ليكون موازيا له وبمعناه لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد ، وشد معاقده وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالات بهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر ، كما تقول للرجل تهكما به واستهانة ـ اشهد عليّ أني أحبك ـ وأمثال هذا كثير فاعرفه . .

الرابع : الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ، ومن خِطاب الجمع إلى خطاب الواحد . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى وأَخِيهِ أنْ تَبَوَّءَا لِقَومِكُمَا بِمصرَ بُيوتاً واجْعَلُوا بُيوتَكم قِبلةً وأقيمُوا الصَّلاَة وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾(١) فإنه توسع في هذا الخطاب فثنى ، ثم جمع ،

(١) بهامش الاصل ما نصه . . لعله خطاب لهما ولهم كتبه أبو الوفا .

ثم وحد فخاطب موسى وهارون في ذلك عليهما السلام بالتبوء والاختيار في ذلك مما يفوّض إليّ ، ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد وإقامة الصلاة ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى صلى الله عليه وسلم بالبشارة إلتي هي الغرض تعظيما له وتفخيما لأمره ، لأنه الرسول على الحقيقة . . ومن هذا النحو قوله تعالى : حكاية عن حبيب النجار : ﴿وَمَا لِيَ لَا أعبُدُ الذي فَطَرَني وإليه تُرْجَعون﴾ هذا عدول عن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة ، وإتمام الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم ، لأنه أفرد الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم لتلطفه بهم ومداراتهم ، فإن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسه ، وقد وضع قوله ـ وما ليَ لا أعبد الذي فطرني ـ موضع قوله وما لكم لا تعبدُون الذي فطركم ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَإِليهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال : ﴿ إِنّي آمَنْتُ بِرَبِّكُم فَاسْمَعُون ﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعون فقد نبّهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه لأن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبدؤكم واليه ترجعون . .

الخامس :الاخبار عن الفعل الماضي بالمضارع ، وهو قسم من الالتفات لطيف المأخذ دقيق المغزى .

اعلم : ان الفعل المضارع إذا أتى به في حالة الاخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يسمعها ويشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي . فمما جاء منه قوله تعالى : ﴿ وَالله الذي أرْسَلَ الرِيَاحَ فتُثيرُ سَحاباً فسُقنَاهُ إلى بَلدٍ مَيْتٍ فأحيينا بِهِ الأرْضَ بَعدَ مَوتِهَا كَذَلِكَ النُشُور ﴾ فإنه انما قيل ـ تثير ـ مضارعا وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذي أشرنا إليه وهو حكاية الحال

الذي يقع فيها إثارةُ الريح للسحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطبَ أو غير ذلك . . ومنه قول تأبط شراً :

لقيتُ الغـولَ تهوي نحـو وَجهي بقفْـرٍ كـالصحيفـةِ صَحصَحانِ
فـأضـرِبُهـا بِـلا دَهشٍ فخـرَّتْ صـريـعـاً لليـديـنِ وللجِرَانِ

لانه قصد أن يصور صورةَ الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يُبصرهم ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جُرأته على ذلك الغول وثباته عند تلك الشدةُ ، ولو قال فضربتها لزالت تلك الفائدة التي ذكرناها ونبهنا عليها . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ألَم ترَ أَن اللّهَ أنزلَ مِنَ السَماءِ مَاءً فتُصبحُ الأَرضُ مخضرّةً إنّ اللهَ لطيفٌ خبير ﴾ ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي هاهنا إلى المضارع فقال ـ فتصبح الارض مخضرة ـ وذلك لافادة بقاء المطر زماناً بعد زمان كما قال ـ أنعم عليّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً ـ ولو قال : فرُحتُ وغدوت شاكراً له ، لم يقع ذلك الموقع فافهم ما أشرنا اليه . .

السادس :الاخبار بالفعل الماضي عن المضارع ، وهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته أن الفعل الماضي اذا أخبر به عن الفعل المضارع الذي لم يوجد كان أبلغ وآكد وأعظم موقعاً وأفخم شأنا ، لان الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد وحدث وصار من الأمور والمقطوع بكونها وحدوثها .

والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المضارع عن الماضي هو أن الفعل الماضي يخبر به عن المضارع إذا كان الفعل المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد والأمور المتعاظمة التي تحدث فيجعل عند ذلك مما قد كان ووُجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه . وأما الفعل المضارع إذا أخبر به عن الفعل الماضي فإن الغرض بذلك شيئان هيئة الفعل واستحضار صورته

ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها . .

فمن الاخبار بالفعل الماضي عن المضارع قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّمواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أتوهُ دَاخِرِينَ ﴾ فإنه إنما قال ـ ففزع ـ بلفظ الماضي بعد قوله ـ ينفخ ـ وهو مستقبل للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به . . ومنه قوله تعالى : ﴿ وبَرَزوا للهِ جميعاً ﴾ فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد . ومثل ذلك قوله عز وجل : ﴿ أتى أمرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فإن ـ أتى ـ هاهنا بمعنى يأتي ، وإنما حسن فيه لفظ الماضي لصدق اثبات الأمر ، ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ، ووقوعه فصار يأتي بمنزلة قد أتى ومضى . .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسيِّرُ الجبالَ وتَرى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُم فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُم أَحَداً ﴾ فإنه إنما قال ـ وحشرناهم ـ ماضياً بعد ـ نسير . وترى ـ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ، ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك . .

السابع :الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع ، وإنما فُعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي ، وقد سبق الكلام عليه . . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرةِ ذَلِكَ يَومٌ مَجْموعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَومٌ مشْهُودٌ ﴾ فإنه إنما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع ، وأنه لا بد من أن يكون ميعاد مضروبا لجمع الناس ، وأنه الموصوف بهذه الصفة ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : ﴿ يَومَ يَجْمَعُكُم لِيومِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَومُ التَغَابُن ﴾ فإنك تعثر على صحة ما قلت . .

الثامن :عكس الظاهر وهو أن العرب قد توسعوا في كلامهم وتجوّزوا إلى غاية فيذكرون كلاماً يدل ظاهره على معنى ، وهم يريدون به معنى آخر عكسه وخلافه ، والأصل في ذلك أنك تذكر كلاماً يعطي معناه أنه نفي لصفة شيء قد كان ، وهو نفي الموصوف أنه ما كان أصلاً فمن ذلك قول عليّ رضي الله عنه في وصفه مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا تنثى فلتاته أي لا تذاع ، فظاهر ذلك أن ثم فلتات غير أنها لا تذاع ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات أصلاً فتذاع ، وهذا مثل قول الشاعر :

* لا ترَى الضبَّ بها ينجَحرُ *

أي ليس بها ضب فينجحر .

القسم الثامن

الحمل على المعنى

وذلك كتأنيث المذكر ، وتذكير المؤنث ، وتصور معنى الواحد للجماعة ، والجماعة للواحد ، وحمل الثاني على لفظ الأول أصلاً ، كان ذلك اللفظ أو فرعا أو غير ذلك . وقد ورد في القرآن العظيم وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً من ذلك كثير . . فأما تأنيث المذكر فكقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتقوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكم من نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ والمراد به آدم عليه السلام وأنّث رَدًّا إلى النفس وقرىء في الشواذّ ـ من نفس واحد ـ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ ﴾ والقائل جبريل عليه السلام ، وله نظائر كثيرة في القرآن . . ومنه قول الشاعر :

أبوكَ خليفةٌ وَلَدَتْهُ أخرَى   وأنتَ خليفةٌ ذاكَ الكَمالُ

ـ وقال آخر :

* طُولُ اللَّيالي أسرَعتْ في نَقضي *

ـ وقال آخر :

أتهجُرُ بيتاً بالحجازِ تلفَّعتْ   به الخوفُ والأعداءُ من كلّ جانب

ـ وقال آخر :

يـا أيها الـراكبُ المُزْجي مَـطيَّتهُ   سَائلْ بني أسَدٍ ما هَذِه الصَّوتُ

فإنه ذهب بالصوت إلى الاستغاثة ، وذهب الآخر بالخـوف إلى المخافة . . وأما تذكير المؤنث فقد كثر عن العرب تأنيث فعل المضاف المذكر إذا كانت اضافته إلى مؤنث فكان المضاف بعض المضاف إليه ، أو به ، أو منه ، ولذلك قرىء قوله تعالى : ﴿ لا تنفَعُ نفساً إيمانها ﴾ بالتأنيث فأنث فعل الإيمان إذ كان من النفس وبها . وأمثال هذا كثير في القرآن . . ومنه قول الشاعر :

لمـا أتى خبرُ الـزبيرِ تـواضَعَتْ   سُـورُ المدينـة والجبـالُ الخشَّـعُ

ـ وقول الآخر :

* كما شرَقتْ صدْرُ القناةِ من الدَّم *

القسم التاسع

الزيادة في البناء

وهو أن يقصد المتكلم معنى يعبر عنه لفظتان : إحداهما أزيد بناء من الأخرى فيذكر الكلمة التي تزيد حروفها عن الأخرى قصداً منه إلى الزيادة في ذلك المعنى الذي عبر عنه ، ولهذا ان اعشوشب واخشوشن في المعنى أكثر وأبلغ من خشن وأعشب ، ولهذا وقعت الزيادة بالتشديد أيضاً فإن ستّار أبلغ من ساتر ، وغفّار أبلغ من غافر ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ استغفِرُوا ربَّكم إنه كان غفّاراً ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيءٍ مُقتدِراً ﴾ عدِل عن قادر إلى مقتدر ليشعر بالزيادة على زيادة قدرة الله تعالى ، والبيان عن عظم شأنه . . ومن هذا المعنى قول أبي نواس :

فعفوتَ عني عفوَ مُقْتِدِرٍ أحلَتْ له نعمٌ فألغاهَا

والعرب عادتها أن تزيد في بناء الاسم ليشعر بزيادة المعنى الدال عليه . .

قال الزمخشري رحمه الله : رايت أعرابياً بالحجاز يسوق جَمَلاً عليه شُقْذفٌ فقلت ما اسم هذا فقال شقذف ثم مرّ علينا جمل عليه كجاوة فقلت ما اسم هذا فقال شقنْذَافٌ فزاد فيه لكون الكجاوة أكبر وأعلا في

القـدر والقيمة . وقـد رجـح بعض أهـل المعـاني : « الرحمن على الرحيم» لما فيه من زيادة البناء وهو الألف . ومثل هذا في كلام العرب كثير ليس هذا موضع استقصائه .

القسم العاشر

الإطالة والإسهاب . ويسمى الإطناب . والكلام عليهما من وجوه

الاول : في ذكر الغرض الذي أتى بهما من أجله . الثاني في حقيقتهما ومجازهما . الثالث : في اختلاف عُلماء البيان فيهما . الرابع : فيما يستحسن فيهما وما يستقبح . الخامس : في أقسامهما . السادس : في الفرقِ بينهما .

أما الاول : فإن العرب جرت سنتهم على ذلك في خطبهم ومخاطباتهم ومفاخراتهم ومقاولاتهم يقصدون بذلك اظهار قدرتهم على الكلام وتوسعهم في النثر والنظام ، فيوجزون تارة ويطيلون أخرى ، هذا في الحقيقة ، وأما في المجاز فمرادهم الدلالة على قوة مشاهدة المعنى المجازى . .

وقال ابن الاثير : أتى بالإطالة والإطناب للمبالغة ، والمبالغة تنقسم إلى أقسام كثيرة : وقد سبق ذكر شيء منها كالاخبار بالفعل الماضي عن المضارع ، وبالمضارع عن الماضي ، ومن جملة أقسام المبالغة الإطناب وفائدته زيادة التصور للمعنى المقصود ، إما حقيقة أو مجازاً ، وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد .

وأما الثاني : فحقيقة الإطالة الامتداد والاسترسال وأصله في الاجرام . وأما الاطناب فحقيقته لغةً الزيادة والمبالغة ، وأما حقيقته

الصناعية فهو زيادة في اللفظ لتقوية المعنى . . فأما ما جاء من ذلك على سبيل الحقيقة فقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ﴾ فإن الفائدة في قوله - في جوفه - كالفائدة في قوله - القلوب التي في الصدور - وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور المدلول عليه لأنه اذا سمع صوّر لنفسه جوفا يشتمل على قلبين ، وكان ذلك أسرع إلى الإنكار . . وأما الذي جاء منه على سبيل المجاز فمنه ، قوله تعالى : ﴿فَإنَّها لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصدور﴾ ففائدة ذكر - الصدور - هاهنا أنه قد يعرف أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو مصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثلٌ فلما أريد اثبات ما هو بخلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر إن مكان العمى انما هو القلوب لا الأبصار . وهذا نوع من أنواع البيان عظيم اللطائف كثير المحاسن .

وأما الثالث : فقد اختلف علماء البيان فيهما فقال المحققون ، انهما متغايران . . وقال أبو هلال **العسكري** :الاطالة والاطناب سواء وهما عنده ضد الايجاز ووافقه جمهور الائمة . وقال أبو هلال أيضاً في كتابه الاطناب في الكلام انما هو بيان والبيان لا يكون إلا بالاتساع ، وأفضل الكلام أبينه ، والايجاز للخواص والاطناب يشترك فيه الخواص والعوام ، ولهذا أطنب في الكتب السلطانية لافهام الرعايا . وكما أن الايجاز له مواضع ، فكذلك الاطناب له مواضع ، والحاجة إلى الايجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في موضعه . قال النبي صلى الله عليه وسلم - « خَاطِبُوا النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » - ومن استعمل الايجاز في موضع الإطناب ، والاطناب في موضع الايجاز ، فقد أخطأ فلا شك أن الكتب الصادرة عن السلطان في الامور العظيمة في الفتوح ، وتفخيم مواقع النعم المتجددة ، أو في الترغيب في الطاعة ، والتحذير من العصيان ،

وغير ذلك ينبغي أن تكون مشبعة مستقصاة .

وأما كتاب المهلب إلى الحجاج في فتح الازارقة وهو ـ الحمد لله الذي كفى الاسلام فقد ما سواه وجعل الحمد متصلا بنعمه وقضى أن لا يقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من خلقه ، ثم إنا وعدوّنا على حالين مختلفين نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم ينصرنا الله ويخذلهم ويمحصنا ويمحقهم حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ـ فإنما حسن هذا الكتاب لكونه في موضعه .

وأما لو كُتب إلى العامة وقد تطلعت نفوسهم إلى معرفة ذلك الفتح العظيم ، وتصرفت بهم ظنونهم في أمره لجاء في أقبح صورة عندهم وأهجنها .

واعلم أن الاطناب بلاغةٌ والتطويل عيٌّ فإن الاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة تحتوي على زيادة فائدة بما تأخذ النفس منه من اللذة والتطويل بمنزلة شكوك ما يبعد جهلاً بما يفوت ، فهذا حكاية كلام أبي هلال العسكري . . وقد ذكر ابن الاثير في جامعه على قول أبي هلال مأخذاً فقال أما قول أبي هلال الاطناب في الكلام إنما هو بيان ، فإن البيان في أصْل اللغة هو الظهور والوضوح فيكون الاطناب على قوله ظهوراً في الكلام ووضوحاً لا غير ، ويلزم على ذلك أن كل كلام ظاهر واضح إطناباً سواء كان ذلك الكلام ايجازاً أو غيره من أصناف علم البيان ، وهذا مما لم يذهب اليه أحد لأن أبا هلال قد جعل الاطناب وصفاً من الاوصاف التي يشترك فيها جميع ضروب الكلام ، وذلك أن البيان وصف يعم كل كلام ظاهر واضح من ايجاز أو تطويل أو تكرير أو غير ذلك ، وليس الأمر كما وقع له بل الاطناب نوع واحد من أنواع

الكلام ، فإن أصله في وضع اللغة من أطنب في الكلام إذا بالغ فيه كما تقدم .

الرابع : فيما يستحسن فيهما وما يستقبح . أما الذي يستقبح منهما فهو أن يُطنب فيما لا ينبغي فيه الإطناب ويطوّل فيما ينبغي فيه الايجاز أو يطول فيما ليس في إطالته فائدة ولا فيه زيادة معنى كما روي أن رجلاً استُدْعى لأداء شهادة على نكاح فقال : أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كلهِ ولو كرِهَ المشرِكون وأشهد أني كنت في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا في الدار الفلانية (ووصفها) من الحارة الفلانية (ووصفها) وسمى الساكنين بها من البلد الفلاني وقت كذا من النهار ، وقد طرق الباب غلام وذكر جنسه وأوصافه وحكاية تطول جداً . . وهذا النوع من الإطالة ليس في القرآن العظيم منه شيء .

وأما الذي يستحسن منهما فهو إطالة الكلام وترديده لتقوية المعنى في النفس وتعظيمه والبيان قوة الملكة في التلعّب بالكلام ، أو لكون المخاطب لا يصل الكلام الموجز إلى فهمه فهو محتاج الى بسط الكلام واتساعه حتى يفهم .

الخامس : في أقسامهما . أما أقسام الاسهاب والإطناب فقد اختلف فيه علماء علم البيان فقالوا : لا يخلو إما أن يكون في جملة واحدة أو في جمل . فأما الذي في جملة واحدة فعلى قسمين : حقيقة ومجاز . أما الحقيقة فقد يكون معنى اللفظ الزائد هو معنى المذكور ، ويكون مغايراً له . أما الأول : فكقوله تعالى : ﴿ فَإذَا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَت الأرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحِـدَةً ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ أفرَأيتُم اللاَّتَ والعُزَّى وَمَناةَ الثَالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ ﴾ .

وأما الثاني فكقوله تعالى : ﴿ مَا جَعلَ اللهُ لرَجلٍ من قَلبَيْنِ في جَوْفِهِ ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ إذْ تَلقونهُ بألسنتكم وَتَقُولُونَ بأفواهِكم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فخَرَّ عَليهمُ السقْفُ مِن فَوْقِهمْ ﴾ . . وأما المجاز فكقوله تعالى : ﴿ فَإنَّهَا لَا تَعمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعمَى القُلُوبُ التي في الصُدُورِ ﴾ واستعمال هذا مجازاً أحسن . . وأما الذي في الجمل فأقسامه أربعة : الأول أن تذكر أشياء كل واحد منها يخص بما لولاه لكان المفهوم من الكل واحداً كقول أبي تمام :

مِن مِنَّةٍ مشهورةٍ وصَنيعةٍ ... بِكْرٍ وإحسانٍ أغَرَّ مُحَجَّلِ

ولو قال ـ من منة وصنيعة واحسان ـ كان المعنى واحداً . وكذلك قوله :

وليٌّ سَجيَّاتٍ تُضيفُ ضيوفَهُ ... ويُرْجَى مرجَيِّهِ ويُسْأَلُ سائِلُهْ

وكل هذه دلالة على زيادة كرمه . . والثاني : الاثبات والنفي : وهو أن يذكر الشيء اثباتاً ونفياً مع زيادة لولاها لكان ذلك تكراراً وتناقضاً كقوله تعالى : ﴿ ولَكِنّ أكثرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلونَ ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لا يَسْتأذِنُكَ الذينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخرِ أن يجاهِدُوا بأموالهم وَأَنْفسِهم وَاللهُ عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ مع قوله : ﴿ إنَّمَا يَسْتَأذِنُكَ الَّذينَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَآرتَابَتْ قُلُوبُهمْ فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَترَدَّدُونَ ﴾ . . الثالث : أن تذكر الشيء ، ثم تضرب له أمثالا تُشتَهى كقول البحتري يصف امرأة :

ذاتُ حُسنٍ لو استَزادَتْ من الحُسنِ إليه لَمَا أصابتْ مَزيدا

فهي كالشمسِ بَهجةً والقضيبِ اللّدْنِ قِدًّا والرِيمِ طرْفاً وجيدا

ـ وكذلك قوله :

تـرَدَّدَ فـي حُـلَّتـي سُـؤدَدٍ سَمـاحـا مُـرَجًّـا وبـأسـاً مَهيبـا
وَكَـالسَيفِ إن جئتَـهُ صَـارِخـاً وَكَـالبَحْـرِ إنْ جئتَـه مُسـتثيبـا

الرابع : الاستقصاء في ذكر أوصاف الشيء للمدح ، أو الذم ونحوهما . كقول بعضهم :

لأعْلا الوَرَى قَـدْراً وأوفرِهم حجىً وأرشـدِهـم رَأيـاً وأسمَحهم يـدا

وأما الاطالة فهي على قسمين : حسنة . وقبيحة . كما تقدم . . فأما الحسنة فهي على قسمين . الأول منها ما يكون بسطاً للكلام واتساعاً فيه كما ورد في القرآن العظيم مثل قصة يوسف عليه الصلاة والسلام بطولها ، وقصة أصحاب الكهف بذكر فروعها وأصولها ، وقصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام وكثرت فوائد محصولها ، وقصة ذي القرنين بطول مقولها ، وقصة موسى مع فرعون وكثرة فصولها .

الثاني : أن لا تكون الإطالة بسبب تكرار اللفظ وها نحن نذكر أقسامه ، ونبيّن إن شاء الله تعالى .

السادس : في الفرق بينهما . والفرق بينهما أن الإطناب على سائر أحواله بلاغة والتطويل بعضه عيٌّ وركاكة . . وقال ابن الأثير : الاطناب للخواص ، والإطالة للعوام . وهذا يحتاج الى تفصيل وقد تقدم .

القسم الحادي عشر

التكرار والكلام فيه من وجوه :

الأول : في حقيقته . الثاني : في ذكر الفائدة التي أتى به من أجلها .الثالث : في أقسامه . الرابع : في ذكر ما يتهيأ فيه التكرار الحسن منه والقبيح .

أما الأول : فحقيقة التكرار أن يأتي المتكلم بلفظ ، ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً أو يأتي بمعنى ثم يعيده ، وهذا من شرطه اتفاق المعنى الأول ،والثاني : فإن كان متحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في اثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس ، وكذلك اذا كان المعنى متحداً . وإن كان اللفظان متفقان والمعنى مختلف فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين .

وأما الثالث : فأقسامه ثلاثة : الأول ما يتكرر لفظه ومعناه متحد . الثاني ما يتكرر لفظه ومعناه مختلف . الثالث : ما يتكرر معنىً لا لفظاً .

أما ما يتكرر لفظه ومعناه متحد فمنه قوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرْ ثُمَّ قُتلَ كَيفَ قَـدَّرْ ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّـذِينَ كَفَرُوا بِـرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغلالُ في أعناقِهِم وأولئك أصحَابُ النارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كرر ـ اولئك ـ وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أرادَ أَنْ يَبطِشَ بالذي

هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بالأمسِ إنْ تـريـدُ إلا أن تكـون جَبّاراً في الأرض ، ومـا تـريـدُ أن تكـون من المصلِحِينَ ﴾ كرر ـ أن ـ في أربعة مواضع تأكيداً . وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أن أعبُدَ اللهَ مخلِصاً له الدينَ ، وَأمِرْتُ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمين ﴾ ومثله في القرآن كثير ومن هذا النوع قول الشاعر :

* ألا يا اسلمى ثُم اسلمى ثمَّتَ اسلمى *

والغرض من هذه المبالغة في الدعاء لها بالسلامة . وقـد يكرر القول طلباً لدوام تذكر الازهاب كما كرر في سورة الرحمن : ﴿ فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد يكرر اللفظ أيضاً ليتصل أول الكلام بآخره اتصالا جيّداً كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِها لغفورٌ رحيمٌ ﴾ . ومن ذلك الآية التي قبل هذه الآية . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إني رَأيتُ أَحَدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُمْ لي سَاجِدِين ﴾ . . وأما ما تكرر لفظه ومعناه مختلف فمنه قولـه تعالى : ﴿ ويُـريدُ اللهُ أنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِه وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين لِيُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ ﴾ فإن المقصود بقوله ـ يحق الحق ـ بيان ارادته وبقوله ـ ليحق الحق ـ الثانية لقطع دابر الكافرين ونصر المؤمنين عليهم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَا أعبدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُون مَا أعبُدُ ﴾ معناه لا أعبد في المستقبل ما تعبدونـه أنتم الآن ، ولا أنتم تعبدون في المستقبل ما أنا عابد له ، ولا أعبد قط آلهتكم حتى أكون الآن عابداً لما تعبدون ، ولا أنتم عبدتم قط إلَهي حتى تكونوا له الآن عابدين . .

ومن ذلـك قولـه تعـالى : ﴿ وَإذَا طَلّقْتُمُ النِسَـاءَ فبلَغْنَ أجلَهنّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْروفٍ أوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ إلى قوله في الآية الأخرى

التي بعدها : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ ﴾ فكرر - بلغن - لاختلاف البلوغين .. وأما قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهبطُوا بعضكم لبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ثم قال : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ فقد قيل إنه من باب تكرير اللفظ والمعنى ، وقيل هو من باب تكرير اللفظ لا المعنى لاختلاف الهبوطين ، فإن الهبوط الأول كان من الجنة الى سماء الدنيا ، والهبوط الثاني كان من سماء الدنيا إلى الأرض ، وفي القرآن العظيم من هذين القسمين كثير .. وأما تكرار المعنى دون اللفظ فهو إما أن يكون بين المعنيين مخالفة مّا أو لا يكون كذلك . والذي يكون بينهما مخالفة ، إما أن يكون أحدهما أعمّ أو لا يكون كذلك . فأما ما يكون أحدهما أعمّ فكقوله تعالى : ﴿ وَلتَكُنْ مِنْكُمْ أمةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيرِ وَيأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ فإن الدعوى إلى الخير أعم من الأمر بالمعروف وكذلك قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ ورُمّانٌ ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلى الصَّلواتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى ﴾ ومثاله في الشعر كثير . قال الشاعر :

إذا أَكَلُوا لحمي وفرتُ لحومَهُمْ وإن هدَموا مجدي بنيتُ لهم مجدا
وإن ضيَّعوا عهدِي حفظتُ عُهودَهم وإنْ هُمْ هوَوْا عَني هَوَيتُ لهم رشَدا

والغرض بهذا زيادة تأكيد الخاص .. وأما الذي لا يكون أحد المعنيين أعم فكقول حاطب بن أبي بلتعة - : والله يا رسول الله ما فعلتُ ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن دين ولا رضى بالكفر بعد الاسلام .. وأما الذي لا يكون بين المعنيين مخالفة فكقوله تعالى : ﴿ وإنْ تَعْفُوا وَتَصفَحوا وَتَغْفِروا فَإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ في الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُم تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ .. وكذلك قول الشاعر :

نَـزلتُ على آل المهلّب شـاتيـاً بعيداً عنِ الأوطانِ في زَمنِ المَحْلِ

فمـا زالَ بي إكرامُهمْ وافتقـادُهمْ   وإحســانهمْ حتى حَسِبتهمُ أهلي

هذا ما يكون من التكرار لفائدة . . وقال ابن الاثير في جـامعه التكرار في هذا المعنى على قسمين : مفيد . وغير مفيـد . فالمفيـد نوعان : الأول إذا كان التكرار في المعنى يدل على معنيين مختلفين كدلالته على الجنس والعدد ، وهو من باب التكرير مشكل لأنه يسبق الى الوهم أنه تكرير محض يدل على معنى واحد فقط وليس كذلك . . فمما جاء منه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إلَٰهينِ اثنينِ إنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحدٌ ﴾ .

ألا ترى أن العرب انما جمعت بين العدد والمعـدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا : عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد المخصوص . فأمـا رجل ورجـلان وفرس وفرسان فمعدودات ، فالفائدة اذاً في قوله ـ إلَٰهين اثنين . وإلَٰه واحد ـ هو أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية يدل على الجنسية ، والعـدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به واحد منهما ، وكان الذي يساق إليه الحديث هو العدد شُفع بما يؤكده ، فدل به على أن القصد إليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت ـ انما هو إلَٰه ـ ولم تؤكده بواحد لم يحسُن ، وخيّل أنك تثبت الالَٰهية لا الوحدانية ، وهذا باب من باب تكريـر المعاني وعـر المسلك دقيق المغزى ، وبـه تحلّ مسـائل مشكلات من التكرير فاعرفه . . ومن هذا النحو إذا كان التكريـر في المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام ، كقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُم أمةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيرِ وَيأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ الآية فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير لأن الأمر بالمعروف خاص والخير عام ، فكل أمر بالمعروف خير ، وليس كل خير أمراً بالمعروف ، لأن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف .

ففائدة التكرير ها هنا أنه ذكر الخاص ها هنا ذكر العام للتنبيه عليه لفضله كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلى الصَلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى ﴾ الآية . وأمثال ذلك كثيرة فاعرفها . .

والنوع الثاني من الضرب الأول من القسم الثاني إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنىً واحد ، وقد سبق مثاله في أول هذا الباب كقولك أطعني ، ولا تعصني ، لأن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية . والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب ، وتقرير لها في قلبه . والكلام في هذا الموضع من التكرير كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان المراد به غرضاً واحداً فاعرفه . . الضرب الثاني من القسم الثاني في تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد . فمن ذلك قول ابن هانىء المغربي :

سارَتْ به صُنعُ القصائدِ شُرَّداً   فكأنما كانت صَباً وقبولاً

فكأنه قد قال ـ فكأنما كانت صباً صباً ـ لأن الصبا هي القبول . وليس ذلك مثل التكرير في قوله تعالى ـ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ـ فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير في قوله تعالى ـ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ـ فيما يرجع إلى تكرير المعنى دون اللفظ لأن كل واحدة من هاتين الآيتين يشتمل على معنيين خاص وعام . وقول ابن هانىء ـ صباً وقبولاً ـ لا يعطي إلا معنى واحداً لا غير وهذا لا يخفى على العارف بصناعة التأليف . . ومن هذا النحو قول الصابىء في كتابٍ ـ وصل كتابك بعد تأخير وابطاء وانتظار له واستبطاء ـ فإن التأخير والاستبطاء بمعنى واحد ، وقد يكون لهذا وجه في التجوز وهو التقرير في نفس المخاطب لبعد الأمد وتطاول المدة في انقطاع كتابه عنه وذلك مما لا بأس به في هذا الموضع . وأمثال هذا كثير فاعرفه . .

وأما الرابع : فالذي يتهيأ التكرار أسماءً . وافعال . وحروفٌ . ومعان . وقد تقدم الكلام على الأسماء والأفعال والمعاني . . وأما الحروف فهي على قسمين : حسنة . وقبيحة . . فأما الحسنة فهي كما التزمه الحريري في رسالته السينية والشينية كرر السين في كل كلمة في السينية ، والشين في الشينية . وكما التزمه الحصري في أول معشّراته من حروف المعجم . وكما التزمه الفازازي في عشرينياته . وانما حسن هذا النوع لأن فيه دليلا على قوة الملكة في الكلام والقدرة على التلعب بحروفه في النثر والنظام وهو من باب لزوم ما لا يلزم وسيأتي بيانه . . وأما القبيحة فكتكرار حروف تكسب الكلام عجرفة وتكسوه قلقاً حتى يصعب النطق به ويذهب رونق الكلام بسببه كقول الشاعر :

وقبرُ حرْبٍ بمكانٍ قفرِ ... وليس قُرْبَ قبرِ حرْبٍ قبرُ

وأما الخامس : في الحسن منه والقبيح . . فأما الحسن منه فقد تقدم . . وأما القبيح فهو التكرار العاري عن الفائدة ، وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده أو في المعنى واللفظ معاً . أما الأول فقد أعابه بعضهم مطلقاً وبعضهم فصَّل فأعابه على التأثر وعلى الناظم إذا فعله في صدر البيت ، وأما اذا فعله في عجزه فليس ذلك بعيب إذ قد يضطر لأجل القافية والوزن كقول المتنبي :

بحرٌ تعوَّدَ أنْ يذمَّ لأهله ... من دَهرِه وطوَارقِ الحَدَثانِ

والدهر وطوارق الحدثان بمعنى واحد . . وكذلك قيل من قال :

إني وإن كان ابنُ عمّي عائباً ... لمصادقٌ من خلفهِ وورائه

ـ وأما الثاني فقد اتفق على قبحه وهو كقول مروان :

سقا اللهُ نجداً والسلامُ على نجدِ ... ويا حَبذَا نجدٌ على النأي والبُعدِ

نـظرْتُ إلى نجدٍ وبَغـدادُ دُونهـا لعلي أرَى نجداً وهيهاتَ من نجدِ

ـ وكذلك قول أبي نواس :

أقمنـا بهـا يـومـاً ويـومـاً وثـالثـاً ويوماً لـه يومُ التَرحُّل خـامسُ

ـ وكذلك قول المتنبي :

ولـم أرَ مثْـلَ جيـرَاني ومـثلي لِمثلي عـنـدَ مِثلِهـم مَقـامُ

ـ وأقبح من ذلك قوله :

وقَلْقلتُ بالهمّ الذي قلْقَلَ الحشى قـلاقِـلَ عيسٍ كلُّهُنّ قـلاقِـلُ

ـ وقال ابن الأثير قال الواحدي في شرحه لشعر أبي الطيب المتنبي انه لا يلزمه من هذا عيب ، وأنه قد جرت عادة الشعراء بمثل ذلك كقول أبي منصور الثعالبي :

وإذا البـلابـلُ أطـرَبتْ بهَـدِيلهـا فأنفِ البَلَابـلَ باحتسـاءِ بَـلابـلِ

والصحيح أنه مستثقل وأخطأ الواحدي في الاعتذار عنه وفي تمثيله بيت الثعالبي وبيان ذلك أن بيت أبي الطيب قد ورد فيه ذكر القلقلة والقلاقل أربع مرات وهن دلالات على معنى واحد لا غير وهو الحركة يقول ـ وحرَّكتُ بـالهمّ الذي حـرك الحشى نوقـا سراع الحـركة كلهن متحركات ـ وهذا من أقبح ما يكون من التكرير . وأما بيت الثعالبي الذي مثّله الواحدي ببيت أبي الطيب فليس مثالاً لأن لفظه ـ البلابل ـ قد وردت فيه ثلاث مرات وكلٌ منها دال على معنى غير الآخر ، فالأول جمع بلبل وهو طائر حسن الصوت والثـاني جمع بَلبَلة وهي وسـاوس الصدور ، والثالث جمع بُلبُلة وهي مخرج الماء من الابريق فهو يقول ـ وإذا الأطيار من البلابل هدلت وغرَّدت فانف البلابل من قلبك باحتساء الخمر من بلابل الأباريق ـ وهذا من أحسن ما يكون من التجنيس ومن ها هنا وقع

السهو للواحدي وهو أن البلابل في شعر الثعالبي يدل على معان مختلفة والقلاقل في شعر أبي الطيب يدل على معنى واحد فاعرف ذلك ، وقس عليه ومثل قول المتنبي في القبح قوله أيضاً :

وَلَم أرَ مثلَ جِيراني ومثلي   لِمثْلي عِندَ مِثلهم مَقامُ

فهذا ومثله هو التكرار الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصاً زائداً ، ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيراني في سوء الجوار وقلة المراعاة ، ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم ، لأنه قد كرّر هذا المعنى في البيت مرتين .

القسم الثاني عشر

القَسَم

وهو أن يُقسم في كلامه بشيء لم يُرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه، وإنما يُريد به بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكم تَنْطِقُون ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ وكتابٍ مَسْطُورٍ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إذا هَوَى ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها ﴾. وقوله تعالى: ﴿ لَعَمرُكَ إنَّهُم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون ﴾ أقسم بهذه الأشياء كلها لعظم خلقها ولشرفها عنده، وأقسم بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه.. ومنه قول الشاعر:

حَلَفتُ بمن سَوَّى السماءَ وشادَها ... ومَنْ مَرَجَ البَحْرَينِ يلتقيان
ومَن قامَ في المعقول من غير ريبة ... بما شئتَ من إدْراكِ كلِّ عِيانِ
لما خلقتْ كَفّاكَ إلا لأربعٍ ... عَقائلَ لم يُعقَلْ لهنّ ثَوانِ
لتقبيل أفواهٍ وإعطاءِ نائلٍ ... وتقليب هِنديٍّ وجَذْبِ عِنانِ

قال المصنف عفا الله عنه: القسم في القرآن العظيم على قسمين: مظهَرٌ. ومضَمَرٌ. فالمظهر كما تقدم. والمضمر على قسمين دلت لام القسم على حذفه كما في قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ﴾. والقسم الثاني ما

دلّ عليه المعنى في مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُم إلا وارِدُها كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتماً مَقضيًّا ﴾ تقديره والله إن منكم إلا واردها يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ لن تمسه النار إلا تحلة القسم ـ وله في القرآن نظائر .

القسم الثالث عشر

الاقتباس . ويسمى التضمين

وهو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي أتى به ، أو ترتيب فإن كان كلاماً كثيراً أو بيتاً من الشعر فهو تضمين ، وإن كان كلاماً قليلاً أو نصف بيت فهو إيداع . وعلى هذا الحد ليس في القرآن من هذا النوع شيء إلا ما أودع فيه من حكايات أقوال المخلوقين مثل قوله تعالى حكاية عن قول الملائكة : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّماءَ ﴾ . ومثل ما حكاه سبحانه من قول المنافقين : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصلِحونَ ﴾ . وقولهم : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى حكاية عن قول اليهود والنصارى : ﴿ وقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارَى عَلى شَيءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيءٍ ﴾ ومثله في القرآن كثير ، وكذلك ما أودع في القرآن من اللغات الأعجمية مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُون اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وهي لغة للحطب بالحبشية ـ و ـ كالقسطاس ـ وهو الميزان باللغة الرومية ـ والفردوس ـ وهو البستان ـ والقِنطار ـ وهو اثنا عشر ألف أوقية . ومن اللغة المنسية : الكف . والساق . والفِراش والوزير . والقاضي . والوكيل . والشراب . والحلال . والحرام . والحسد . والصواب . والبركة . والخطأ . والوسوسة . والكساد . والنطيحة . والخط . والقلم . واللهو . والكرسي . والقفا .

والركاب . والغاشية . والمشرق . والمغرب . واللطيف ـ ومن اللغة الفارسية المحكية : الابريق . والسندس . والياقوت . والزنجبيل . والمسك . والكافور ـ .

وهذه الكلمات كلها حكاها الثعالبي في فقه اللغة وهي عند المحققين مختلف فيها فمنهم من قال انها أعجمية عربت ، ومنهم من أنكر ذلك وقال : ليس في القرآن لفظ أعجمي لقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍ مُبينٍ ﴾ وهذه الألفاظ إنما هي عربية أصلية وافقت اللغة الاعجمية والرومية . وانما الذي ورد في القرآن بعض آيات وكلمات من التوراة وغيرها من كلام الله عز وجل فأشبه التضمين والايداع . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أنّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ ﴾ . ومنها قوله تعالى فيما حكاه من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذلك قوله تعالى : ﴿ مُحمدٌ رَسُولُ اللهِ ﴾ ـ الى قوله ﴿ ذَلِكَ مَثلُهمْ في التَّورَاةِ وَمَثلُهُم في الإنجيل ﴾ فضمن كتابنا صفتهم من الكتابين الأولين . .وأما التضمين في الشعر فلا يخلو إما أن يكون البيتُ المضمن مشهوراً أو غير مشهور ، فإن كان مشهوراً لم يحتج الى تنبيه عليه أنه من كلام غيره لأن شهرته تغني عن ذلك ، وإن كان غير مشهور فلا بد من تنبيه على أنه ليس من شعره مثل قول الشاعر :

مـا عـلى طيّـبِ ليـالٍ سَـلَفتْ   منْ ليالي الوَصـلِ لو عـادَت لنا

نبه عليه في البيت الذي قبله بقوله :

فـأنـا من فـرْطِ وَجـدي مُنشِـدٌ   بيتَ شِعـرٍ قـالَـهُ مَن قَبْلَنَـا

وكذلك إذا كان المضمن نصف بيت كقول ابن اللبانة الأندلسي في بيت من قصيدة له :

حَـبِيبٌ إلى قَـلبي حَـبِيبٌ لِقَـوْلِـهِ   عسى وَطَنٌ يَـدنـو بِهِـم ولـعـلّمـا

ـ ومن التضمين المشهور قول ابن عنين يصف بغلة له :

مـرّت عـلى عَلَفٍ فـنـامَتْ فـوقَـهُ جُـوعـاً وقـالت والمَـدامـعُ تَسجُمُ
وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي مـتـأخـرٌ عـنـه ولا مُـتـقـدّمُ

ـ ومثله قول آخر :

إنّ بـرْذَوْني المـدقـعَ بـاللصقَـا تِ[1]في لـوْعـةٍ يُـكـابـدُهـا
رَأى بِـغـالَ الامـيـرِ عـابـرَةً بـالتبنِ يـومـاً فـظلَّ يُنشِـدُهـا
قِـفـا قـليـلاً بـهـا عليَّ فـلا أقـلَ مـن نـظْرَةٍ أزَوَّدهـا

وقد وقع التضمين في الشعر في بيت كما ذكرناه وفي بيتين . ومنه ما قيل في الحيص بيصَ حين قَتلَ جُرَيًّا وهو سكران فأخذ بعض الشعراء كلبة وعلق في حلقها قصة وأطلقها عند باب الوزير فأخذَت القصة من حلق الكلبة وأدخِلت على الوزير فاذا فيها مكتوب هذه الأبيات :

يـا أهلَ بَغـدادَ إنّ الحيصَ بَيص أتى بخـزْيـةٍ ألبَسـتْـهُ العـارَ في البَلد
أبـدَى شجـاعَتَـهُ بـالليـلِ مجتـرِئـاً على جُـرَيٍّ ضعيفِ البَطْشِ والجلد
فـأنشـدَتْ أُمُّـهُ من بَعـدِ مـا احتَسبتْ دَمَ الأبيلقِ عنـدِ الـواحـدِ الصـمَـد
أقـولُ لـلنفسِ تـأسـاءً وتـعـزيـةً إحـدَى يـدَيَّ أصابَتني ولم تُـرِدِ
كِـلاهمـا خَلَفٌ من فقْد صـاحِبـه هـذا أخي حيـن أدْعـوهُ وذا وَلـدي

وهذان البيتان البيت الأخير والذي قبله لامرأة من العرب قتل أخوها ابناً لها فقالت ذلك تسلية لنفسها وتثبيتاً لقلبها . . وأما أنصاف الأبيات والكلمات فكثير جداً . . فمن ذلك قول ابن المعتز :

عـوَّذْ لـمّـا بِتّ ضـيـفـاً لـهُ اقـراصـهُ منّي بـيـاسـيـنِ

---

(١) هكذا في الاصل .

فبتّ والأرضُ فراشي وقد غنّتْ قِفا نَبْكِ مصاريني

- ومنه قول الضحاك :

وَقَفْتُ على بابِ الأميرِ كأنني قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حَبيبٍ ومنزِلِ

- وقد أودعت جماعة من الشعراء وجلّة من الكتّاب الفضلاء في أشعارهم ورسائلهم وأنواع فصاحتهم التي هي من جملة وسائلهم آياتٍ من كتاب الله تعالى وسموه اقتباساً من القرآن ، وهذا مما قد نهى عنه جلة العلماء وأفاضل الفقهاء الأتقياء ، وكرهوا أن يضمن كلام الله تعالى شيئاً من ذلك ، أو يستشهد به في واقعة من الوقائع كقولهم لمن جاء وقت حاجتهم اليه - ثم جئت على قدر يا موسى - وأشباه ذلك لأن ذلك كله صرف لكلام الله عن وجهه وخروج له عن المعنى الذي أريد به . .

فمن التضمين المنهي عنه قول عبد الله بن طاهر لابن السَّدِّي حين ملك مصر وقد ورد رسوله وهديته إليه - لو قبلتُ هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً ، بل أنتم بهديتكم تفرحون - وقال لرسوله - ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبلَ لهم بها ، ولنخرجنَّهم منها أذلّةً وهم صاغرون .

- وأوحش من ذلك وأعظم منه في الشعر قول الشاعر :

يَستوْجبُ العفوَ الفتى إذا اعترَفْ بما جَناهُ وانتهى عما اقترَفْ
لقولهِ قلْ للذين كفروا إنْ يَنتهوا يُغْفَر لهم ما قد سَلَف

- وقول الآخر :

قمتُ ليلَ الصدود إلّا قليلاً ثم رَتلت ذكرَهم تَرْتيلاَ
وَجَعَلتُ السُهَادَ كُحلاً لعيني وهجرتُ الرقادَ هجراً جميلا
كلّما ضمنا محلُّ عتابٍ أخذتنا العيونُ أخذاً وبيلا

ضمن هذه القصيدة آخر كل آية من سورة المزمل . . هذا وما أشبهه مما يعدونه من الفصاحة والبلاغة وهو مما ينبغي أن تعاف النفوس مساغه وهو مندرج في التحريم لما فيه من عدم الاجلال لكلام الله عز وجل والتعظيم ، وكيف يليق أن يجزع بين المُحدَث والقديم ، وقد رخص بعض أهل العلم في تضمين بعض آيات القرآن في خطبهم ومواعظهم وأكثر ما استعمل ذلك الشيخ ابن نباتة وابن الجوزي ، وقد استعمله كثير من الناس .

القسم الرابع عشر

التذييل والكلام عليه من وجوه

الأول : في حده ، والمعنى الذي أتى به من أجله . الثاني : في اشتقاقه . الثالث : في أقسامه .

أما الاول : فقال علماء علم البيان انه تذييل المتكلم كلامه بحرف أو جملة يحقق بها ما قبلها من الكلام ، وتلك الجملة على قسمين : قسم لا يزيد على المعنى الاول وإنما يؤتى به للتأكيد والتحقيق . وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله . مثال ما جاء من الكتاب العزيز متضمناً للقسمين معاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ آشترى مِن المُؤْمِنينَ أنْفسَهم وَأمْوالَهُم بِأنَّ لهُم الجَنّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ فَيقْتُلونَ ويُقتَلون وَعداً عَليهِ حَقاً في التّوْراةِ وَالانجيل والقرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِن اللهِ ﴾ ففي الآية الكريمة تذييلان . أحدهما قوله تعالى ـ وَعْداً عَلَيهِ حَقاً ـ فإن الكلام تم قبل ذلك ثم أتى سبحانه وتعالى بتلك الجملة ليحقق بها ما قبلها . والآخر قوله سبحانه ـ ومن أوفى بعهده منَ اللهِ ـ فأخرج هذا مخرج المثل السائر ليحقق ما تقدم وهو تذييل ثان للتذييل الاول ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيناهُم بِمَا كَفرُوا وَهَلْ يجازى إلاّ الكَفُور ﴾ ومثله في القرآن كثير . ومثال ما جاء منه من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم ـ « من هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فإن عملها كُتِبَتْ لَهُ

عَشراً ، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عَليه ، فإن عملها كتبت عليه سَيئة واحدة وَلا يهلك عَلى اللهِ إلاَّ هَالِكٌ » ـ فقوله ولا يهلك على الله الا هالك تذييل في غاية الحسن أخرج الكلام فيه مخرج المثل . . ومثال ما جاء من ذلك في الشعر قول النابغة :

وَلَسْتَ بمُستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... عَلى شَعثٍ أيُّ الرجالِ المهذّبُ

فقوله ـ أي الرجال المهذب ـ من أحسن تذييل وقع في شعر . . ومنه قول الحطيئة :

نزورُ فتىً يُعطي على المَدْح مَالَهُ ... ومَن يُعطِ أثمانَ المحامدِ يُحمَدِ

فإن عجز البيت كله تذييل أخرج مخرج المثل ، لأن صدر البيت كله قد استقل بالمعنى . . وأما الحروف فستأتي أمثلته في الكلام على أقسامه إن شاء الله تعالى .

وأما الثاني : فإن التذييل مصدر ذيل الشيء يذيله تذييلاً إذا جعل له ذيلاً مأخوذ من ذيل المرأة وهو ما يفضل عن قامتها ويزيد عليها فيبقى مجروراً على الأرض . قال الشاعر :

كُتبَ القتلُ علينا ... وَعَلى الغَانِياتِ جرُّ الذُيولِ

ـ وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذيل المرأة فقال : « يطهره ما بعده » فكأنه شبه هذه الجملة لزيادتها ، وكون المعنى يتم بدونها بالزائد من ذيل المرأة الذي ينجر على الارض .

وأما الثالث : فالتذييل على ثلاثة أقسام ، قد تقدم منها قسمان ، والثالث هو أن تزيد إحدى الكلمتين على الأخرى بحرف فقط ، إما من

آخرها وإما من أولها . فمثال الزائد في آخر الكلمة قولهم : فلان حام حاملٌ لاعباء الأمور كاف كافلٌ بمصالح الجمهور . وكقول أبي تمام :

يمــدُّونَ مِن أيــدٍ عــواصٍ عَــواصم تصــولُ بـأسيــافٍ قــواضٍ قــواضبِ

ـ ومثال الزائد في أولها قوله تعالى : ﴿ والتَفَّتِ السّاقُ بالسَّاقِ إلى رَبّكَ يَومئذٍ المَسَاق ﴾ ومنه قول الشاعر :

وكم سَبقتْ مِـنــهُ إليَّ عــوارِفُ ثنائي عَلى تلكَ العوارف وارف[1]
وَكم غُــرَرٍ من بِـرهِ وَلَــطَائـفٍ لِشكري عَلى تِلْكَ اللطائِف طَائفُ

(١) في هامش الاصل . . أي ممتد يقال ورف الظل إذا امتد .

القسم الخامس عشر

المغالطة . والكلام عليه من وجوه

الاول : في حقيقتها . الثاني : في اشتقاقها . الثالث : في أقسامها .

أما الاول : فقال علماء علم البيان أن المغالطة ذكر الشيء ، وما يتوهم مقابلاً له ، وليس كذلك .

وأما الثاني : فاشتقاقه من الغلط ، وهو من باب المفاعلة من واحد مثل : طارقت النعلَ ، وعاقبت اللص لأن فاعله يذكر شيئاً يوقع به غيره في الغلط ، ويوهم ما ليس هو المراد ، وهو المشار اليه في الحديث المروي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلوطات وهي شرار المسائل .

وأما أقسامها ، فأربعة ، الأول أن يذكر الشيء وما يتوهم مقابلاً له ، ويسمى مغالطة النقيض وهو مثل قول الشاعر :

وما أشياءُ نَشريها بمالٍ وإن نفَقَتْ فأكسدُ ما تكونُ

أوهم بنفقتْ النفاق السوقي ، وهو رواج السلعة ومراده الموت يقال : نفقت الدابة ، إذا ماتت . وقد ورد منه عن العرب كثير . من ذلك ما روي أن حيَّين من العرب اقتتلا فقُتل من كل حي قتلى وأسر

أسرى ، فقال أحد الحيين لأسير عندهم أرسل إلى قومك رسولا يقول لهم ليكرموا أسيرنا ، فإننا لك مكرمون ، فقال : ائتوني برسول منكم أرسله اليهم فجاءوا برجل فسأله عن أشياء فقال ما أراك إلّا عاقلاً أبلغ قومي السلام ، وقل لهم ليكرموا فلاناً فإن قومه لي مكرمون ، وقال له : وقل لهم يخلوا عن ناقتي الحمراء ويركبوا جملي الأصهب بآية ما أكلت معكم حيساً ، وسلوا الحارث عن خبري فلما بلغهم الرسالة حلوا وثاق ذلك الرجل ، وقالوا : والله ما له ناقة حمراء ولا جمل أصهب ، فلما انصرف الرسول استدعوا الحارث وقصوا عليه ما قال فقال : أشار بقوله حلوا عن ناقتي الحمراء واركبوا جملي الاصهب ارتحلوا عن هذه الارض الدهناء واصعدوا الجبل ، وأشار بقوله بآية ما أكلت معكم حيساً إلى أن أخلاطاً من الناس اتفقوا على أن يغيروا على حيكم ليلاً ، فإن الحيس يجمع السمن والتمر والأقط فارتحلوا عن تلك الأرض وصعدوا الجبل فأغار عليهم أعداؤهم فلم يجدوهم في المكان الذي كانو فيه فسلموا من اغتيال عدوهم لهم . وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

حُلوا عن الناقة الحمراءِ أرحلَكُمْ   والبازِلَ الأصهَبَ المعقول فاصطنعوا
إنّ الذئاب قد اخضرَّتْ بَراثِنها   والنَّاس كُلهم بَكْرٌ اذا شبعوا

ومثل هذا عن العرب كثير . . الثاني أن يذكر مع الشيء مثله ، ويسمى مغالطة المثل كقول المتنبي :

يشلُّهُمْ بكلّ أقَبَّ نهدٍ   لفارسهِ على الخيلِ الخيارُ
وكلّ أصمَّ يعسِلُ جانِباهُ   على الكعبينِ منهُ دَمٌ مُمَارُ
يُغادِرُ كلَّ مُلتفِتٍ اليهِ   ولَبَّتُهُ لثعلبهِ وِجارُ

ـ والثعلب ـ الحيوان وطرف السنان ـ والوجار ـ بيت ذلك الحيوان . . وكقول الشاعر :

بـرَغم شبيبٍ فَارَقَ السيفُ كفَّـه   وكـانا عَلى العِـلَّاتِ يَضطَجعـانِ
كـأنّ رِقابَ النـاسِ قَالتْ لِسَيْفِه   رَفـيقُــكَ قـيسـيٌّ وأنتَ يَـمـاني

ـ فالسيف ـ يقال له يمان إذا كان صارماً ـ وشبيبُ ـ من قيس وكان بين قيس ويمن محاربة . . ومنه أيضاً :

وخلَطتمُ بعض القــرآنِ ببعـضــه   فجعلتمُ الشعَــرَاءَ فـي الأنعــامِ

ـ فالشعراء ـ جمع شاعر واسم سورة ـ والأنعام ـ الابل والبقر والغنم واسم سورة أيضاً ، وسبب حسن هذا الفن ما يحصل للنفس من الالتذاذ بفهم ما فيه غموض والأول أحسن لزيادة غموضه . . الثالث من المغالطات الألغاز . واللغز الطريق المنحرف وسمي بـه هذا لانحـرافه عن نمط الكلام ، ويسمى أيضاً أحجيّة لأن الحجى هو العقل وهذا النمط يقوي العقل عند التمرن والارتياض بالاكثار من حله ، وإعمال الفكر فيـه ، ويسمى أيضاً المعَمَّى لما فيه من الخفاء . ومن النوع في أشعار العرب والمخضرمين والاسلاميين وهو في أشعار المتأخرين منهم أكثر . . ومنه في القرآن العزيز ما جاء في أوائل السور من الحروف المفردة والمركبة التي دقَّ معناها وبعد غور مغزاها وحارت العقول في معانيها . ومنها قوله تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام حين سئل لما كسَّر الأصنام وقيل له : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم قال بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهُم هَذَا ﴾ قابلهم بهذه المغالطة ليقيم عليهم الحجة ويوضح لهم المحجة . . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن النمرود لما جادل ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال ابراهيم : ﴿ رَبِي الَّذي يُحيي ويميتُ قَالَ أَنَا أُحْيي وأُمِيتُ ﴾ حُكي أنه أتى باثنين فقتل أحدهما وأرسل الآخر ، وكان ذلك من النمرود مغالطة لابراهم عليه الصلاة والسلام لأن ابراهيم عليه السلام أراد إنّ الله

يحيي الميت ويميت الحي بغير آلة لا يحيي ويميت كذلك الاّ هو . . ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سئل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجا من مكة أعزها الله تعالى فقال : إنه رجل يهديني الطريق . . ومنه قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما سأله الجبار عن زوجته سارة قال هي أختي أراد أخوةَ الدين ، ومثله كثير .

القسم السادس عشر

الاشارة . وتسمى الوحي أيضاً . والكلام عليها من وجوه

الاول : في حدها . الثاني : في أقسامها . الثالث : في الفرق بينها وبين الكناية .

أما الاول : فقد قال علماء البيان الاشارة أن تطلق لفظاً جلياً تريد به معنى خفياً ، وذلك من ملح الكلام ، وجواهر النثر والنظام . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ أشار بذلك إلى بر الوالدين وترك التعرض اليهما بيسير من الإيلام فضلاً عن كثيره . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ اشارة إلى عفافهن . ومنه قوله تعالى : ﴿ وفُرُشٍ مَرفُوعَةٌ ﴾ اشار إلى نساء كرام . ومن هذا النوع فلان طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد اشارة بقوله ـ طويل النجاد ـ إلى تمام خلقته وبقوله ـ رفيع العماد ـ إلى أن بيته مرتفع يعرفه الاضياف والطرّاق وبقوله ـ كثير الرماد ـ إلى كثرة قراه الاضياف . . ويقولون أيضاً فلان جبان الكلب مهزول الفصيل أشاروا بقولهم ـ جبان الكلب ـ الى أنه لكثرة طراقه أنست كلابه الطراق وصارت تلوي رقابها وتحرك أذنابها فرحاً بهم وأشاروا بقولهم ـ مهزول الفصيل ـ إلى كثرة سقيه الألبان ومداومة حلب مواشيه ، فتقل بذلك ألبانها فيهزل الفصيل بسبب ذلك . الاشارات في القرآن كثيرة خصوصاً على ما يراه أرباب الحقائق ، وبعض أرباب هذه الصناعة

يسمى هذا النوع الايماء .

ـ ومنه قول الشاعر :

بعيدةُ مَهوى القِرطِ إما لنَهشلٍ أبوها وإما عبدِ شمسٍ وهاشِمِ

أشار بقوله ـ بَعيدةُ مَهوى القرط ـ إلى طول عنقها . . ومنه قول امرىء القيس :

كَأَنَّ المَدَامَ وَصَوبَ الغَمَامِ وَرِيحَ الخُزَامَى وَنَشْرَ العُطُرْ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أنيابِهَا إذا غَرَّدَ الطَّائِرُ المستَجِرْ

أشار إلى طيب رائحة فيها وقت السحر ، وهو وقت تغير الأفواه .

وأما الثاني : فأقسامها أربعة . الأول ما قدمناه . والثاني أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكبير . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِيهَا مَا تَشتهي الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأَعْينُ ﴾ جمع ما تميل إليه النفوس من الشهوات وتلذه الأعين من المرئيات . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إلى عَبدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ . والثالث من أنواع الاشارة عمل أرباب هذه الصناعة المعميات والالغاز وقد تقدم بيانهما . الرابع من أقسامها التورية ، وهي أن تكون الكلمة تحتمل معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله ، ولهدا مواضع نبينها وأملتها فيه إن شاء الله تعالى .

وأما الثالث : فالفرق بينها وبين الكناية أن الاشارة في الحَسنِ والكناية في القبيح ، وسيأتي بيانه .

القسم السابع عشر

في الكناية . والكلام عليها من وجوه

الاول : في حدها . الثاني : في المعنى الذي أتى بها من أجله . الثالث : في أقسامها .

أما الاول : فقد قال علماء علم البيان إن الكناية هي اطلاق لفظ حسن يشير إلى معنى قبيح كقوله تعالى : ﴿ وأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارَهُمْ وأموالَهُمْ وأرْضاً لم تَطئوها ﴾ أراد بالارض الثانية نساءَهم اللاتي كن محل وطئهم وجهة استمتاعهم . . ومنه قوله تعالى : ﴿ وقَالُوا مَا لِهذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشي في الأَسْواقِ ﴾ يُريدون أنه يتغوَّط فكنوا عن التغوّط بأكل الطعام لأنه سببه . . ومنه قوله تعالى : ﴿ أحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُم هُنَّ لباسٌ لَكُم وَأَنْتُم لِبَاسٌ لَهُنّ ﴾ كني بالرفث عن الحديث في الجماع وباللباس عن الوطء نفسه . . ومنه قوله تعالى : ﴿ وأَصلَحْنا لهُ زَوْجَهُ ﴾ أي هيأناها للولادة بعد الكِبر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وامرأتُهُ قائمةٌ فضَحِكت ﴾ أي حاضت . . قال بعض المتأخرين من الحذاق في هذا الفن الكناية في اللغة الستر ، وفي الصناعة أن تقصد مجازاً بعيداً مناسباً للحقيقة مع ضمنه أي ارادتها واذا استعمل اللفظ في ذلك كان ضربا من الاستعارة وتقع الكناية في المفرد والمؤلف وسيأتي بيانه .

وأما الثاني : فالمعنى الذي أتى بها من أجله هو الإجمال في الخطاب والدفع بالتي هي أحسن والتجنب للهُجر من القول إذا هو أرسخ في الالفة وأمكن . قال الله تعالى : ﴿ إِدْفَعْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وأما الثالث : فقد اختلفت عبارات أهل هذه الصناعة فيها وآثرها ما ذكره ابن الاثير في جامعه قال : إن الكناية على قسمين : قسم يحسن استعماله . وقسم لا يحسن استعماله . فأما الضرب الأول وهو الذي يحسن استعماله فينقسم إلى أربعة أقسام : الأول : التمثيل وهو التشبيه على سبيل الكناية ، وذلك أن تراد الاشارة إلى معنى فتوضع ألفاظ على معنىً آخر ، وتكون تلك لألفاظ ، وذلك المعنى مثالاً للمعنى الذي قصدت الاشارة إليه ، والعبارة عنه كقولنا ـ فلان نقي الثوب ـ أي منزّه عن العيوب ، وللكلام بهذا فائدة لا تكون لو قصد المعنى بلفظه الخاص به ، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصوير المدلول عليه ، لأنه إذا صور في نفسه مثال ما خوطب به كان ذلك أسرع إلى الرغبة فيه أو الرغبة عنه . فمن بديع التمثيل قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيتاً ﴾ فانه مثل الاغتياب يأكل الانسان لحم انسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم لأخ ، ولم يقتصر على لحم الاخ حتى جعله ميتاً ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدَت له مناسبة مطابقة للمعنى الذي وردت لأجله .

فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم انسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جدا ، وذلك لأن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة ، وأما قوله لحم أخيه ، فلما في الاغتياب من الكراهة ، لأن أرباب العقل والشرع قد أجمعوا على استكراهه وأمروا بتركه والبعد

عنه . ولما كان كذلك كان بمنزلة لحم الأخ في كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الانسان مستكره عند انسان آخر مثله ، الاّ أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه ، وهذا القول مبالغة في الاستكراه لا أمد فوقها .

وأما قوله ـ ميتاً ـ فلأجل ان المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها . . وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة . موصولاً بالمحبة فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بأنها من أذم الحلال ، ومكروه الافعال عند الله عز وجل والناس .

ومن هذا القسم قوله تعالى : ﴿ وَلَا تجعلْ يَدَكَ مَغْلُولةً إلى عُنُقِكَ وَلَا تبسُطْها كُلَّ البَسْطِ ﴾ فمثل البخل بأحسن تمثيل لأن البخيل لا يمد يده بالعطية كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده وإنما قال ـ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ـ ولم يقل ولا تجعل يدك مغلولة من غير ذكر العنق لأنه قد قال تعالى ـ ولا تبسطها كل البسط ـ فناب ذكر العنق عن قوله كل الغل ، لأن غل اليدين إلى العنق هي اقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها . . ومن امثال العرب ـ اياك وعقيلة الملح ـ وذلك تمثيل للمرأة الحسناء في المنبت السوء لأن عقيلة الملح هي الذرة . .
ومن التمثيل قول ابن الدُّمينة :

أبيني أفي يُمني يـديـك تـركتني   فـأفرَحَ أم صَيـرتني في شمالكي

أَي ابيني أمنزلتي كريمة عندك أم هينة عليك فذكر اليمين وجعلها مثالاً لإكرام المنزلة ، وذكر الشمال وجعلها مثالاً لهوان المنزلة ، لأن اليمين اشرف مكانة من الشمال وأكرم محلا ، وفي القرآن العظيم ما يدل على ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ اليَمينِ مَا أَصْحَابُ اليَمينِ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ فلما جاء إلى ذكر الشمال قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِمَالِ مَا أصحَابُ الشِمَالِ في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ

وظِلٍ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ فاعرف ذلك .

الثاني : الارداف وهو اسم سماه قدامة بن جعفر الكاتب قال : اعلم أن أكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الأرداف في التمثيل ، وفي الفرق بينهما اشكال ودقة فأما التمثيل فقد سبق الاعلام بـه ، وهو أن يـراد الإشارة إلى معنى فتوضع الالفاظ على معنى آخر فتكون تلك الالفاظ ، وذلك المعنى مثالاً للمعنى الذي قصدت الإشارة اليه ، والعبارة عنه كقولنا ـ فلان نقي الثوب ـ أي منزه عن العيوب . وأما الأرداف فهو أن يـراد الاشارة إلى معنى فيتـرك اللفظ الـدال عليـه ، ويؤتى بمـا هـو دليل عليه ورادف له كقولنا ـ فلان طويل النجاد ـ والمراد طويل القامة إلاّ أنه لم يتلفظه بطول القامة الذي هو الغرض ، ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة ، وليس نقاء الثوب بدليل على النزاهة عن العيوب وإنما هو تمثيل لها فاعرف ذلك .

واعلم أن الأرداف يتفرع إلى خمسة فروع . . الأول : فعل البداهة كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمنِ ٱفترى عَلى ٱللهِ كَذِباً أو كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي انه سفيه الرأي بمعنى أنه لم يتوقف في كلامه وقت مـا سمعه ، ولم يفعل كما تفعل المراجيح العقول المتثبتون في الاشياء ، فإن من سفاهتهم إذا ورد عليهم أمرٌ أو سمعوا خبراً أن لا يستعملوا فيه الروية وتأنوا في تدبره إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه . ألا ترى أن معنى قوله ـ كذّب بالحق لما جاءه ـ أي انه ضعيف العقل عازب الرأي فعدل عن ذلك الى ما هو دليل عليه ورادف له وذلك آكد وأبلغ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتلى عَلَيهم آياتُنا بَيِّنَاتٍ قَالوا مَا هَذَا إلاّ رَجُلٌ يُريدُ أنْ يَصُدَّكُم عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَـاؤُكُم ﴾ ومثله في القرآن كثير .

الثاني: من الأرداف باب المثلِ وهو ان العرب تأتي بمثل في هذا توكيداً للكلام وتشييداً من أمره يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبح ـ

مثلي لا يفعل هذا ـ أي أنا لا أفعله فنفي ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه قصداً للمبالغة فيسلك به طرق الكناية لأنه إذا نفاه عن مثله ومشابهه فقد نفاه عنه لا محالة . كذلك قولهم أيضاً ـ مثلك إذا سئل أعطى ـ أي أنت كذلك . وهو كثير في الشعر القديم والمولد وفي الكلام المنثور . . وسبب توكيد هذه المواضع بمثل انه يراد أن يجعل نفسه من جماعة هذه أوصافهم تثبيتاً للامر وتوكيداً له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ولم ترثب فيه قدمه . مثل ذلك قولهم لانسان ـ أنت من القوم الكرام ـ أي لك في هذا الفعل سابقة وأنت حقيق به ولست دخيلاً فيه . . ومن هذا الباب في القرآن كثير كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّميع البَصِيرُ ﴾ وهذا كقولك ـ مثلي لا يفعل كذا ـ فينفون البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذلك قصداً للمبالغة لأنهم إذا نفوه عن من يسد مسدَّه وهو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه . ونظير ذلك قولك للعربي ـ العرب لا تخفر الذمم ـ وهذا أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم ، وليس فرق بين قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ وبَينَ قوله ليس كالله شيءٌ إلا من الجهة التي نبهنا عليها فاعرفها . .

الثالث : من الأرداف ما يأتي في جواب الشرط ، وذلك من ألطف الكنايات واحسنها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ والإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُم في كِتَابِ اللهِ إلى يَوم البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ ﴾ كناية عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه وذلك رادف له . ونظيره قولك : كنت تنكر حضور زيد فها هو أي فأنت كاذبٌ ، وهذا من دقائق الكناية . .

الرابع : من الأرداف الاستثناء من غير موجب وذلك من غرائب الكناية كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ الآية . ـ والضريع ـ نبت ذو شوك تسميه قريش الشبرق في حال خضرته وطراوته فإذا يبس سمته الضريع ، والإبل ترعاه طرياً ولا تقربه يابساً . والمعنى ليس

لهم طعام أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الانس ، وهذا مثل قولك ـ ليس لفلان ظل الاّ الشمس ـ تريد بذلك نفي الظل عنه على التوكيد ، وذلك رادف لانتفاء الظل عنه كما ذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام . . وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم :

وتفـرَّدُوا بـالمَكـرُمـاتِ فلم يكنْ لسـواهُم منهـا سـوَى الحـرْمـانِ

فالمراد نفي المكرمات عن سواهم لأنهم إذا كان لهم الحرمان من المكرمات ، فما لهم منها شيء . .

الخامس : من الارداف وليس مما تقدم بشيء ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذِنتَ لَهُمْ ﴾ والمراد به اذا خوطب بمثل هذا غير النبي صلى الله عليه وسلم أنك أخطأتَ وبئس ما فعلت فقوله ـ لم أذنتَ لهم ـ بيان لما كنى عنه بالعفو أي مالك أذنت لهم وهلا استأنيت فذكر العفو دليل ، ورادف له وان لم يذكر . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلوا فاتَّقوا النَّارَ التي وَقُودُهَا النَّاس والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرينَ ﴾ قيل لهم ان استندتم إلى العجز فاتركوا العناد فوضع قوله ـ فاتقوا النار ـ موضعه لأن اتقاء النار لصيقة وضميمة من حيث أنه من نتائجه وروادفه ، لأن من اتقى النار ترك المعاندة . ونظيره أن يقول الملك لحشمه ـ إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي ـ يريد فأطيعوني وأطيعوا أمري واحذروا ما هو نتيجة حذر السخط وروادفه . . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعرابُ آمنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية فإنها أفادت تكذيب دعواهم ودفع ما انتحلوه وفائدتها هاهنا أنه روعي في تكذيبهم أدب حسن لم يصرح بلفظه ، فلم يقل كذبتم لأن فيه نوع استقباح في الخطاب فوضع قوله ـ قل لم تؤمنوا ـ الذي هو نفي ما ادعوا اثباته موضعه لأن ذلك رادف له . . ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى : ﴿ قَالَ المَلأُ

الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا من قَوْمِهِ لِلّذِينَ استُضْعِفوا لِمَن آمَنَ مِنْهُم أتَعْلَمُونَ أنّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبّهِ﴾ أثبت العلم بارساله وانه من الأمور الظاهرة المسلمة التي لا يدخلها ريب ، ولا يعتريها شك ، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ، ورادف له وهو الايمان به أعني صالحاً إنما صح عنهم بعد ثبوته عندهم ، والعلم بإرساله إليهم فالإيمان به أدنى دليل على العلم بأنه نبي مرسل ، وهذا من دقائق الأرداف ولطائفه . وأمثال ذلك كثيرة كقول الاعرابية في حديث أم زرع تصف زوجها له إبلٌ قليلاتُ المسارح كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المزاهر أيقَنّ أنهُنّ هوالك . . فإن الظاهر من هذا القول أن إبله يبركن عند بيته بفنائه ، ولا تبرح ليقرب عليه نحرها للأضياف فاذا هُزت المزاهر للغناء نحرها لضيوفه ، فقد اعتادت هذه الحالة وأيقنتها وغرض الأعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم ، ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه ، وإنما أتت بمعان دلت على ذلك من غير تصريح بمرادها . . وكذلك قال بعضهم :

وَدَدْتُ وما تغني الوَدَادة أنني بِمَا في ضَمِيرِ الحَاجِرِيّةِ عالمُ
فَإنْ كَانَ خَيراً سَرَّني وعلمتُهُ وَإنْ كَانَ شرًّا لم تلُمني اللوائم

أي أهجرها فأضرب عن ذلك جانباً ، ولم يذكر ذلك اللفظ المختص به ، لكنه ذكر ما هو دليل عليه ورادف له . . الثالث من الكناية وهو المجاورة ، وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء فيترك ذكره جانباً إلى ما جاوره فيقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود كقول عنترة :

فشَكَكْتُ بالرمحِ الأصمّ ثيابَهُ لَيسَ الكَريمُ على القَنا بمُحرَّمِ

أراد ـ بالثياب ـ هنا نفسه لأنه وصف المشكوك بالكرم ، ولا توصف

الثياب به فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب ، وفي ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة وقال أيضاً :

بِـزجـاجـةٍ صفـراءَ ذَات أشعــةٍ قُرنَتْ بأزهـرَ في الشَمالِ مُفـدَّمِ

ـ الصفراء ـ هاهنا هي الخمرة ، والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها ومشتملة عليها . وذهب بعضُ المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ انه أراد بالثياب القلب أو الجسد أي وقلبك فطهر أو جسدك . . ومنه قول امرىء القيس :

فإنْ تَكُ قد ساءَتـكِ مِني خليقةٌ فسُلي ثِيـابي من ثِيـابِـكِ تنسُلي

الرابع :من الكناية ما ليس بتمثيل ولا ارداف ولا مجاورة كقولـه تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ يَنشَّؤُ في الحِلْيَةِ وَهُوَ في الخِصَامِ غَيرُ مُبينٍ ﴾ فكنى بأنهم يتزينون في الحلية أي الزينة والنعمة وهو اذا احتاج إلى مجاراة الخصوم كان ـ غير مبين ـ أي ليس عنده بيان ولا برهان يحاج به من خاصمه ، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال . . ومن هذا الباب قال أبي نواس :

تقولُ التي من بيتها خَفَّ مَحْمِلي عــزيـزٌ عَلَينــا أنْ نَــرَاكَ تَسيــرُ

ألا ترى ما أحسن هذه الكناية فإنه أضربَ عن ذكر امرأته بقوله ـ من بيتها خف مركبي ـ فإنه من ألطف الكناية مذهباً . . وكذلـك قول نصيب :

فعـاجُوا فـأثنوا بـالذي أنتَ أهلُهُ ولو سَكتوا أثنتْ عَليكَ الحَقائِبُ

وقال الجاحظ نحن قَوْمُ نسحر بالبيان ونموه بالقول . . الثاني من التقسيم الأول من الكناية وهو الذي يقبح ذكره ، ولا يحسن استعماله كقول أبي الطيب المتنبي :

إني على شَغفي بِمَا في خُمْرِها لأعِفُّ عَمَّـا في سَـراويـلاتِهـا

فإنّ هذه كناية عن النزاهة والعفة وعلم الله أن الفجور لاحسن منها . . وقد ذكر الشريف الرضي هذا المعنى فابرزه في أجمل صورة فقال :

أحنُّ إلى ما يضمنُ الخُمرُ والحُلى وأصدِفُ عما في ضمـان المآزر

ألا ترى إلى هذه الكناية ما الطفها والمعنيان سواء . وبهذا يعرف فضل الشاعرين أحدهما على الآخر ، وذلك إذا أخذا معنىً واحداً فصاغه أحدهما أحسن صياغةً تميزه عن صياغة الآخر .

القسم الثامن عشر

التعريض

وقد اختلف فيه مذاهب بعض علماء هذا الشأن ، فذهب بعضهم إلى أن الكناية والتعريض بمعنىً واحد وبعضهم فرق بينهما . . قال ابن الاثير في جامعه في الكناية والتعريض إن لهذا النوع من الكلام موقعاً شريفاً ومحلاً كريماً وهو مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً ، وذلك نوع من علم البيان لطيف ، وقد تكلم جماعة من المؤلفين في هذا الفن وخلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ، بل أوردوا لهما من النظم والنثر وأدخلوا أحد القسمين بالآخر وذكروا للكناية أمثلة من التعريض ، وللتعريض أمثلة من الكناية فمنهم أبو محمد بن سنان الخفاجي وأبو هلال العسكري والغانمي ، فأما ابن سنان فإنه ذكر في كتابه قول امرىء القيس :

وصِرْنا الى الحُسنى وَرَقَّ كلامنا   ورُضتُ فذلت صعبةُ أيَّ إذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة ، وهو مثال للتعريض . وسنورد لك أيها الناظر في كتابنا هذا فرقا بين الكناية والتعريض ، ونميز أحدهما عن الآخر فنقول وبالله التوفيق : إن الكناية هي أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كما كنى الله عز وجل عن الجماع بالمس فإن حقيقة المس هي الملامسة يقال مسست الشيء اذا لمسته ولما كان

الجماع ملامسة بالابدان وزيادة أمر آخر أطلق عليه اسم المس مجازاً وضد الكناية التصريح . وأما التعريض فهو أن يذكر شيئا يدل به على شيء لم يذكره وأصله التلويح عن عُرْض الشيء وهو جانبه وبيت امرىء القيس ضربه مثالاً للكناية ، وهو عين التعريض فان غرضه من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لما استقبح ذكره لم يذكره ، بل ذكر كلاما آخر ودل به عليه ، لأن المصير إلى الحسنى ورقة الكلام يفهم منها ما أراده أمرؤ القيس من المعنى وذلك مما لا خفاء به ، وحيث تبين الفرق نشرع في أقسام كل واحد من الكناية والتعريض فنقول . . إن الكناية هي على قسمين . أحدهما ما يحسن استعماله وهو الذي نحن بصدد ذكره هاهنا والآخر ما لا يحسن استعماله وقد تقدم بيانهما . وأما التعريض فقد ميزه الله تعالى في خطبة النساء فقال جل من قائل : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيكمْ فِيمَا عَـرَّضتُمْ بِهِ مِن خِطبَةِ النِّسَاءِ ﴾ قال المفسرون التعريض بالخطبة أن يقول لها وهي في عِدَّة الوفاة انك لجميلة وأنك لحسنة ، وإني إليك لشيق ، وإن قدر الله شيئاً فهو يكون ، وما أشبه ذلك . ومما هو من التعريض قوله حكاية عن عبدة الأصنام حين كسرها ابراهيم عليه السلام : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبْراهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ يعني أن كبير الاصنام غضب ان تعبد هذه الاصنام الصغار معه فَكسرها ، فغرض ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم ، لأنه قال ـ فسألوهم إن كانوا ينطقون ـ هذا على سبيل الاستهزاء بهم . وهذا من رموز الكلام والقصد فيه أن ابراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه إلى الصنم إنما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضي أن يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم وتبكيتهم والاستهزاء بهم ، ومن بديع التعريض قوله تعالى : ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذين كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إلَّا بَشَراً مِثلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبَعَكَ إلاّ الَّذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ

كَاذِبِينَ ﴾ فقوله ـ ما نراك إلا بشراً مثلنا ـ تعْريض أنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملائكة وموازن لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ، ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنهم ـ وما نرَى لكم علينا من فضل ـ . ومن مشكلات التعريض حديث عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : حكت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو محتضن أحدًا بني ابنته وهو يقول : « وَاللهِ إنَّكُمْ ، لَتَجْبنُونَ وَتَبْخَلُونَ وَتَجْهَلُونَ وَإنَّكم لَمِنْ رَيْحانِ اللهِ وَإنَّ آخرَ وَطْئَةٍ وَطَئَهَا اللهُ بوج » .

اعلم أن ـ وج ـ وادٍ بالطائف ، والمراد غزاة حنين ، وادٍ قبل وج ، لأنها آخر غزاة وقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين ، فلم يكن فيهما وطأة اي قتال ، وإنما كانتا مجرد مخروج إلى الغزاة حَسْبُ من غير ملاقاة العدو أعني ، ولا قتال لهم، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ـ وان آخر وطأة وطئها الله بوج ـ على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ، ووفاته كانت في ربيع الاول من سنة احدى عشرة وبينهما سنتان ونصف ، وكأنه قال ـ وإنكم من ريحان الله ـ أي من رزق الله ، وأنا مفارقكم عن قريب إلا انه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله ـ وان آخر وطأة وطئها الله بوج ـ فكان ذلك تعريضاً لما أراده وقصده من قرب وفاته ومفارقته إياهم يعني أولاده ، وهذا من أغرب التعريضات وأعجبها . ومن هذا الباب قول الشميدر الحارثي :

بَني عَمنا لا تذكروا الشعرَ بَعدَ ما ... دَفنتمْ بِصحرَاء الغُمير القوافِيا

فإن ليس قصده الشعر ، بل قصده ما جرى بينهم بهذا الموضع من

الغلبة لهم والقوة عليهم إلا انه لم يذكر ذلك ، بل ذكر الشعر ودفنه تعريضاً أي لا تفخرون بعد ذلك الواقعة التي جرت لنا ولكم بذلـك المكان . ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن سعد إلى المأمون في حق بعض أصحابه : أما بعد فقلا استشفع فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنظرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك بعد عن طاعته ، فوقع المأمون في كتابه قد عرفنا نصيحتك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليهما .

القسم التاسع عشر

الاستطراد

وهو التعريض بعيب انسان بذكر عيب غيره لمتعلق أو نفي عيب عن نفسه بذكر عيب غيره ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَسكنتمْ في مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم وَتَبينَ لكم كَيفَ فَعَلْنَا بِهِم ﴾ . ومثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فقُلْ أَنْذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ . ومثل قوله تعالى : ﴿ أَلاَ بُعداً لِمدْيَن كَمَا بَعُدَتْ ثَمودَ ﴾ ومثل هذا في القرآن كثير . . ومنه في الشعر قول السموءَل بن عاديا :

إنـا لقـومٌ لا نـرى القتـل سُبَّـةً إذا مَـا رأتـه عَـامـرٌ وسَـلولُ
يُقـرّبُ حبُّ الموتِ آجـالَنـا لَنـا وَتـكْـرَهُـهُ آجـالُـهُـمْ فـتـطولُ

ـ وقال آخر :

ولا عَيبَ فينـا غيرُ عِـرقٍ لمعشرٍ كـرامٍ وأنّا لا نخطّ على الـرّمل

يريدُ أنا لَسنا مِجوسٍ فإن المجوسَ كانتْ تزعُمُ ان الرجلَ منهم إذا تزوج أخته ، أو ابنته فجاءت منه بولد إن ذلك الولد إذا خط بيده على داء النملة ابرأه .

القسم العشرون

في التورية

وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر وهو في القرآن العظيم كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتى نُؤتى مِثل مَا أُوتيَ رُسُلَ اللهِ اللهُ أعْلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رسَالاَتِهِ ﴾ الأية ، الجلالة الأولى مضاف إليها ، والثانية مبتدأ بها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنّ أكثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . ومثله قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىَ مِن أولِ يَومٍ أحقُّ أنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ .

القسم الحادي والعشرون

الاحتجاج النظري

وبعض أهل هذا الشأن يسميه المذهب الكلام . . وهو أن يذكر التكلم معنى يستدل عليه بضرب من المعقول . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَمَواتِ وَالأرضَ بِقَادِرٍ عَلى أنْ يَخلقَ مِثلَهمْ ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهمَا آلهةٌ إلاَّ الله لَفَسدَتا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يحُيي العِظَامَ وَهي رَميمٌ قُلْ يُحييهَا الَّذي أَنْشَأها أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . . ومنه قول الشاعر:

جَرَى القضاءُ بما فيهِ فلا تلم   وَلاَ مَلامَ عَلى مَا خُطَّ بالقلم

ـ وقيل إنّ الاحتجاج أن يخرج الكلام على طريقة الجدل كقول النابغة :

مُلوكٌ واخوانٌ إذا ما أتيتُهمْ   أحَكَّمُ في أموالِهمْ وَأُقَرَّبُ
كفعلك في قومٍ أراكَ اصطنعتَهم   فَلَم ترهُمْ في شُكرِ ذَلكَ أذْنَبُوا

يقول لا تلمني في مدح آل جفنة ، وقد أحسنوا لي ، كَما أحسنت إلى قومٍ فَشَكَرُوكَ فَلَم تر ذلك ذنباً .

القسم الثاني والعشرون

حسن المطالع والمبادي . ويقال فيه حسن الافتتاح

قال علماء علم البيان . . ومن ضروب هذا العلم حسن المطالع والفواتح ، وذلك دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الاذهان فإنه أول شيء يدخل الأذن ، وأول معنى يصل إلى القلب ، وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل ، وهو في القرآن العظيم على قسمين : جلي وخفي . أما الجلي فكقوله تعالى : ﴿ الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السَمَوات والأرضَ وَجَعَلَ الظُلُمَاتِ والنُّورَ ﴾ . وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلْك وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء قَديرٌ ﴾ وأكثر مطالع سور القرآن على هذا النمط . وأما الخفي فمثلُ قوله تعالى : ﴿ الٓم ذَلِكَ الكِتَابُ ﴾ . وقوله : ﴿ الٓم اللهُ لا إلَـهَ إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ . وقوله : ﴿ الٓمصٓ ﴾ . وقوله : ﴿ حٓمٓ ﴾ . وقوله : ﴿ قٓ والقرآن ﴾ . وقوله : ﴿ نٓ والقلم ﴾ وما يجري مجرى ذلك من السور التي افتتحت بالحروف المفردة والمركبة ، وسيأتي الكلام عليها في فصل مفرد .

القسم الثالث والعشرون

حسن المقطع

وهو عند أرباب هذا الشأن أن يختم المتكلم كلامه بكلام حسن السبك بديع المعنى ، فانه آخر ما يبقى في الذهن ، ولأنه ربما حفظ من دون سائر الكلام فيتعين أن يجتهد في رشاقته وحلاوته وجزالته وجميع خواتم سور القرآن في غاية الحسن ونهاية الكمال لأنها بين : أدعية . ووصايا . وفرائض . وقضايا . وتحميد . وتهليل إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى للنفوس بعدها تطلع ، ولا إلى ما يعقبها تشوف ـ كالدعاء ـ التي ختمت به سورة البقرة ـ والوصايا ـ التي ختمت بها سورة آل عمران ـ والفرائض ـ التي ختمت بها سورة النساء ـ والتبجيل ، والتعظيم ـ اللذين ختمت بهما سورة المائدة ـ والوعد . والوعيد ـ اللذين ختمت بهما سورة الأنعام . والتحريض ـ على العبادة بوصف حال الملائكة الذي ختمت به سورة الاعراف . والحض على الجهاد . وصلة الرحم ـ التي ختمت بهما سورة الأنفال . ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدحه وتسليته ووصيته بالتهليل التي ختمت به سورة براءة . وتسليته التي ختمت بها سورة يونس ، ومثلها خاتمة سورة هود . ووصف القرآن ومدحه اللذين ختمت بهما سورة يوسف . والرد على من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ختمت به سورة الرعد . ومدح القرآن وذكر فائدته والعلة في إنزاله التي ختمت به سورة ابراهيم . ووصية

الرسول التي ختمت بها سورة الحجر . وتسليته صلى الله عليه وسلم وطمأنينته ووعد الله سبحانه الذي ختمت به سورة النحل . والتحميد الذي ختمت به سورة سبحان . وتحضيض الرسول صلى الله عليه وسلم على الإبلاغ والإقرار بالبشرية والأمر بالتوحيد الذي ختمت به سورة الكهف . وما ذكر في نصف القرآن مثل لمن نظر في بقيته الى غير ذلك من فواصل القرآن .

القسم الرابع والعشرون

في براعة الاستهلال

وهو أن يذكر الانسان في أول خطبته أو قصيدته أو رسالته كلاماً دالاً على الغرض الذي يقصده ليكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه ، كما قيل لكاتب أكتب إلى الامير وعرفه بأن بقرة ولدت حيواناً على شكل الانسان فكتب . أما بعدَ حمد الله الذي خلق الأنام في بطون الانعام . ومنه قوله تعالى : ﴿ الٓم غُلبت الرُوم في أدنى الارضِ وهم من بعدِ غَلبهمْ سَيغلبون ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ بَراءَة من الله ورَسوله إلى الذين عاهدْتم من المشركين ﴾ . ومنه في القرآن كثير . وشرطه أن لا يبتدأ بشيء يُتطير منه كقولة الاخطل :

اذا مُتَّ ماتَ الجودُ وانقطعَ النّدى ولم يبقَ إلاّ من قليلٍ مُصَرّدِ

ـ وان يجتنب التشبيب بالاسم المستكره كقول جرير :

وتقولُ بَوْزَعُ قد دَنيتُ لغيرنا هَلاّ هَويتِ لِغيرنا يا بوزَعُ(١)

ـ بل يبتدىءُ بالمديح مثل قول أبزون العُماني :

---

(١) هكذا في الاصل والمحفوظ :

وتقول بوزع قد دبت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

على منبر العلياءِ جدك يخطبُ   وللبلدة العذراءِ سيفُك يَخطُبُ

وفي التهاني بمثل قول المتنبي :

المجدُ عُوفي إذْ عوفيتَ والكرَمُ   وزال عنكَ إلى اعدائك الالمُ

ـ وقولُ الآخر :

أبشرْ فقد جاءَ ما تريدُ   وبَادَ أعداءك المُبيدُ

ـ وفي التشبيب كمثل قوله :

زَمُّوا الجمالَ فقلْ للعاذِلِ الجاني   لا عاصِمَ اليوم منْ مدرار أجَفاني

ـ وفي المراثي بمثل قول أوس :

أيتها النفسُ اَجْملي جَزعا   إنّ الّذي تَحْذَرينَ قَدْ وَقعا

قال المصنف : عفا الله عنه هذا النوع ، قد قدمناه في فصل حسن المطلع ، لكن الزنجاني رحمه الله أفرد له باباً فأفردناه على حكم ما أفردهُ ، وكان في فصل حسن المطلع زيادات يحتاج إليها فذكرناها هاهنا ، وهذه الزيادة التي اقتضت افراده .

القسم الخامس والعشرون

الانتقال من فن إلى فن . ويسمى التخلص . والكلام عليه من وجوه

الاول : في حقيقته . الثاني : في شرطه . الثالث : في الفرق بينه وبين الاقتضاب . الرابع : في المعنى الذي جيء به من أجله . الخامس : في ذكر من هو أحق باستعماله .

أما الاول : فقال علماء علم البيان التخلص هو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني فبينما هو فيه اذ أخذ في معنىً آخر غيره ، وجعل الأول سبباً اليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً .

وأما الثاني : فمن شرطه أن يكون انتقاله من فن إلى فن ببديع وحسن رصف ووجازة لفظٍ ورشاقة معنى ليكون الذي انتقل إليه أقرب إلى القلب وأعلق بالنفس من المعنى الذي انتقل عنه .

وأما الثالث : فالفرق بينه وبين الاقتضاب أن التخلص لا يكون إلا لعلاقة بينه وبين ما تخلص منه . وأما الاقتضاب فليس شرطه أن يكون بينه وبين ما قبله علاقة ، بل يكون كلاماً مستأنفاً منقطعاً عن الاول .

وأما الرابع : فالمعنى الذي جيء به من أجله شيئان : أحدهما معرفة حذق المتكلم ، وقوة ملكته في التلعب بالكلام ، وتصرفه فيه

وطول باعه واتساع قدرته في الفصاحة والبلاغة . والثاني التفنن بحصول ملاذ كثيرة وتكون لذته بأمور اقتضاها اعمال الفكرة فيما يتخلص به من بديع المعنى ووشيق اللفظ وحسن النسق .

وأما الخامس : فالأحق باستعماله الشاعر ، فإن الشاعر تحصره القوافي والأوزان ، فيضيق عليه النطاق إذا اقتصر على معنى واحد فتدعو حاجته إلى الخروج من فن إلى فن ومن معنى إلى معنى ليتسع نطاقه ويتحقق ارفاقه بخلاف الناثر فانه مطلق العنان ممدود الباع منبسط البنان يمضي حيث شاء ويتفنن في الانشاء . .

وقد ورد في القرآن العظيم من هذا النوع آياتٌ كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ قل هَل يَسمعونكم إذْ تَدعُونَ أو يَنْفَعُونَكُم أَوْ يضرونَ قَالوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرأيتم مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ أنتُم وَآبَاؤُكُم الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُم عَدوٌّ لي إلاَّ ربَّ العَالَمِينَ الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين ﴾ لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم الى ذكر صفات الله عز وجل قال - إن أولئك أعداء لي الاّ الله - فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل ، وهو خير من غيره من الكلام ، ومثله في القرآن كثير .

القسم السادس والعشرون

في الاقتضاب . والكلام عليه من وجوه

الاول : في حقيقته . الثاني : في المعنى الذي أتى به من أجله . الثالث : في أقسامه . الرابع : في أدواته . الخامس : في الفرق بينه وبين التخلص . السادس : في ذكر اختلاف الأئمة في الأبلغ منهما .

أما الأول : فقال علماء علم البيان ان الاقتضاب ضد التخلص ، وذلك أن يقطع الناظم كلامه الذي هو فيه ، ويستأنف كلاماً آخر غيره من مدح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثاني علاقة بالأول ، ولا تلفيق بينه وبينه ، وهو مذهب القدماء ، ولذلك قال أبو العلاء محمد بن غانم الغانمي : إن كتاب الله العزيز خال من الاقتضاب والتخلص .

وهذا القول فاسد لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تناسب بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج اليه ، وفي القرآن العظيم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير والانذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ، ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة لنبي ونبإ منزل إلى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذة بالقلب أنيقة . . فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ إبْراهيمَ إذْ قَالَ لأَبيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نعبُدُ أصناماً فنظَلُّ لَهَا عَـاكِفِينَ قَالَ هَـلْ

يَسْمَعُونَكُم إذْ تَدْعُونَ﴾ إلى قوله : ﴿فَلَو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِن المُؤْمِنِينَ﴾ الآيات . هذا كلام يُذهل العقول ويحيّر الالباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة والمنتصب لهذه الصناعة فإنه متى أنعم فيه النظر وتدبر أنباءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غنىً لمن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن . ألا ترى أيها المتأمل ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه الصلاة والسلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ، ثم أنحى إلى آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ، ولا تسمع ، وإلى تقليد آبائهم الأقدمين فكشفه وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذي لا تجب العبادة إلاّ له ، ولا يبغي الرجوع والإنابة إلا إليه ، فصور المسئلة في نفسه دونهم لقوله ـ فإنهم عدوٌّ لي إلاّ ربَّ العالمين ـ على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة العدوّ وهو الشيطان ، فاجتنبتها وآثرتُ عبادةَ من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحنا ابراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك ادعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال ـ فانهم عدوٌّ لكم ـ لم تكن بتلك المثابة فتخلص عند تصويره المسئلة في نفسه إلى ذكر الله تعالى ، وأجرى تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجو في الآخرة من رحمته ليعلم بذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة وواجب على الخلق الخضوع له والإستكانة من عظمته ، ثم خرج من ذلك إلى أدعية مناسبة فدعا الله بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين ، لأن الطالب من مولاه والراغب اليه اذا قدّم قبل سؤاله وضراعته الاعتراف بالنعمة والاقرار بالاحسان كان ذلك أسرع بالاجابة وأنجح لحصول القصد والطِلْبة ، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث يوم القيامة ومجازات الله تعالى لمن آمن به باثابة الجنة ، ولمن ضل عن

عبادته بالنار فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته ، ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون من الأصنام سؤال موبخ لهم مستهزءٍ بهم وذكر ما يُدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى العودة ليؤمنوا . . فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على لطيفة دقيقة حتى كأنه معنى واحد وخرج من ذكر الأصنام وتقريره لأبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي عليه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع الى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الالوهية وعظّم شأنه وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح الاّ له ثم خرج من هذا الى دعائه إياه وخضوعه له ، ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله عز وجل وعقابه ، فتدبر هذه التخليصات اللطيفة وضم هذا إلى غيره من تضمين هذا الكلام بأنواع من صناعة التأليف وهي الايجاز والكناية ، والتقديم والتأخير ، ثم إنابة الفعل الماضي عن الفعل المضارع .

فأما الإيجاز فلا خفاء به على العارف بما أشرنا اليه في بابه الذي سبق ذكره أولاً ، وإن من جملة قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلغَاوِينِ ﴾ فإنه جمع الترغيب في طاعته ، والترهيب من معصيته مع عظمهما وفخامة شأنهما في هذه الكلمات اليسيرة .

وأما الكناية فقوله ـ وبرِّزت الجحيم للغاوين ـ والغاوون هنا كناية عن أبيه وقومه ، ويدل على ذلك قوله : وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دونِ الله ـ لأن كلامه في الأول كان معهم في عبادتهم للأصنام . وأما التقديم والتأخير فإنه ذكر ابراهيم النعمة تعديد الاحسان قبل الدعاء وطلب الحاجة . وأما انابة الفعل الماضي عن المضارع فقوله ـ وأزْلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ـ بعد قوله ـ ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولاَ بَنُونَ إلاّ مَن

أتى الله بِقَلْبٍ سَليم ـ وفي ذلك من الفائدة ما أشرنا إليه في بابه ، وقد سبق ذكره .

وأما الثاني : فالمعنى الذي أتى به من أجله تشوف النفس بعد قطع الكلام الأول إلى الكلام الثاني الذي بعده ، ولا سيما اذا لم يكن بفاصلة فإنه يدل على تمكن المتكلم في البلاغة وقوة ملكته في التلعب بالكلام ، وجودة فكرة المؤلف ، وحُسن فطرة السامع وصحة ذهنه .

وأما الثالث : فقال علماء البيان هو على قسمين : منه ما يكون بفاصلة . ومنه ما لا يكون بفاصلة ، وهو بالفاصلة أحسن لأن بها تتشوف النفس إلى المعنى الثاني ، فتكون له لَذاذَةٌ أشد مما إذا ورد بغتة .

وأما الرابع : فأدواته فواصله وهي ـ أما بعد ـ وقيل إنّ أول من تكلم بها رسول الله ثم تداولها الناس بعده ـ وهذا . وهذه ـ وقد يذكر لهما خبر كقوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكرٌ وإن لِلمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وقد لا يذكر لهما خبر كقوله تعالى : ﴿ هَذَا وَإنّ لِلطَّاغِينَ لَشرّ مَآبٍ ﴾ وكما قال الشاعر :

هَـذَا وَكَمْ لي بـالجنينـةِ سَكـرةٌ أَنَـا مِنْ بَقَـايَـا شُرْبهـا مَخْمُـورُ

وقد قال ابن الأثير في جامعه في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبادَنـا ابراهِيمَ واسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولي الأيدي وَالأبْصَار ﴾ إلى قوله : ﴿ جَنَاتُ عَدْنٍ مُفَتّحةً لَهُمُ الأبْوابُ ﴾ ألا ترى ما ذَكر قبل هذا ذكرٌ من ذِكرِ مَن ذَكرَ من الأنبياء ، وأراد أن يذكر بعده باباً آخر غيره ، وهو ذكر الجنة وأهلها فقال ـ هذا ذكرٌ ـ ثم قال ـ وإنّ للمتقين لحسنُ مآب ـ ويدلّ عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة ، وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال ـ هذا وإنّ للطاغين لشرُّ مآب ـ وذلك من فصل الخطاب الذي هو ألطف موقعاً من التخلص فاعرفه . . ومن بديع الاقتضاب قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلمُطَفِّفِينَ ﴾ إلى

قوله : ﴿ لِرَبِّ العَالَمينَ ﴾ ثم اقتضب فقال : ﴿ كَلَّا إنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّين ﴾ . . وهو في القرآن كثير جداً وأكثر ما يرد في ذكر القصص وهذا من النوع الاول من الاقتضاب لأنه بلا فاصلة . . وقال ابن الاثير ومما استطرف من هذا النوع قول ابن الزملكاني[1] :

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَرقعيدِيِّ ظلمةً ... وبَردِ أعانيهِ وطولِ قُرونهِ
سَرَيتُ ونومِي فيهِ نومٌ مشرَّدٌ ... كَعقلِ سُليمانَ بنِ فَهْدٍ ودِينهِ
عَلى أوْلقٍ فيه التفاتٌ كَأَنَّهُ ... أَبُو جَابرٍ في خَبْطهِ وجُنونهِ
إلى أن بَدَا ضَوءُ النهارِ كأنهُ ... سَنَا وَجهِ قِرْواشٍ وضوءِ جبينه

وقال : إن هذه الابيات لها حكاية ، وذلك أن هذا الممدوح كان جالساً في ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء ، وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر ، كان البرقعيديّ مغنياً ، وسليمان بن فهد وزيراً ، وأبو جابر حاجباً فالتمس الممدوح من الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه .

قال المصنف عفا الله عنه : هذا الذي ذكره ابن الاثير قد أورده علماء علم البيان في باب الاستطراد هو به أمسّ وأليق .

(١) ابن الزملكاني هذا تصحيح منا اعتماداً على حفظنا ، وفي الاصل ابن الزمكلفة . . وقد أورد الابيات التنوخي في كتابه الاقصى القريب في باب التخلص والاقتضاب ولم يسم القائل .

القسم السابع والعشرون

في التطبيق

ويسمى المطابقة والطباق والتكافؤ والتضاد .

والكلام عليه من وجوه :

الاول : في حقيقته . الثاني : في اشتقاقه . الثالث : في أقسامه .

أما الاول : فقال علماء علم البيان هو أن يجمع في الكلام بين متضادين مع مراعاة التقابل بحيث لا يضم الاسم إلى الفعل ، ولا الفعل إلى الاسم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبكُوا كَثيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَتَحسَبُهم أيقَاظاً وَهُم رُقودٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ سَواءٌ مِنكُم مَن أسرَّ القَوْلَ ومَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُستخفٍ باللَّيلِ وَسَاربٌ بالنَّهارِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُم مَالِكَ المُلْكِ تؤْتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأنه هو أضحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ومثله في القرآن كثير . ومن ذلك في أشعار العرب ومخاطباتهم كثير . . فمن بديع أشعار العرب قول الحارث بن حلزة :

بأنّا نورِدُ الرَّاياتِ بيضاً ونُصدِرُهُنّ حُمراً قد رَوِينا

جمع في هذا البيت بين الطباق والمقابلة . . وأبدع منه قول بعض المتأخرين :

فأوردَها بيضاً ظِماءً صُدُورُها وأصدَرَها بالرِّيّ ألوانها حُمرُ

قال ابن الأثير : أجمع جماعة علماء من أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده ، كالبياض والسواد والليل والنهار ، وخالفهم في ذلك أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب فقال : المطابقة إيراد لفظتين متساويتين في البناء والصفة ، مختلفتين في المعنى ، وهذا الذي ذكره قدامة هو التجنيس بعينه غير أن الأسماء لا مشاحة فيها إلا إذا كانت مشتقة ، ولننظر نحن فيما حمله على ذلك . والذي حمل قدامة على ذلك ما اقتضاه اشتقاق لفظ الطباق وسنبينه .

وأما الثاني : فاشتقاق الطباق وأصله في اللغة من طابق البعير في سيره ، اذا وضع رجله موضع يده وهذا يقوي قول قدامة ، لأن اليد غير الرجل لا ضدها ، والموضع الذي يقعان فيه واحد ، فكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحداً . . وأما الجماعة فيحتمل أن يكونوا رأوا أن الرِّجل مخالفة لليد فراعوا المخالفة والضد مخالف للضد لا اجتماع لهما ، وهذا عين التضاد .

ويجوز أن يكون الجماعة سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة تسمية مرتجلة لا اشتقاق لها ولا مناسبة ، وهذا هو الظاهر من هذا الأمر إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم والصحيح هو الأول ، لأن بعضهم سماه التضاد وهذا دليل على مراعاة الاشتقاق واما الثالث : فقد قسم أرباب علم البيان الطباق إلى قسمين : لفظيٍّ ومعنويٍّ . أما اللفظي فهو على قسمين: الأول ما قدمناه. والثاني أن يجمع بين شيئين موافقين وبين ضديهما ، ثم إذا اشترطهما بشرط وجب أن يشترط ضديهما بضد ذلك الشرط كقوله تعالى : ﴿ فأما مَن أعْطَى

واتَّقى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى ﴾ الآية . فكما جعل التيسير لليسرى مشترطاً بالاعطاء والتقى والتصديق جعل ضده وهو العسر مشترطاً بأضداد تلك الامور ، وهي المنع وعدم الإتقاء والاستغناء والتكذيب . . وأما المعنوي فعلى قسمين . الاول : أن يزاوج بين عنيين في الشرط والجزاء كقول البحتري[1] .

والثاني : في النفي كقول البحتري أيضاً :

يُقيِّضُ لي من حيثُ لا أعلمُ النوَى ويسري إليَّ الشوقُ من حيثُ أعلم

ـ والطباق في القرآن كثير . . ومنه في السُّنّة قوله صلى الله عليه وسلم ـ عِلم الانساب علم لا ينفع ، وجهل لا يضر ـ وقوله صلى الله عليه وسلم في مدح الأنصار ـ « إنَّكُم لَتَقِلونَ عِنْدَ الطَمَعْ وَتَكْثُرونَ عِنْدَ الجَزَعْ » . .
ومن الطباق البديع قول الشاعر :

إنَّ هَـذَا الـرَّبيـعَ شيءٌ عجيبٌ تَضْحَكُ الارضُ مِن بُكاءِ السَمَاءِ

(١) بياض بالاصل .

القسم الثامن والعشرون

المقابلة . والكلام عليها من وجوه

الأول : في حقيقتها . الثاني : في اشتقاقها . الثالث : في أقسامها . الرابع : في الفرق بينها وبين الطباق .

أما الأول : فقال جماعة من العلماء بهذا الشأن المقابلَة ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخلفه في بعضها . . وقال بعضهم المقابلة أن تضع معاني تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو مخالفة فتأتي في الموافق بما وافق وفي المخالف بما خالف وتشترط شروطاً ، وتعدد أحوالا في أحد المعنيين ، فيجب أن تأتي في الثاني بما يوافقه بمثل ما شرطت وعدَّدت ، وفيما يخالفه بأضداد ذلك كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطَى واتَّقى وَصَدَّق بالحُسْنَى فسَنُيَسِّرُه لليُسْرى وَأَمَّا مَن بَخِلَ واسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُه لِلعُسْرَى ﴾ وكَقول الشاعر :

فيا عجباً كَيفَ اتفقْنا فَناصِحٌ　　وَفِيٌّ وَمَطْوِيٌّ عَلَى الغِلّ غَادِرُ

قال المصنف عفا الله عنه : قال الإمام فخر الدين رحمه الله هذا النوع في فصل الطباق وذكره الزنجاني في فصل المقابلة ، والذي اختاره العلماء المتقدمون في هذا الفن أن المقابلة ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها كما تقدم .

وأما الثاني : فالمقابلة مصدر من قابل الشيءُ الشيءَ يقابله مقابلة إذا واجهه ، وصار ماثلاً أمامه ، وهو من باب المفاعلة كالمضاربة والمقاتلة ، وأصله في الإجرام يقال : قابل الشخصُ الشخصَ ، والجبلُ الجبلَ إذا واجهه ، وناوحه ، إذا صار موازياً له ماثلاً أمامه ، ثم توسع فيه حتى استعمل في المعاني ، ولما وضع المؤلف الكلمة بإزاء الكلمة الأخرى ، والمعنى بإزاء المعنى الآخر حصلت المقابلة من جهة اللفظ تارة ، ومن جهة المعنى أخرى .

وأما الثالث : فأقسامها ثلاثة : مقابلة لفظية . وهي على قسمين ، وقد تقدم . ومقابلة معنوية . وهي على قسمين أيضاً . الأول أن يقابل معنىً بمعنىً مثل : ﴿ إنّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعرَى وأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ وجهُ المقابلة في هذه الآية أن ـ الجوع ـ هو خلوّ الباطن ـ والعُرْي ـ خلوّ الظاهر ـ والظمأ ـ احتراق الباطن ـ والضحى ـ إحتراق الظاهر . فقابل الخلو بالخلو ، والاحتراق بالإحتراق . والثاني أن يجيء في السلب كقول الفرزدق :

والثالث المقابلة الفاسدة ، وهو أن يقابل الشيء بما لا يوافقه ، ولا يخالفه كقول الكميت :

لعَمرِي لئن قلَّ الحصى في رِحالِكم بني نهشَلٍ مَا لُؤْمُكم بِقَلِيلُ

وقد رأين بها حُوراً منعَّمة بَيضاً تكامَل فيها الدَّلُّ والشنَبُ

ـ والشنب ـ لا يشاكل الدل . وهذان القسمان ذكرهما الزنجاني في تكملته . والمقابلة قريب من الطباق للمشابهة من بعض الوجوه ، والمخالفة من وجهين نذكرهما بعد هذا القسم .

وأما الرابع : فالفرق بين المقابلة والطباق من وجهين . الأول أن

الطباق لا يكون إلا ضدين غالباً مثل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذي يُميتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ﴾ وأشباه ذلك . والمقابلة تكون غالباً بالجمع من أربعة أضداد . ضدين في أصل الكلام . وضدين في عجزه . وتبلغ إلى الجمع من عشرة أضداد . خمسة في الصدر . وخمسة في العجز . . الثاني لا يكون الطباق إلا بالاضداد ، والمقابلة تكون بالاضداد وغيرها . وقد ورد في أشعار العرب والمتأخرين أبيات كثيرة يتضمن البيت منها مقابلتين وطباقين . . فمن ذلك قول الحارث بن حلزة .

بانّا نوردُ الرَّاياتِ بيضاً ونُصدِرُهنّ حُمراً قد رَوينا

ـ ومن ذلك قول بعض المتأخرين :

فأوْرَدها بيضاً ظماءً صدوُرها وأصدَرَها بالرِّي ألوانها حُمرُ

ـ قال ابن الاثير في جامعه ان الطباق أحد أنواع المقابلة لأنه لا يخلو الحال في ذلك من ثلاثة أقسام . اما أن يقابل الشيء بضده أو بغيره أو بمثله ، وليس لنا قسم رابع . فأما الاول وهو مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض ، وما أشبه ذلك كقوله تعالى : ﴿ فَلَيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلِيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ ألا ترى إلى صحة هذه المقابلة البديعة حيث قابل الضحك بالبكاء ، والقليل بالكثير . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لِكَيلاَ تَأسُوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ وهذا أحسن ما يجيء في هذا الباب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ خير المال عين ساهرة لعين نائمة ـ ومن هذا قول بعضهم في السحاب :

ولهُ بلا حُزنٍ ولا فرَحٍ ضحكٌ يُراوح بينه وبكا

فقابل الضحك بالبكاء والحزن بالسرور في بيت واحد الاّ أن في

ذلك نظراً من حيث ترتيب التفسير ، لا من حيث المقابلة ، لأن ترتيب التفسير يقتضي أن كان قال ـ بلا حزن ولا مسرّة بكاء يراوح بينه وضحك ـ وهذا لا كبير عيب فيه . وإنما الأوْلى والأليق ما أشرنا إليه فاعرفه . . وقال آخر :

فلا الجودُ يُفنى المالَ والجَدُّ مقبلٌ ولا البُخل يُبْقِي المَالَ والجَدّ مُدْبرُ

ـ ومثله قوله البحتري :

وأمة كأن قبحُ الجَورِ يُسْخِطَها دَهْراً فأصبَحَ حُسنُ العدلِ يُرضيها

فقابل القبح بالحسن ، والجور بالعَدل ، والسخط بالرضا وذلك بديع في بابه فاعرفه . وأما القسم الثاني وهو مقابلة الشيءِ بغيره فهو ضربان . أحدهما ما كان بين المقابل والمقابل له مناسبة وتقارب كقول بعضهم :

يجزون مِنْ ظلم أهل الظلم مغفرةً وَمِنْ إسَاءَةِ أهْلِ السُوءِ إحسَاناً

والظلم ليس ضد المغفرة ، وانما هو ضد العدل ، الاّ أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل مناسبة له حسنت المقابلة بينها وبين الظلم ، وأمثال هذا كثير . وأما القسم الثاني أن يقابل الشيءُ بالشيءِ وبينهما بُعدٌ ولا يناسبه بحال من الأحوال . أقول وذلك لا يحسن استعماله في التأليف . . ومما جاء منه قول بعضهم :

أم هَلْ ظعائنُ بالعلياءِ رافعةً وان تكامل منها الدَّل والشنب

فإن ذلك غير مناسب لأنه إنما كان يحسن أن يكون مع الدل الغنج ، أو ما قاربه ، ومع الشنب اللعس ، أو ما يجري مجراه من أوصاف الثغر والفم . وأما الثالث فهو أن يقابل الشيءُ بمثله وهو ضربان . أحدهما التقابل في اللفظ والمعنى . والآخر التقابل في المعنى دون اللفظ ، وأما التقابل في اللفظ والمعنى فكقوله تعالى : ﴿ ومَكرُوا مَكراً ومَكَرنا مَكراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَنسوا الله فَنسيَهمْ ﴾ . وأما

التقابل في المعنى دون اللفظ فهي مقابلة الجملة لمثالها مستقبلة كانت أو ماضية ، فإن كانت ماضية قوبلت بالماضية ، وان كانت مستقبلة قوبلت بالمستقبلة ، وربما قوبل الماضي بالمستقبـل ، والمستقبل بـالماضي ، وذلك إذا كان أحدهما فى معنى الآخر . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهتَدَيتُ فَبِمَا يُوحِي إلَيَّ رَبِي ﴾ فإن هذا تقابل من جهة المعنى ، ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال : وإن اهتديت فإنما اهتديت لها . . وبيان مقابل هذا الكلام من جهـة المعنى أن النفس كلما هو عليها فهو بها أعني أن كل ما هو وبالٌ عليها وضار لها ، فهو بسببها ، ومنها لأنها أمَّارة بالسوءِ ، وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها ، وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبصراً إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقومٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه لم يراع التقابل في قوله ـ ليسكنوا فيه فيه . ومبصراً ـ لأن القياس يقتضي أن يكون والنهار ليبصروا فيه ، وإنما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، وهكذا النظم المطبوع الغير المتكلف ، لأن معنى قوله مبصراً ليبصروا فيه طُرق التقلب في الحاجات .

ومن مقابلة الشيء بمثله أنه إذا ذكر المؤلف ألفاظاً تقتضي جواباً فالمرضي عندنا أن يأتي بتلك الألفاظ في الجواب من غير عدول عنها إلى غيرها ، مما هو في معناها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيئةٍ سَيئةٌ مِثلُهَا ﴾ ومما عيب في هذا الباب قول بعضهم من اقترف ذنباً عامداً أو اكتسب جرماً قاصداً لزمه ما جناه وحاق به ما توخاه . والأليق إن كان قال لزمه ما اقترف وحاق به ما اكتسب ليكون أحسن طباقاً ، وإن كان ذلك جائزاً في الكلام من حيث أن معناه صواباً لكنه عدول عن الأليق ،

والاولى في هذا الباب وأمثاله كثيرة فاعرفها . . واعلم ان في تقابل المعاني باباً عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر وتدبر ، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور ، وبالإعجاز من أبيات الشعر . . فمما جاء من ذلك قوله تعالى في حق المنافقين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ألا ترى كيف فصل الآية الأخيرة بيعلمون ، والآية التي قبلها بيشعرون ، وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة والعلم ، ولذلك قال ـ ولكن لا يشعرون ـ وأما النفاق وما فيه من المعنى المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيويٌّ مبنيٌّ على العادات معلوم عند الناس ، خصوصاً عند العرب ، وما كان فيهم من التجارب والتعاون فهو كالمحسوس عندهم ، فلذلك قال ـ يعلمون ـ وأيضاً فإنه لما ذكر السفه في الآية الأخيرة ، وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقا فقال ـ لا يعلمون ـ وآيات القرآن العظيم جميعها فصلت هكذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ . وقوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ . وكقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ والفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أن تَقَعَ عَلى الأرض إلَّا بإذْنِهِ إنّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ فإنه إنما فصلت الآية بلطيف خبير ، لأن ذلك في موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث ، وإخراج النبات من الأرض ، ولأنه خبير بمنفعتهم ومضرتهم في انزال الغيث وغيره . وأما الآية الثانية فإنما فصلت بغني حميد لأنه له ما في السموات ، وما في الأرض ، فعرف الناس أن جميع ما في السموات وما في الأرض له لا لحاجة ، بل غني عنها جواد بها لأنّ ليس غنيٌّ نافعاً

بغناه إلّا إذا كان جواداً منعما ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليه ، واستحق عليه الحمد فذكر ـ الحميد ـ ليدل على أنه الغني النافع بغناه خلقه .

وأما الآية الثالثة فإنها فصلت ـ برؤف رحيم ـ لأنه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض لهم واجراء الفلك في البحر لهم وتسييرهم في ذلك الهول العظيم ، وجعله السماء فوقهم وامساكه اياها عن الوقوع حسن أن يفصل ذلك بقوله ـ رؤوف رحيم .

القسم التاسع والعشرون

الاحتراس

وهو أن يذكر لفظاً ظاهره الدعاء بالخير والنفع ، وذلك بما في ضمنه مما يوهم الشر ، فيذكر فيه كلمة تزيل ذلك الوهم ، وتدفع ذلك الوهن مثل قوله تعالى : ﴿ يُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ وكان في العادة أن من تكلم في المهد لا يعيش ولا يتمادى به العمر ، فحصل الاحتراس بقوله تعالى ـ وكهلا ـ يريد أنه ليس يموت عاجلا كأمثاله ممن تكلم في المهد بل يعيش الى أن يبلغ الكهولة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأدخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أزال بقوله ـ من غير سوء ـ توهم أن بياض اليد من برص وغيره . . وقد ورد في أشعار العرب من هذا كثير . من ذلك قول بعضهم :

فَسَقَا دِيَارَكِ غَيرَ مُفسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تهمِي

فاحترس بقوله ـ غير مفسدها ـ لأن تكرار الماء على الديار مما يوجب الدمار . . وقال آخر :

ألَا فَاسْلَمي يَا دَارَ مي عَلَى البِلا ... وَلَا زَالَ مُهلاً بِجُرْعَائِكَ القَطْرُ

فاحترس بقوله ـ ألا فاسلِمي ـ ومثله في القرآن والشعر كثير .

القسم الموفي ثلاثين

الاختصاص

وهو عند الأصوليين التخصيص ، واختلفت فيه عبارات أهل العلم .. فقال بعضهم : هو اخراج صورة من حكم كان يقتضيها الخطاب به ، لولا التخصيص ، وهو شبيه بالنسخ من حيث اشتراكهما في اللبس ، ومن حيث أن كل واحد منهما يقتضي اختصاص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ إلا أنهما يفترقان من وجوه خمسة :

الأول أن الناسخ أبداً لا يكون إلا متأخراً عن المنسوخ ، كذا وقع في جميع ما نسخ من الكتاب والسنة إلا في آيتين . احداهما قوله تعالى : ﴿ مَتَاعاً إلى الحَولِ غَيرَ إخراجٍ ﴾ فإنها منسوخة بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتوَفون مِنكُم وَيَذَرُونَ أزوَاجاً يَتَربَّصن بأنْفُسِهنَّ أَرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ وهذا على خلاف الأصل ، وقد يعتذر عن هذا بأن آية الحَوَل إنما نسخت بالسنة ، لكن لا يتأتى هذا إلاّ على قول من يقول إن السنة تنسخ الكتاب .

وأما على قول انها لا تنسخه فلا يتأتى هذا . وقد يقال إن آية الحول نزلت قبل آية الأشهر ولكن آية الأشهر أثبتت في الصحف قبلها ، فكان آية الحول متقدمة في النزول متأخرة في التلاوة .

الثاني : إن النسخ لا يكون الاّ بخطاب رفع به حكم الخطاب

الأول والتخصيص قد يقع بقول وفعل وقياس وغير ذلك .

الثالث : أن نسخ الشيء لا يكون الاّ بما هو مثله في القوة ، أو بما هو أقوى منه في الرتبة والتخصيص جائز بما هو دون المخصوص في الرتبة .

الرابع : أن التخصيص لا يقع في حكم واحد والنسخ جائز في مثله لا سيما على أصل من يبني نسخ الشيء قبل وقته .

الخامس : ان التخصيص ما أخرج من الخطاب ما لم يرد به ، والنسخ رافع ما أريد اثبات حكمه . والذي اعتمد عليه المحققون أن التخصيص اخراج بعض ما تناوله اللفظ العام ، أو ما يقوم مقامه بدليل منفصل في الزمان إن كان المخصص لفظياً ، أو بالحس إن كان عقلياً قبل تقرير حكمه . فقولنا ـ أو ما يقوم مقامه ـ احتراز من المفهوم فإنه يدخله التخصيص . وقولنا ـ بالزمان ـ احتراز من المستثنى من الاستثناء .

وقولنا ـ بالحس ـ لأن العقلي المخصص مقارن . وقولنا ـ قبل تقرير حكمه ـ احتراز من أن يعمل بالعام فإن الإخراج بعد هذا يكون نسخاً . . والتخصيص يسميه أرباب علم البيان الاختصاص عندهم ، ولا يحسن إلاّ أن يكون اختصاص الشيء بمعنىً ظاهر مثل قوله تعالى : ﴿ وإنّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ اختصها دون سائر النجوم لأنها عُبدَت . وقيل ان النجوم تقطع السماء طولاً وهي تقطعها عرضاً . وقيل لأن المنجمين بطلوعها يتكلمون على المغيبات وما يحدثه الله في ملكه من الكائنات وينسبون ذلك الى طلوعها وإن هذه الحادثات في كل عام من تأثيرها ، فرد الله ذلك عليهم بإعلامنا بأنها مدبرة بتدبيره ، مقدرة بتقديره متصرفة بمشيئته إذ هو ربها وربّ كل شيء ، وهو على كل شيء قدير . . ومن هذا النمط قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ ﴾ وهذا لا يتأتى إلا على قول من

يقول : أن الرمان والرطب فاكهة . وأما على قول من يقول أنهما ليسا من الفاكهة ، فلا يكون من هذا النوع . . ومن ذلك قوله : ﴿ مَن كَانَ عدُوًّا للهِ وَمَلاَئِكَتِهِ ورُسله وَجبريلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عدُوٌّ لِلكَافِرِينَ ﴾ أعاد الله ذكر جبريل وميكال مع أنهما من الملائكة بلا خلاف لخصوصية فيهما إما لأمر اختص بعلمه بهما اقتضى تخصيصهما ، أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه ، وميكال أمينه على خزائن فتحه ورحمته . وفي أشعار العرب كثير من ذلك نحو قول الخنساء أخت صخر :

يُـذَكِّرْنِي طُلوعَ الشَمسِ صَخْـراً ... وأنـدُبُـهُ لِكُـلِّ غُـرُوبِ شَمْسِ

وإنما خصت هذين الوقتين لأن طلوع الشمس يذكرها بغارته على أعدائه وغروبها يذكرها باقرائه ضيفانه ، فاختصت لهذين الوقتين من بين سائر الاوقات لهذين المعنيين . وعبارات التخصيص ثلاثة : الأولى : إنما جاءني زيد . الثانية : جاءني زيد لا عمرو . والثالثة : ما جاءني إلاّ زيد . فيفهم من الأولى تخصيص مطلق المجيء أو تخصيص مجيء معين ظنه المخاطب مخصوصاً بغيره ، أو مشاركا غيره فيه فأفاد اثباته لزيد ونفيه عن غيره دفعة واحدة ، ومن الثانية في دفعتين والثالثة بأصل الوضع تفيد نفي التشريك ، ولهذا لا يصح ما زيد إلاّ قائم لا قاعد لأنك بقولك ـ إلا قائم ـ نفيت عنه كل صفة تنافي القيام فيندرج فيه نفي القعود فيقع ـ لا قاعد ـ تكراراً ويصح إنما زيد قائم لا قاعد فإن صيغة ـ إنما ـ موضوعة للتخصيص ويلزمه نفي الشركة ، فليس له من القوة ما يدل عليه بالوضع ، ولهذا يصح زيد هو الجائي لا عمرو فدلالة الأولين على التخصيص أقوى ، ودلالة الثالثة على نفي التشريك ، وقد تذكر الثالثة في مثل ما إذا ادعى واحد أنك قلت قولاً ، ثم قلت بخلافه فتقول ما قلت إلاّ ما قلته قبل . وعليه قوله تعالى : حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُم إلاَ مَا أمَرْتَنِي بِهِ ﴾ ليس المعنى أني لم أزد

على ما أمرتني به أن أقوله شيئاً ، ولكن المعنى أني لم أدع مما أمرتني به أن أقوله شيئاً ، ولم يذكر ما يخالفه . . وحكم ـ غير ـ إذا وقع موقع ـ إلاّ ـ حكمُ الاّ . . وأما ـ انما ـ فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر ، فإذا قلت إنما ضرب عمراً زيد ، فالاختصاص في الضارب كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ وإذا قلتَ إنما ضرب زيد عمراً فالاختصاص في المضروب ، وإذا قلت إنما هذا لك فالاختصاص في ـ لك ـ بدليل أنك تقول بعده لا لغيرك وإذا قلت إنما لك هذا فالاختصاص في ـ هذا ـ بدليل أنك تقول بعده لا ذاك .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ ﴾ فإذا وقع بعدَها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعل لا يصح إلا من المذكور كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَاب ﴾ . . وقد يجمع معها حرف النفي إما متأخراً . كقولك إنما جاءني زيد لا عمرو ، وإما متقدماً كقولك ما جاءني زيد ، وإنما جاءني عمرو . فهناك لو لم تدخل ـ إنما ـ كان الكلام مع من ظن أيهما جاءك ، وإن أدخلها كان الكلام مع من غلط في الجائي ، ولو قلت إن عمراً جاءني فإن كانت المستغنى عنها فظهرت فائدة دخول ـ ما ـ على ـ إنّ ـ في ـ انما ـ . . واعلم أن موضوع ـ انما ـ أن يجيء في أمر لا يدفع المخاطب صحته كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أو ينزل بعده منزلته كقول الشاعر :

إنمَا مَصعبٌ شِهابٌ من اللهِ ... تجلّتْ عَن وجههِ الظَّلماءُ

فادعى كونه بهذه الصفة مما لا ينكره أحد . ومثله قوله تعالى حكاية عن اليهود : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرض قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصلِحُونَ ﴾ الذي يدعون انهم مصلحون أمر ظاهر معلوم ، فلذلك أكد الأمر في الرد عليهم فجمع فيه بين ـ ألا ـ التي هي للتنبيه و ـ إن ـ التي هي للتحقيق ـ وهم ـ التي هي للتأكيد فقال : ﴿ أَلاَ

إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ ﴾ . . وقال ابن الاثير وهم يرون بالتخصيص في أعمال العام في النفي والخاص في الاثبات مثال ذلك : الحيوانية والانسانية ، فإن اثبات الانسانية يوجب اثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية ، وكذلك نفي الحيوانية يوجب نفي الانسانية ، ولا يجب من اثباتها اثبات الانسانية . . ومما يدخل في هذا الباب الأسماء المفردة الواقعة على الجنس الذي يكون الفرق بينها وبين واحدها تاء التأنيث ، فإنه متى أريد النفي كان استعمال واحدها أبلغ ، ومتى أريد الإثبات كان استعمالها في الجنس أبلغ . فالأول هو الخاص والعام نحو قوله تعالى : ﴿ مَثلُهُم كَمثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل بضوئهم ، لأن ذكر النور في حالة النفي أبلغ من حيث أن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة ، فلو قال ذهب الله بضوئهم كان المعنى يعطي نفي تلك الزيادة ، وبقاء ما يسمى نوراً ، لأن الإضاءة هي فرط الإنارة دليله قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْس ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً ﴾ فكل ضوء نور ، وليس كل نور ضوأً . والغرض من قوله ـ ذهب الله بنورهم ـ إنما هو ازالة النور عنهم رأساً فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء . وكذلك قوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل أذهب الله نورهم لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به ، لأن الذهاب بالشيء هو استصحابٌ له ومضى به ، وفي ذلك نوع احتياز للمذهوب به ، وإمساك له عن الرجوع الى حالته ، والعود إلى مكانه ، وليس كذلك الإذهاب للشيء لزوال معنى الاحتياز ، وهذا كلام دقيق يحتاج إلى زيادة تأمل وإنعام نظر ، فافهمه وقس عليه ما أشبهه ، وبالله التوفيق .

القسم الحادي والثلاثون

الاختراع

قال علماء علم البيان . . الاختراع هو أن يذكر المؤلف معنًى لم يسبق إليه ، واشتقاقه من التليين والتسهيل يقال : بنت خَرِعُ إذا كان ليناً فكأن المتكلم سهل طريقه حتى أخرجه من العدم الى الوجود . ومنه في القرآن كثير . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ إنّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخلُقوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسلبْهُم الذّباب شيئاً لَا يستنقذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَالِبُ وَالمَطْلُوبُ ﴾ ولم يُسمع بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن ، ولو سُمع لكان القرآن سابقاً ، ولا يكون مثله ، ولا قريباً منه ، وكذلك جميع أمثال القرآن ، ليس لها أمثال . . ومثال ذلك من السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسم : « حَمِيَ الوَطِيسُ » - فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من تكلم بهذا حين قدَّم المسلمون خالد بن الوليد في غزوة مؤتة ، حين حمل خالد في العدوّ - والوطيس - هو التنور فعبر بشدة حميه ووقوده عن شدة الحرب واتقادها ، واتقاد نارها حين حمل خالد بن الوليد رضي الله عنه . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « السَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ » . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أما بعد - ومثل هذه الكلمات في السنة كثير ، وليس هذا موضع إحصائها ولا محل استقصائها .

القسم الثاني والثلاثون

الهدم

وهو أن يأتي غيرك بكلام تضمن معنىً ، فتأتي أنت بضده ، فكأنه قد هدم ما بناه المتكلم الأول كقول أبي تمام :

وبروحيَ القمر الـذي بمحَجَّرٍ أضحى مَصوناً للنـوَى مَبذولاً

هدمه بعض الشعراء فقال :

وبروحي القَمرَ الـذي لم يُبتَـذَلْ بلْ حَلَّ وَسطَ القلبِ لا بمحَجَّرِ

ـ وقال البلاذِريُّ :

وقـد يَرفعُ المرءُ اللئيمُ حِجـابَـهُ ضِعـةً ودُونَ العُرْفِ منه حِجابُ

هدمه الآخر فقال :

مَـلكٌ أغـرُّ مـحـجَّـبٌ مَـعـرُوفُـهُ لا يـحـجَـبُ

ومنه في كتاب الله العزيز كثير . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ هدمه الله تعالى بقوله : ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن

إلَهٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فلِمَ يُعَذِّبُكم بذُنوبكم ﴾ تقديره إن كنتم فيما ادعيتم صادقين ، فلم يعذبكم بذنوبكم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابنُ الله ﴾ هدمه الله عليهم بقوله : ﴿ ذَلِكَ قولُهُم بأَفْواهِهِمْ ﴾ . وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ إذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ هدمه الله بقوله : ﴿ وَاللهُ يَشهَدُ إنّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .. ومثله في القرآن الكريم كثير ، وفي الشعر هو كثير أيضاً :

القسم الثالث والثلاثون

الاستفهام

وهو على قسمين : استفهام العالم بالشيء مع علمه به . ومراده بذلك معان ستة .

الأول : التقرير ومرادك باستفهامك عن ذلك الشيء أن يقربه الفاعل كقوله تعالى حكاية عن قوم نمروذ : ﴿ أأنتَ فَعَلتَ هَذَا بآلِهتنا يَا ابْراهِيمُ ﴾ ولا شبهة أنه ليس غرضهم أن يقر لهم بوجود كسر الاصنام ، ولكن غرضهم أن يقرّ بأن ذلك منه لا من غيره .

الثاني : يراد به الإنكار وهو كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُم رَبّكُم بِالبَنينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ آصْطَفَى البَنَاتِ عَلى البَنِينَ ﴾ والانكار هاهنا في نفس الفعل أنكر الله عليهم كونهم جعلوا الملائكة إناثا ، وقالوا هم بنات الله تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيراً .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ اللهُ أذِنَ لَكُم أَمْ عَلى اللهِ تَفتَرُونَ ﴾ المقصود إنكار أصل الإذن لا انكار إنه كان من غير الله ، وأضافوه إلى الله . وكذلك قوله تعالى : ﴿ آلذكَرَينِ حَرَّمَ أم الأنثيين ﴾ تقديره لو وجدتم التحريم لكان محرماً ، إما ذا أو ذاك ، ثم يستدل ببطلان الأصلين على بطلان القسمين على بطلان أصل التحريم . ومثله قولك للرجل

الذي يدعى أمراً وأنت تنكره ـ متى كان هذا أفي ليل أم نهار ـ وتقديره لو كان لكان إما في ليل ، وإما في نهار ، ولما لم يوجد فيهما ثبت أنه ليس بموجود أصلاً . فكذلك تقول في الآية فانهـا نفي لأصل الإذن لنفي أقسامه ، وذلك أبلغ في النفي . وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَنُلزِمُكُمُـوهَا وَأَنتُم لَهَا كَارِهُونَ ﴾ حصل الانكار هاهنا بنفس الالزام . . وكذلك قول الشاعر :

* أتقتُلني والمَشْرَفيّ مُضاجِعي *

واعلـم أن الاستفهـام بمعنـى الانـكار حاصلـه راجـع إلى تثبيت السامع على فساد ذلك الشيء حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل ويرتد عنه ، فعلى هذا لا يتصور الاّ بالمحال على سبيل أن يقال له ـ أنت في دعواك كمن يدعي المحال ـ وعلى هذا جعل قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ ﴾ وليس اسماع الاسم مما يدعيه أحد فيكون لذلـك الانكار ، وإنما المعنى فيه تنزيل من يحاول اسماعهم منزلة من يحاول اسماع الصم ، وإنما قدم الاسـم في هذه الآية ولم يقل ـ أفتُسمع الصم ـ لمعنىً وهو اختصاصه صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى قال له صلى الله عليه وسلم : أنت خصوصاً تظن أنك تقدر على اسماعهم ، فتكون بمنزلة من ظن أن لنفسه قدرة على اسماع الصم . . واعلم أن حال المفعول في ذلك كحال الفاعل فاذا قدَّمتَ المفعول توجه الانكار إلى كونه بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل فإذا قلتَ ـ أزيداً تضرب كان على هذا الحكم ولهذا قدّم ـ غير ـ في قوله تعالى : ﴿ قلْ أَغَيرَ اللهِ أتخذُ وَليًّا ﴾ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ﴾ وقد تقدم بيانه فانهم بنوا كفرهم على أن البشر ليس بمثابة أن يتبع ويطاع . . واعلم أن صيغة المستقبل إما أن يكون الاسم مقدماً أو الفعل فإن كان الإسم مقدماً اقتضى شبيهاً بما اقتضاه في الماضي بمطالبته من الاقرار بكونه فاعلا فالانكار لذلك .

فمثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمونَ رَحْمَةَ رَبّكَ ﴾ .

الثالث : الاستفهام للمبالغة في الاستحقار مثل قولك للرجل تستحقره ـ أنت تمنعني أنت تضربني ـ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أغيرَ اللهِ أتخذ وليًّا ﴾ .

الرابع : يأتي للمبالغة في التعظيم كقولك ـ أهو يسأل الله أهو يمنعهم حقوقهم ـ ومنه قوله تعالى : ﴿ أمَّن جَعَل الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ إلى قوله : ﴿ أإلَهٌ مَعَ اللهِ ﴾ .

الخامس : يأتي للمبالغة في بيان الخساسة كقولك ـ أهو يسمع لهذا أو يرتاح إلى الجميل ـ ومنه قوله تعالى : ﴿ أفتعبُدُون مِن دُون اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُم شَيئاً وَلَا يَضُرُّكُم أفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ أفلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

السادس : يؤتى بالاستفهام ليقع في النفس عذوبة المستفهم عنه ، واستحلاؤه كقول الشاعر :

أيا ظبيةَ الوعثاءِ بين جُلاجلٍ وبين النقا أأنتِ أم أمُّ سالمِ

تقديره أأنت الظبية أم أمّ سالم . أتى بالاستفهام هاهنا ليوقع في النفس موقعاً عظيما من الحسن ، وبديع المحاسن حتى يشكل حالها كمثل محاسنها ، فيبقى عند ناظرها من ذلك تخييل لا يفرق بسببه بينها وبين الظبية . وهذا النوع يسمى عند أرباب الصناعة **التجاهل** :

ـ ومن بديع التجاهل قول مهيار الديلمي :

أأنتِ أمرْتِ البدْرَ أنْ يَصدَعَ الدُّجى وعلّمتِ غصنَ البانِ أنْ يتميّلَا

ـ ومن بديعه أيضاً قول الآخر :

وعُـقـارٍ عـيشُ مَـن عَـاقَـرَهـا عَـيشٌ أنِـيـقُ
هـيَ للزَّهوِ نِـظامٌ وإلـى الـلَّهْوِ طَـريـقُ
قُـلتُ لـمّـا لاَحَ لـي مِـنْـهَـا شُـعـاعٌ وبَـريـقُ
أشَـقِـيـقٌ أمْ عَـقـيـقٌ أمْ رَحـيـقٌ أمْ حَـرِيـقُ

ـ وأما القسم الثاني من الاستفهام ، فهو أن يستفهم عن شيء لم يتقدم له به علم حتى يحصل له به علم . ومنه في القرآن العظيم وفي الشعر كثير ، وهذا هو أصل الباب .

القسم الرابع والثلاثون

المزلزل

وهو أن يكون في الكلام لفظة لو غيّر وضعها أو إعرابها تغيرَ المعنى . ومنه في القرآن العظيم كثير . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لو كسرت الكاف لتغير المعنى . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ لو ضُمّت لاختل المعنى . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيلٌ يومَئِذٍ لِلمُكَذّبينَ ﴾ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاذِ آبتلَى ابراهيمَ رَبُّه ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ لو غير اعراب ابراهيم واعراب العلماء لاختل المعنى . . ومنه في الشعر قول الوطواط :

رَسُولُ اللهِ كَذّبَهُ الأعادي ... فَوَيلٌ ثم وَيلٌ للمكَذّبْ

إن كسرت ذال المكذب ، كان حسناً ، وإن فتحت كان قبيحاً وكفراً . . ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِينَ ﴾ نفتح الذال ولو كسرت الذال كان قبيحاً وكفراً .

القسم الخامس والثلاثون

التعجب

ومنه في القرآن العظيم كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلى النَّارِ ﴾ - ما - هاهنا تعجبٌ والتقدير تعجبوا من صبرهم على النار ، وقيل هي الاستفهامية والتقدير فأيّ شيء صبَّرهم على النار . . ومن التعجب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمُ ﴾ والخلاف فيها كالخلاف في الأولى . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ أي ما أشد كفره . ومثله في القرآن كثير . . ومنه في الشعر قول بعضهم :

أيا شمْعاً يُضيءُ بِلا انطِفاءٍ ... ويا بَدْراً يَلوحُ بِلا مَحاقِ
فأنتَ البدْرُ ما سببُ انتقاصي ... وأنتَ الشمْعُ ما سببُ احتراقي

القسم السادس والثلاثون

السلب والايجاب

قال علماء علم البيان : هو أن يوقِعَ الكلام على اثبات شيء ، وينفيه في كلام واحد وخطبة واحدة أو بيت واحد . وهو في القـرآن العظيم كثير . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هو يُجيرُ ولا يجارُ عليه ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾ . . ومنه في الشعر قول السموءَل ابن عادياء اليهودي :

وتُنكِرُ إنْ شئنا على الناسِ قولَهمْ ... ولا يُنكِـرُونَ القَوْلَ حين نقـولُ

القسم السابع والثلاثون

الهزل الذي يراد به الجِد

وهو في القرآن العظيم في قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذينَ آمنوا مِنَ الكُفّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ روي أن أهل الجنة يُفتح لهم باب من النار فيقولون لمن كان يضحك منهم في الدنيا من الكفار أتدخلون الجنة فيقولـون نعم ، فيقولون لهم هلموا فيتبادرون إلى الجنـة فيغلق الباب دونهم ، ويضحك منهم المؤمنون ، ويردون خائبين وليس مراد المؤمنين بذلك القـول الضحك منهم وإنمـا مرادهم بـذلك تبكيتهم وتشـديـد الحـزن عليهم . . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنْ تَسخَرُوا مِنّا فَإنّا نَسْخَرُ مِنْكُم ﴾ يعني يوم القيامة . . ومنه في السنة قوله صلى الله عليه وسلم للعجوز التي سألته عن دخولها الجنة فقال : « لا يدخل الجنةعجوز » هزل بها وصدق وقال حقاً فإن الله تعالى أخبر عن أهل الجنـة فقال : ﴿ عُـرُباً أتـراباً لأصحابِ اليمِين ﴾ وتِرْب الانسان مساويه في العمر أو مقاربه . . ومنه في الشعر قوله :

اذا مـــا تميميٌّ أتــاكَ مُفــاخــراً فقلْ عِدّ عن ذا كيف أكلُك للضبِّ

ـ وأما قوله صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن ، وهو الجد ليس بالهزل فالمراد به الهزل الذي لا يراد به الجد .

القسم الثامن والثلاثون

التلميح

وهو أن يشير في فحوى الخطاب إلى مثلٍ سائر ، أو شعر نادر ، أو قصة مشهورة من غير أن يذكره كقول بشار بن عدي :

اليـوْمَ خمرٌ ويبـدو في غدٍ خَبـرٌ والـدَّهـرُ مـا بين إنعـام وإبـآس

أشار به الى قول امرىء القيس ـ اليوم خمرٌ وغدا أمرٌ ـ حين بلغه قتل أخيه[1] وهو يشرب فصار مثلا . . وكقول أبي بكر الخوارزمي :

كـأنـكِ لا تـروين بيتـاً لشـاعـرٍ سِوَى بيتِ مَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَم

ـ وكقول أبي فراس :

ولا خيـرَ في دَفعِ الأذى بمـذلَّةٍ كمـا رَدَّها يـوماً بسـوْءَتـهَ عمـرو

أشار بذلك إلى قصة عمرو بن العاص مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . . وقد يسمى أخذ بعض ألفاظ المثل اقتباساً ،

(١) ليس هو من قول امرىء القيس ، وإنما هو من قول مهلهل حين بلغه قتل جساس أخاه كليباً . وامرؤ القيس لم يقتل له أخ فإن كان قاله حين بلغه قتل بني أسد أباه حجراً فربما اهـ ، كتبه محمد بدر الدين .

وإيراد المثل كما هو تضميناً . . ومما جاء من التلميح في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر أخا عَادٍ إذْ أنذَرَ قَومهُ بالأحقاف ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَا بُعداً لمدينَ كما بَعِدَتْ ثمود ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ صَاعِقَةً مثلَ صاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ ﴾ الآية . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْت إذْ قالَ لِبَنِيهِ مَا تَعبُدُون مِن بَعدي ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإنَّمَا همُ في شِقَاقٍ ﴾ . ثم قال : ﴿ صِبغَةَ الله ومَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ صِبغةً ﴾ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُذُرِ الأُولَى أزِفتِ الآزِفة ﴾ ثم قال : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفةٌ ﴾ . . ومثله في القرآن كثير .

القسم التاسع والثلاثون

النسخ والسلخ والمسخ

فأما النسخ ففي القرآن العظيم كثير . وهو على ثلاثة أقسام : منه ما نسخ لفظه وحكمه . ومنه ما نسخ لفظه وبقي حكمه . ومنه ما نسخ حكمه وبقي لفظه . . أما ما نسخ لفظه وحكمه ، فقد روي عن قتادة وغيره قالوا : كنّا نقرأ سورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الشيخ والشيخة إذا زنيا فرجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ـ وقالوا كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لو أعطي ابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ـ . . وأما ما نسخ حكمه وبقي لفظه ففي القرآن العظيم منه كثير . . وأما السلخ والمسخ ، فليس في القرآن العظيم منهما شيء لأنه لم يسبق قبله كلام فيسلخ منه ، ولم يتقدم معانيه فيقصر عنها فيمسخ لأنه الكلام القديم الذي لم يشبهه كلام ، ولم يتقدم عليه نثر ولا نظام ، وسنذكر في القسم الذي ليس في القرآن منه شيء ما قاله أهل هذه الصناعة في السلخ والمسخ ، إن شاء الله تعالى .

القسم الاربعون

التعديد . ويسمى أيضاً سياق الاعداد

هو ايقاع أسماء مفردة على سياق واحد ، فإن روعي في ذلك ازدواج أو لزوم تجنيس أو مطابقة أو نحوها ، فذلك الغاية في الحسن كقولهم وضعنا في يده زمام الحل والعقد . والقبول والرد . والامر والنهي . والاثبات والنفي . والبسط والقبض . والابرام والنقض ، والهدم والبناء . والمنع والعطاء . . ومنه قول المتنبي :

الخيلُ والليلُ والبيْداءُ تعرفني والحربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلم

ومنه في القرآن كثير . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكبِّرُ ﴾ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأنّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهَى وَأَنَّهُ أضحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أماتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَوجين الذَّكَرَ والأُنثى من نُطْفَةٍ إذا تُمنى وَأنَّ عَلَيهِ النشأَةَ الأُخْرَى وأنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِعرى وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولَى وَثمُودَ فَمَا أَبْقَى وقَوم نُوحٍ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُم كَانُوا هُم أَظْلَم وَأَطْغَى ﴾ . . ومنه قوله : ﴿ وَاللهُ يَقْبِضُ ويَبسطُ ﴾ .

القسم الحادي والأربعون

المُوَجَّهُ

وهو أن يمدح بشيء يقتضي المدح لشيءٍ آخر كقول المتنبي :

نهبتَ من الأعمار مَا لَو حويتَهُ لهنئتِ الدّنيا بِأنّكَ خالِدُ

أول البيت مدح بفرط الشجاعة وآخره بعلوّ الدرجة . وفي القرآن العظيم منه كثير . .ومنه قوله تعالى : ﴿ مُحَمدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهُم تَرَاهمْ رُكَّعاً سُجداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِن اللهِ وَرِضْواناً سِيمَاهُم في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثرِ السُجودِ ﴾ مدحهم في أول الآية بالشدة على الكفار ، ثم بالرحمةِ بينهم ، ثم بالخشوع والخضوع ، ثم بالتذلل وَحسن المسئلة ، ثم حسن السيماء وصباحة الوجوه . ومثله قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ﴾ . . ومن هذا النوع قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فإذَا بَرَزُوا مِن عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُم غَيْرَ الَّذِي تَقُول ﴾ يجوز ان تكون ـ تقول ـ راجعة إلى ـ الطائفة ـ ويجوز أن تكون عائدة على النبي صلى الله عليه وسلم .

القسم الثاني والأربعون

المحتمل الضدين

وهو أن يكون الكلام محتملاً للشيءِ وضـده . ومنه في القـرآن العظيم كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ يحتملُ أن يكونَ أراد بـورائهم - أمامهم ويحتمل أن يكون - وراءَهم - وهو يطلبهم ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالمُطَلَّقَاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثَةَ قُروءٍ ﴾ - والقرءُ - يطلق على الحيض والطهر . ومثل ذلك قولـه تعالى : ﴿ قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرةٌ صَفراءُ ﴾ قال المفسرون أراد سوداءَ . ومثله في الشعر قول الشاعر :

* يغادِرُ الجونة أن تغيبا *

- والجون - الأسود - والجون - الأبيض وهو من الأضداد . . ومنه قول بشار في رجل خاط له قِباءً وكان الخياط أعور :

خَـاطَ لـي زيـدٌ قـبـاءً ... لـيـتَ عـيـنـيـه سـواءَ
فـأحـاجـي الـنـاسَ طُـرًّا ... أمـديـحـاً أم هـجـاءَ

وكان سبب ذلك أن بشاراً خاط له زيد قباءً فقال هذا إن شئت لبسته على وجهه وإن شئتَ لبسته على بطانته فقال له بشار وأنا أقول فيك شعراً إن شئت جعلته مدحاً وإن شئت جعلته ذمًّا وأنشده البيتين . . وقد

أخذ المتنبي هذا المعنى فقال :

أيا ابنَ كرَوَّسٍ يـا نصفَ أعمى   وان تفخُــرْ فيــا نصفَ البصيــرِ

وكان ابن كروَّسٍ أعور . . وينخرط في هذا السلك قوله تعالى : ﴿ إنَّكَ لأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشيدُ ﴾ إذا جعل هذا من باب التهكم به والإزراء عليه كان ذماً . ولهذا قال بعض المفسرين أرادوا ـ إنَّكَ لأنت الأحمق السفيه ـ وإن أريد به المدح فالتقدير ـ انك أنت الكامل الحليم الرشيد فكيف يبدو منك مثل هذا لأنه ذكر الحليم والرشيد بالالف واللام التي هي لاستغراق الجنس أو للعهد . . ومثله في السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم ـ من جُعل قاضياً ذُبح بغير سكين ـ فإن أريد به الذم يكون التقدير من جُعل قاضياً فقد قتِلَ بغير سكين لأنه ليس في قدرته إقامة الحق على وجهه واجراء الأحكام على القانون المستقيم ، فيكون قد كلف ما لا طاقة به ، ومن كلف ما لا طاقة له به فهو في ألم شديد يشبه ألم من ذبح بغير سكين ، ومن أراد المدح قال إنه لشدة تحرزه في أحكامه واجتهاده في نقضه وابرامه وإنعامه النظر فيما يحدث من الوقائع ويتجدد من خفايا الاحكام والنظر في أمر الوصايا ومال الايتام إلى غير ذلك من الأمور المشقة يحصل له من الألم مقدار ألم من ذبح بغير سكين ، بل أشد لأن من ذبح بغير سكين يقاسي الألم في حال ذبحه ، ثم يستريح ، والحاكم بهذه الأمور مستمر التعب دائم النكد مشتغل القلب منقسم الفكر دائم النظر ، فنسأل الله اللطف بنا وبه إنه على ما يشاء قدير .

القسم الثالث والأربعون

التجريد

وهو على قسمين . . الأول خطاب الغَير ، والمراد به المتكلم ، وهو أولى باسم التجريد ، وفائدته مع التوسع في الكلام أن يثبت الإنسان لنفسه ما لا يليق التصريح بثبوته له ، وذلك قد يكون فضيلة كقول الحيص بيص :

إلامَ يَراكَ المَجْدُ في زيّ شاعرِ ... وقد نحِلتْ شَوقاً فرُوع المنابرِ
وأنتَ نصبتَ الشعْرَ علماً وحكمةً ... ببعضهما يَنقادُ صَعْبُ المفاخرِ
أما وأبيكَ الخيرُ انك فارسُ ... المقالِ ومحيي الدَّارساتِ الغوائرِ
وإنكَ أتعبتَ المسامعَ والنُّهى ... بقولكَ عما في بُطونِ الدَّفاترِ

ـ وقد تكون لنقيصه ولكن يؤثر إبداؤه إما لتشكّ كقول النابغة :

حَننتَ إلى رَيَّا ونفسُكَ بَاعدَتْ ... مَزارَكَ من ريًّا وشِعْبَا كما معا
فما حسنٌ أن تأتيَ الأمر طائعاً ... وتجزَعَ إن دَاعى الصبابةِ أسمعا
وأذكرُ أيامَ الحمى ثم أنثنى ... على كبدِي من خَشيةٍ أن تَقطّعا
بنفسيَ تلك الأرض ما أطيبَ الرُّبا ... وما أحسنَ المصطافَ والمتربعا

ـ أو يكون لغير التشكي وذلك كالاعتذار كما قال المتنبي :

لا خيـلَ عِنـدك تَهـدِيَهـا وَلاَ مَـالُ ... فليُسعِـدِ النُطْقُ إنْ لَم تُسْعِـدُ الحَـالُ
وَاجـزِ الأمِيـرَ الَّـذي نَعْمَـاهُ بَـاديَـة ... بِغَيـرِ قَـولٍ ونـعمىٰ القَـومِ أقـوالُ

ـ القسم الثاني خطاب المتكلم لنفسه مخيلاً لها أنَّ معه غيره كما قيل :

أقـولُ للنفس تـأسـاءً وتعـزيـةً ... إحـدَى يَدَيَّ أصـابتني ولم تـرِدِ

وهذا النوع في القرآن العظيم منه كثيرٌ وسنذكرُه في فصل تلوين الخطاب إن شاء الله تعالى ، وقد ذكرنا منه طرفاً في أنواع الالتفات ، فانظره هناك فهو كثير :

القسم الرابع والأربعون

الرجوع والاستدراك

وهو من أنواع الاعتراض ، ولكن علماء هذا الشأن أفردوا له باباً .

وهو على قسمين . . الأول أن تذكر شيئاً وترجع عنه كقولهم : والله ما معه من العقل شيءُ ، الاّ مقدار ما يوجب الحجة عليه كقول زهير :

قِفْ بِالدِّيَارِ التي لَم يَعفُها القِدَمُ ... بَلى وَغيرَها الأرواحُ والدِّيَمُ

ـ القسم الثاني من الاستدراك : هو أن يبتدىء كلامه بما يوهم السامع أنه هجْو ، ثم يستدرك ويأخذ في المدح كقول أبي مقاتل الضرير :

لا تَقُلْ بُشْرَى وَلَكِن بُشْرَيَانْ ... غُرّة الدّاعي وَيَومُ المَهْرَجَانِ

وهذا النوع غير مستحسن عند الحذاق ، فإنّ السامع ربما يتطير من أول الكلام فيتأذى ولا يلتذ بما بعده ، والاستدراك في الكتاب العزيز كثير كقوله تعالى : ﴿ بَلى مَن كسبَ سيئةً وأحَاطَتْ بِهِ خَطيئَتُهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ بَلى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَيسَ البِرّ أنْ تُوَلُّوا وَجُوهَكُم قِبلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِب وَلَكِنَّ البِرّ ﴾ على قراءة من خفف فرفعَ ـ البرَّ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَانْ من شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

وفي القرآن كثير .

القسم الخامس والأربعون

السؤال والجواب

وهو أن يحكى كلاماً بقال ، ثم يجيبه بقال أيضاً . وهو في القرآن العظيم كثير . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ أنّ اللهَ يَأمُرُكم أنْ تَذْبَحُوا بَقَرةً قَالُوا أتتخِذُنا هُزواً قَالَ أعوذُ باللهِ أنْ أكُونَ مِنَ الجَاهِلينَ ﴾ إلى قوله :﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعونُ وَما رَبُّ العَالَمِينَ قَالَ ربُّ السَّمواتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَولَهُ ألاَ تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُم ورَبُّ آبائِكم الأولين قَال إنّ رَسُولَكُم الَّذي أُرسِلَ إلَيْكُم لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ المَشرِقِ والمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهاً غَيري لأجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ قَالَ أوَلَوا جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُبينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقينَ ﴾ . وفي الشعر منه كثير من ذلك قولُ امرىء القيس :

ويومَ دَخلت الخِدرَ خِدْرَ عُنَيزَةٍ ... فَقَالَت لَكَ الوَيْلاَتُ إنكَ مُرْجلي
فَقُلتُ لَهـا سِيري وارْخِي زِمامَها ... وَلاَ تمنعينا من جَنَاكِ المُعَلَّلِ

ومن بديعه قول بعض المتأخرين :

وكامِلةُ الأوصَافِ وَافرَةِ الحَيَا ... إذا افتخرَتْ بالحُسْنِ اعجزَها المثلُ
شكوْتُ إليها مَا أجنُّ من الجَوى ... فَقالت إذا اشْتَدَّ الجفا عَذُبَ الوَصْل
فَقُلْتُ أصمَّ العَاذِلونَ مَسَامِعِي ... فَقَالتْ إذا صحَّ الهوى بَطلَ العذْلُ

فقلتُ فماذا عِندَكم لُمدَلّةٍ فقَالَتْ لَهُ إما الحياة أو القتلُ
اذا شئتَ أنْ تحظى لَدَيْنا فكُنْ لَنا فَرِيداً فَلاَ مالُ لَديك وَلاَ أهْلُ
فَكَم هَلكتْ في حُبِّنا مِن مَعَاشِرٍ ومَا نهِلوا صفوَ الحياةِ ولا عَلُّوْا
وَلاَ ظَفروا مِنا بأيسرِ طائل اتطمعُ بالتفريطِ في وَصلِنا جَهلُ

ـ ومن ذلك قول الباخِرزي :

قَدْ قُلْتُ لَهَا هَجرَتني مَا العِلّهْ صَدَّتْ وَتَمَايَلَتْ وَقَالَتْ قُلْ لَهْ

قال علماءُ البيان : أحسن هذا النوع ما كَثرتْ فيه القلقلة .

القسم السادس والأربعون

التوهم . ويسمى الإيهام أيضاً

وهو أن يجاءَ بكلمة توهم أخرى . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَومئذٍ يُوفيهم الله دِينَهم الحَقَّ ﴾ يوهم من لا يفهم أو يعلم العربية أن دينهم حقّ لأن دينهم اذا قرأها بالرفع من لا يفهم ولا يعلم العربية ، اقتضى ذلك أن دينهم حق ، وليس كذلك . ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ خيرٌ من اللَّهوِ وَمِنَ التِجَارَةِ ﴾ من لا يفهم العربية ولا يفهم المعنى يعتقد أن ما نافية وأنه ليس عند الله خير من اللهو ومن التجارة . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ ومن لا يعرف العربية إذا سمع هذه الآية اعتقد أن الله تعالى يخشى العلماء والعارف بالعربية والقراءة ينصب الجلالة ، ويرفع العلماء فيظهر له أن العلماء هُمُ الذين يخشون الله . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَيلٌ لِلمُصَلِّينَ ﴾ من لا يعلم المعنى اعتقد أن الويل لاحقٌ بالمصلين ، ولهذا قال بعض الجهال :

ما قالَ رَبُّكَ ويلٌ لِلذين سَهوا   بَلْ قالَ رَبُّكَ وَيلٌ لِلْمُصَلِّينَا

ـ وقد يقع من ذلك في الشعر كثير . ومنه قول سُحَيْم :

فَجالَ عَلى وحشيِّهِ وَتخالُهُ   عَلى ظَهْرِهِ سَباً جديداً يمانيا

فقوله ـ يمانياً ـ يوهم أنه شباً بالشين . وكذلك قول المتنبي :

فَـإنَّ الـفِئَـامَ الـذي حَـولَـهُ لَتُحْسُـدُ أرجُـلهَـا الأَرْؤُسَـا

فقوله ـ أرجلها ـ يوهمُ أنه القيام بالقاف ، وإنما هو بالفاء والفئام الجماعات .

القسم السابع والأربعون

التشعيب

وهو أن يكون في صدر الكلام كلمة من عجزه مثل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن أتيتَ الذينَ أوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبلَةَ بَعضٍ ﴾.

ومثل قول الشيخ أبي العلاء:

قَد أورَقتْ عُمُدُ الخِيَامِ وَأعْشَبَتْ ... شُعَبُ الرِحَالِ وَلَوْنُ رأسِيَ أغبرُ
وَلَقَدْ سَلَوْتُ عَنِ الشَبَابِ كَمَا سَلا ... غَيري وَلَكِنّ لِلحَزِينِ تَذَكُّرُ

ـ وقال آخر:

وَمَا هَجَرَتْكَ النَفْسُ يا عَزُّ أنَّهَا ... قَتَلْتكِ وَلَكِنْ قَلَّ مِنكِ نصيبُهَا
وَلَكِنَّهُم يَا أحسنَ النَّاسِ أولِعُوا ... بِقَولِ إذا مَا جِئْتُ هَذا حَبِيبُهَا
أهَابُكِ إجْلالاً وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ ... عَليَّ وَلَكِنْ مِلءُ عَينٍ حَبِيبُهَا

القسم الثامن والأربعون

الاستثناء

وهو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه ، أو يدخل شيئاً ثم يخرج منه بعضه . أما الاستثناء ففي القرآن منه كثير . فمنه قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزير ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إلاّ مَا اضْطُرِرْتُم إليه ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ في مَا أوحي إليّ محرّماً عَلى طَاعِمٍ يَطعَمُهُ إلاّ أنْ يَكُونَ مَيتةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لحمَ خِنزير ﴾ . ومثله في القرآن كثير . وأما الرجوع فلا ينبغي أن يكون في القرآن منه شيءٌ لأن المتكلم به لا يليق بجلاله أن يوصف بالرجوع عن شيء . وأما ما سوى القرآن ففيه منه كثير من ذلك في الاستعمال قولهم ـ ليس له عقل الا ما تقوم عليه به الحجة ـ وأما في الشعر فقد ورد في أشعار كثيرة . . منها :

أَلَـيْسَ قَـلِيـلاً نَـظرَةٌ إن نَـظَرتُـهـا إليـكَ وَلَـكِـن لَـيْسَ مِـنْـكِ قَـلِيـلُ

ـ ومنه قول الآخر :

وَمَا بِي انْتِصَارٌ إنْ عَدَا الدَّهـرُ ظَالِماً عَليّ بَلى إنْ كَـانَ مِن عِنْـدِكَ النَّصْـرُ

ـ ومنه قول النابغة :

وَلَا عـيبَ فِـيهِـمْ أنَّ سُيــوفَـهُـمْ بِهِنَّ فُلُولٌ من قِـراعِ الكَتَـائِبِ

القسم التاسع والاربعون

الغرابة .. والظرافة .. والسهولة

أما الغرابة فقال ابن قدامة .. هي أن يكون المعنى مما لم يسبق إليه على جهة الاستحسان فيقال ظريف وغريب ، وإذا كان عديم المثال ، أو قليله ، والقرآن العظيم كله سهل ممتنع ألفاظه سهلة ومعانيه نادرة وأسلوبه غريب قد مازجت القلوب عذوبته وحلت في العيون طلاوته ، وراق في الأسماع سماعه ، واستقر في الطباع انطباعه ، فلهذا لم يُسأم على ترداده ولم تملهُ النفوس على دوام ايراده ، فكل آية منه حسنة المساق ، وكل كلمة منه عذبة المذاق ، وكل معنى منه دقّ ورقّ .. ومن هذا النوع في أشعار العرب المخضرمين والمتأخرين كثير لا يحصى . . فمن ذلك قول بعض العرب :

هوى صاحِبي ريحُ الشِمَالِ إذا جُرتْ   وَأشْفَى لِقَلْبِي أنْ تهبَّ جَنوبُ
يقولونَ لوْ عَزَّيْتَ قلبك لارعَوَى   فَقُلْتُ وَهَلْ لِلعَاشِقِينَ قُلُوبُ

ـ وقال آخر :

وَلاَ تَحْسِبَنا هِنداً لَهَا الغَدرُ وَحْدَهَا   سَجيةُ نَفسٍ كُلّ غانيةٍ هِندُ
فَمَا خلفَ أجْفَاني شُؤُونُ بخيلةٌ   وَلاَ بَينَ أضْلاَعي لَهَا حَجرٌ صَلدُ

ـ وقال آخر :

تَقُولُ نِساءُ الحيِّ تَأْمَلُ أن ترى ... مَحَاسِنَ ليلى مُتْ بِداءِ المَطَامِعِ
وَكَيفَ ترى لَيلى بِعينٍ ترى بِهَا ... سِواها وَمَا طَهَّرتَها بالمَدَامِعِ
وتلتذُّ منها بالحديثِ وَقَدْ جَرَى ... حَديثُ سِواهَا فِي خُروقِ المَسَامِعِ

ـ وقال آخر :

لَا خَيرَ فِي الحُبِّ وَقفاً لا تحركهُ ... عَوارِضُ اليأسِ أو يرتَاحهُ الطمعُ
لَوْ كَانَ لِيَ صَبرها أو عِنْدَهَا جَزَعي ... لَكُنْتُ أملكُ مَا آتى وَمَا أدَع
إذا دَعى بَاسمها دَاعٍ لِيُحزنني ... كَادَتْ لَهُ شُعبةٌ مِن مُهجتي تَقَعُ
لَا أحمِلُ اللَومَ فِيهَا وَالغَرَامَ بِهَا ... مَا كَلَّفَ اللهُ نَفْساً فَوقَ مَا تَسعُ

ـ وقال مسلم بن الوليد :

عَيني لِعَينِكَ حِينَ تنظرُ[1] ... لَكِنَّ عَينَك سَهمُ حَتفٍ مُرسَلُ
وَمِنَ العَجَائِبِ أنّ مَعنًى وَاحداً ... هُوَ مِنكِ سَهمٌ وَهُوَ مِنِي مَقتَلُ

ـ وقال آخر :

وَمَاذَا عَسَى الوَاشُونَ أنْ يَتَحَدَّثُوا ... سِوىَ أن يَقُولُوا إنني لَكِ عَاشِقُ
نَعَمْ صَدَقَ الوَاشُونَ أنتِ عزيزةٌ ... عَليّ وإنْ لَم تَصفُ مِنْكِ الخَلائِقُ

ـ وقال أبو تمام :

أَقُولُ وَقَد قَالُوا اسْتَرحتَ بِمَوتِهَا ... مِن الكَربِ رُوحُ المَوتِ شرٌّ من الكَرْبِ

(١) كذا في الأصل ولم نقف عليه في المطبوع من شعره .

ـ وقوله أيضاً :

وَقَالُوا عَزاءُ المَوْتِ لِلنَّفْسِ مَدْفعٌ فَقُلْتُ ولا للحــزْنِ مُذْ ماتَ مدفــع

ومن الغريب السهل الظريف قول أبي تمام في قصيدته التي أولها :

مــا في وقوفـكَ سَاعـةً من بَـأسِ تــحيــى بَـقَـايَـا الأربُـع الأدراسِ
إقــدامُ عمـرو في سَمــاحـةِ حــاتِم فـي حِلمِ أحنفَ فـي ذكـاءِ إيـاس
لَا تُـنْكِـرُوا ضَـربي لَـهُ مِن دُونـه مَثَـلًا شَـرُوداً في النـدَى والبأسِ
فَــالله قَــدْ ضَـرَبَ الأقـلَّ لـنـورِهِ مَثَـلًا مِـن المِشْكَـاةِ وَالنِّبـرَاسِ

وهذه الأبيات على غاية من الغرابة ، وعلى نهاية من الظرافة والإطابة ، أغرب ما فيها أن أبا تمام لما أنشد قوله :

إقدامُ عمرو في سَمَاحَةِ حَاتمٍ في حِلمِ أحنفَ في ذَكَاءِ إياسِ

قال بعض من حضر في مجلس الخلافة ، شبه أمير المؤمنين بكل بوال على عقبيه ، فأنشد في الحال بديهاً :

* لا تنكروا ضربي لَه من دُونِه * البيتين

فقال له الخليفة تمنَّ فقال تمنيت الموصل ،فكأن الخليفة توقف عن ذلك فقال له حكيم عنده اعطها له فانه لا يصل إليها فإنني من قوة فكرته شممت رائحة كبده ، فتوجه إليها فمات في الطريق . وهذا النوع القرآن كله منه فإنه من غرابة الأسلوب وبداعة السياق وجودة الاتساق على غاية لا تدرك وطريقة لبعد مثالها لا تسلك . . ومن هذا النوع قول زهير :

وَمَـا كَانَ مِن خَيـر كَبيـرٍ فَـإِنَّمَـا تَـوارثَـهُ آبـاءُ آبـائِـهـم قـبْـلُ

وَهَل يُنْبِتُ الخِطَى الاَّ وشيجُهُ   وتُغرَسُ إلاّ في مَنَابتَها النَخْلُ
عَلى مُكْثِريهم حَقّ مَن يَعتَريهم   وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَمَاحَةُ وَالبَذْلُ

قال المصنف عفا الله عنه : هذا البيت قد ذكر أرباب هذه الصناعة أنه أمدح بيت قالته العرب ، وقد طعن عليه بعض الحذاق منهم ، وذكر فيه عيوباً منها أنهم لو كانوا كرماءَ ما كان فيهم مُقل . ومنها أنه جعل حق المعتري على المكثرين واجباً عليهم ، ولم يوجبه على المقلين ، فكان المكثرون عليهم إكرامُ الضيف واجباً ، ولم يكن واجباً على المقلين ، فاقتضى ذلك أن يكون إعطاء المكثرين عن كظم ، وإعطاء المقلين عن كرم ، فصار المقلون أحسن حالاً من المكثرين وأكرم أنفسا ، وعليه مآخذ غير هذه ، ولسنا بصدد استيفائها ، وهذا الباب واسع جداً ، وما ذكرناه فيه مقنع .

القسم الموفى خمسين

ما يوهم فساداً . وليس بفساد

وهو أن يقرن الناظم أو الناثر كلاما بما ليس يناسبه ، أو يقدم التشبيه على ذكر المشبه . . ومنه في القرآن كثير ، وكذلك في أشعار العرب . . أما القرآن . فمنه قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلى الصَلَواتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى ﴾ قرنها بقوله : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُموهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُوهُنَّ ﴾ الآية واتبعها . بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتوفَّوْنَ مِنكم وَيَذرُون أَزواجاً وَصِيةَ ﴾ الآية فليس قبلها وبعدها ما يناسبها . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لاَ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ الذي يقتضيه المعنى المناسب ظاهراً أن يقول أنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ، وأنك لا تعرى فيها ولا تضحى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تُقْسِطُوا في اليَتَامى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِن النِسَاءِ ﴾ وغير العالم المطلع على خفايا معاني القرآن العظيم يظن في ذلك كله عدم المناسبة ، وليس الأمر كذلك بل ما ورد به القرآن العزيز هو الأحسن ، وسنذكر إن شاءَ الله المناسبة في ذلك . . فأما آية اليتامى فقد ذكر أئمة التفسير في المناسبة وجوها . أحدها ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت هذا في اليتيمة تكون عند وصيها فيعجبه حسنها ومالها فيمنعها عن الأزواج ليتزوجها بمهر دون مهر مثلها ، ويحوز مالها فأعلم الله المؤمنين أن من خشي منهم أن يقع في مثل ذلك مع اليتامى ، فلينكح ما طاب له من النساء من غير اليتامى .

وقيل المعنى فإن كنتم من التقوى على حد تخشون أن تلوا مال اليتيم خشية عدم الاقساط ، فانكحوا ما طاب لكم من النساءِ يعني اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً فإنّ من كان بهذه المثابة من خوف الله والتقوى لا يخشى عليه من الجور والميل ، وعدم العدل بين نسائه بدليل ما عقبه به من قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدةً ﴾ وقد ذكر أئمة التفسير في الجمع غير ذلك اقتصرنا على هذا خشية التطويل . وأما آدَمَ عليه السلام فقد تقدم في المناسبة انها تارة يُقصد فيها مناسبة اللفظ ، والمعنى ، وتارة يراعى فيها مناسبة اللفظ فقط وتارة يراعى فيها مناسبة المعنى ، وهذه الآية منه وهو الذي أريد لأن ـ الجوع ـ خلو الباطن عن الغذاء ـ والتعري ـ خلو الظاهر عن الثياب ـ والظمأ ـ احتراق الباطن بالحرارة ـ والضحى ـ احتراق الظاهر فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها . . وأما آية الصلوات والمحافظة عليها فقد سئل عنها بعض أجلة أهل العلم رضي الله عنهم فقال لما أمر الله تبارك وتعالى بالمحافظة على حقوق الخلق ذكر لهم حقوقه وهو الصلاة ليجمع لهم في التعليم بين مراعاة حقوق الخلق والحق ، ليحصل لهم الكمال ، ثم لما كانت حقوق الآدميين منها ما هو متعلق بالحياة ، وقد ذكر ذلك قبلها ناسب أن يذكر الحقوق المتعلقة بالممات بعدها .

وقد ذكر أهل التفسير رضي الله عنهم فيها أجوبة كثيرة اقتصرنا على هذا منها . وقد وقع في اشعار العرب الأقدمين والمتقدمين من الإسلاميين والمتأخرين من هذا النوع كثير . من ذلك قول امرىء القيس :

كـأني لم أركـب جَـواداً لِلذةٍ وَلَمْ اتبطّن كَاعِباً ذَاتَ خَلخَالِ
وَلَم أسبأ الزِق الـرّويَّ وَلَم أقُلْ لِخَيْلي كَـرِّي كَـرّة بَعْـدَ إجْفَالِ

ـ قال بعض النقاد إن هذا فاسد لأنه جعل التغزل مُجاوراً للشجاعة في البيتين والأجود أن يجاور الشجاعة بالشجاعة ، والغزل بالغزل فيقول :

كَأني لَم أَرْكَبْ جَواداً ولم أقـل لخيلي كـرّي كـرّة بعـد اجفال

ولم أسبأ الزِّقَ الروي للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ـ ومن هذا النوع قول المتنبي :

وقفت وَما في الموت شك لواقف كَأَنَّكَ في جفنِ الرَّدى وَهُوَ نَائِمُ
تمرّ بك الابطالُ جَرحى هزيمةً ووجهك وضَّاحٌ وثغرك بَاسمُ

ـ وهذا الذي ذكره النقاد قد رده جماعة من الحذاق بما حكى أن سيف الدولة قال للمتنبي ، هذا فاسد المجاورة ، لأنك أتيت بالتشبيه قبل ذكر المشبه والأجود أن تقول :

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف ووجهكَ وَضاحٌ وثغرك باسمُ
تمرّ بك الابطالُ كلمى هَزيمةٍ كأنكَ في جفنِ الرَّدَى وَهُوَ نائمُ

ـ فقال المتنبي أيَّد الله مولانا الأمير إن صح الذي استدرك صح الذي استدرك على امرىء القيس ، وهو أعلم بالشعر منِّي ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأسأت أنا ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز كمعرفة الناسج ، لأن البزَّاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية . . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة ركوب الخيل للصيد ، وقرن السماحة في سباء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الاعداء ، وأنا ذكرت الموت في أول البيت فأتبعته بذكر الردى ، وهو الموت لتجانسهما ، ولما كان الجريح المنهزم لا يخلو وجهه من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت ـ ووجهك وضَّاح وثغرك باسم ـ لأجمع بين الأضداد في المعنى ، وان لم يتسع اللفظ لجمعهما فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً . . ومن ذلك قول بعضهم :

فَـإنَّك إنْ تَهْجُـو تَمِيماً وَتَـرْتشي   سَرَابيلَ قيسٍ أو سُحوقَ العَمَائِم
كَمهْـرِق مـاءٍ في الفَـلاَةِ وغَـرَّهُ   سـرَابُ أذاعتـهُ ريـاحُ السمـائم

ـ وقال آخر :

إنـي وَتَـركي نَـدا الأكْـرَمـين   وقَـدْحي بِكَفّي زِنـاداً شِحـاحـا
كَتَـارِكَـةٍ بَيـضَـهـا بـالـعَـرا   ءِ ومُلبسة بَيضَ أخـرَى جَناحَـا

يجب ان يكون كل بيت من الأولين مع بيت من الآخرين ، لأنه أجود وأنسب . . ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر :

فيا أيها الحيرانُ في ظلمة الدّجى   ومَن خافَ أنْ يَلْقاهُ بغيٌ من العِدا
تعـالَ اليـهِ تلْقَ من نـورِ وَجهـهِ   دَليـلًا ومن كفَّيهِ بحـراً من النَّدا

قال النقّاد هذا فاسد التفسير ، لأنه قابل البغي بالسماحة ، وكان يجب أن يقابل بغير ذلك فيقول تنظر أسداً حامياً وليثاً مانعاً . وقد قيل في هذا البيت انه دل على الشجاعة بلازمها لأن الشجاع لا يكون بخيلا ، ولذلك قال الشاعر :

لا تَـطلبنّ من البخيـلِ شَجـاعَـة   إنّ البخيلِ يخافُ أسبابَ الرّدى
مَن لا يجـودُ بمـالـه يـومَ النـدا   أنّى يجـود بنفسـهِ يـوم اللقَـا

وقد تعسف لهذه الابيات وجوه من المعاني ، وضروب من التصحيح تخرج بها من أن تكون فاسدة ، ليس هذا موضع استيفائها وفيما ذكرت كفاية ومقنع والله الهادي والموفق .

القسم الحادي والخمسون

في النادر والبارد

فأما البارد فليس في القرآن العظيم منه شيء ، وسيأتي بيانه في الفن الثالث الذي ليس في القرآن العظيم منه شيء . . وأما النادر فالقرآن مشحونٌ به فإن أكثر ألفاظه نادرة الوجود ومعانيه مستوفيةٌ للمقصود كل كلمة منه جامعة لمعان شتى ، وكل آية تحتوي على معان لغير المتكلم به لا تتأتى ، وكل سورة إحكام أحكامها لا ينحصر ، وإعجاز إيجازها قد أعجز البشر ، وفيه النادر الحسن والأحسن . . فمن الآيات التي لم ينسج على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَا جَاءَ أَمْرُنا وَفَارَ التَنُّورُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعداً لِلقَوم الظَالِمِينَ ﴾ ولهذا انّ ابن المقفع لما عارض القرآن ووصل إلى هذه الآية قال هذا مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، وترك المعارضة ومزق ما كان اختلقه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ مُوسَى أَنْ ارْضِعِيهِ فَإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِن المُرْسَلِينَ ﴾ جمعت هذه الآية أمرين ونهيين وخبرين ووعدين . . ومن هذا النوع في القرآن كثير ، بل القرآن كله حسن وأحسن ، وليس هذا موضع استقصاء الاحسن ، وفي أشعار العرب من هذا كثير وقد تقدم بيانه .

القسم الثاني والخمسون

المساواة والتقصير

وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص . والقرآن العظيم جُلهُ بل كله على هذا النمط . وأما التقصير فليس في القرآن منه شيء وسيأتي بيانه في الفن الثالث .

القسم الثالث والخمسون

التصريح بعد الإبهام . ويسمى التفسير

قال أئمة هذا الشأن المراد بالتفسير بعد الابهام تفخيم المبهم واعظامه ، لأنه هو الذي يطرق السمع أولا فيذهب السامع فيه كل مذهب كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوع مُصبحين ﴾ فسر ذلك الأمر بقوله ـ أن دابر هؤلاءِ مقطوع مصبحين ـ وفي ابهامه أولاً وتفسيره بعد ذلك تفخيم للمبهم وتعظيم لشأنه فانه لو قال تعالى ـ وقضينا اليه أن دابر هؤلاءِ مقطوع مصبحين ـ لما كان بهذه المثابة من الفخامة فإنّ الابهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه فيتشوف إلى معرفة كنهه والاطلاع عليه وعلى حقيقته . . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إِهْدِنَا الصِراطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ لما جاء في الاول من التنبيه والاشعار بأن ـ الصراط المستقيم ـ هو صراط المؤمنين فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول ـ هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ـ ثم تقول ـ فلان ـ فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الأكرم والأفضل لأنك بدأت بذكره مجملا ثم بينته مفصلاً فجعلته علماً في الكرم والفضل كأنك قلت من أراد رجلًا جامعاً للخصلتين جميعاً فعليه بفلان . وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوم اتَّبِعُونِي أهدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيرِ حِسَابٍ ﴾ ألا ترى كيف قال ـ أهدكم سبيل الرشاد ـ فأبهم سبيل الرشاد فلم يبين أي سبيل هو ، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا

وتصغير شأنها لأن الإخلاد اليها أصل الشر كله ، ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والإطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن المستقر ، ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ، فكأنه قال : سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة ، والامتناع عن الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها ، والمسارعة إلى الاعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها . . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرفَعُ ابرَاهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ ﴾ ولم يقل قواعد البيت لما في ابهام القواعد ، ولما في تبيينها بعد ذلك من الإيضاح وتفخيم حال المبهم بما ليس في الاضافة . . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرعَونُ يا هَامَانُ ابنِ لي صَرْحاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى ﴾ الآية لما أراد تفخيم ما التمس من بلوغه اسباب السموات أبهمها أولا ، ثم فسرها ثانياً ، ولأنه لما كان بلوغهما أمراً عجيباً أراد أن يورده على صورة مشوقة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب ، فأبهمه لتتشوف اليه نفس هامان ، ثم أوضحه بعد ذلك . .

ومما يدخل في هذا الباب الابتداء بذكر الضمير ، ثم الافصاح بذكر صاحبه وحده كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكون في شَأْنٍ وَمَا تَتْلو مِنْهُ مِن قُرآنٍ ﴾ فإنه لما أتى بالضمير الذي هو منه قبل صاحبه الذي هو في القرآن كان ذلك تفخيما له وتعظيماً من أمره ولو قال ـ وما تكون في شأن وما تتلو من قرآن ـ ولم يذكر الضمير لما كان للكلام تلك الفخامة التي كانت له مع ذكر الضمير . . ومثل هذا قولهم الكريم العالم الفاضل ـ ثم يقال ـ فلان ـ وقد سبق الكلام عليه . .

وأما الابهام من غير تفسير فكثير شائع في القرآن العزيز كقوله تعالى : ﴿ إنّ هَذَا القُرآنَ يَهدي لِلَّتي هيَ أَقْوَمُ ﴾ أي الطريقة أو الحالة أو الملة التي هي أقومها وأشدها ، وأيّ ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الإبهام ، وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب وايقاعه على محتملات كثيرة ، وهذا لا يخفى على العالم برموز صناعة التأليف فاعرفه . . ومما يدخل في هذا الباب الاستثناء العددي ، وهو ضرب من التأليف لطيف المأخذ عجيب

المغزى ، وإنما يُفعل ذلك طلباً للمبالغة لأن له تأثيراً شديداً في القلب ، وموقعاً عظيما في النفس وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر العقد في العدد فيكبر موقع ذلك عنده ، وهو شبيه بما ذكرنا من الإبهام ، ثم التفسير بعدهما يسوّي بينهما . . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ فانه انما قال ـ ألف سنة إلا خمسين عاما ـ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما لفائدة حسنة وهي ذكر ما ابتلى به نوح عليه الصلاة والسلام من أمَّته ، وما كابده من طول المقام ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيهاً له ، فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع قوّة صبره ، وما لاقاه من قومه . . ومن بديع التفسير بعد الابهام قوله تعالى : ﴿ إنَّما أعِظُكُم بواحِدَةٍ أنْ تَقُوموا للهِ مَثنَى وَفُرادَى ﴾ ولو حذف ـ واحدة ـ كان الأمر كما ذكرنا وذهبت تلك الفخامة التي في الابهام وزال ما فيه من الغموض وانقطع شوق النفس إلى التفسير وفسر ـ الواحدة ـ بقوله أن تقوموا لله مثنى وفرادى . . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالمؤتَفِكةُ أهوَى فَغَشَّاها مَا غَشَّىٰ ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَغشيَهم مِنَ اليَمّ مَا غشيَهمْ ﴾ . ومنه ﴿ وَفعَلتَ فَعْلَتَك التي فَعَلْتَ ﴾ . ومنه في الاستعمال قولهم فؤاد فيه ما فيه . . ومنه قول الشاعر في وصف الخمر :

فَقَدْ مَضَى مَا مَضَى مِن عقلِ شَارِبِهَا وفي الزُجَاجَةِ بَاقٍ يَطلُبُ البَاقي

ـ ومنه قول الآخر :

مَضَى مَا مَضَى حَتى عَلاَ الشَيبُ رأسَهُ فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ للبَاطِل ابعُدِ

ـ وقال آخر :

سَأَغْسِلُ عنِي العَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً عَليَّ قضاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِباً

فاعرف ذلك وقس عليه .

القسم الرابع والخمسون

التعقيب المصدري

وانما يُعمد إلى ذلك لضرب من التأكيد لما تقدّمه والاشعار بتعظيم شأنه أو بالضد من ذلك . . مثال الأول قوله تعالى : ﴿ وَيَومَ يُنفخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّمَوَاتِ ومَن في الأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ هَلْ تُجزَوْنَ إلاّ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ فقوله ـ صُنعَ الله ـ من المصادر المؤكدة لما قبلها وهو كقوله : ﴿ وَعْدَ اللهِ . وَصِبْغَةَ اللهِ ﴾ ألا ترى أنه لما جاء ذكر هذا الأمر العظيم الدال على القدرة الباهرة من النفخ في الصور وإحياء الموتى والفزع واحضار الناس للحساب ، وتسيير الجبال كالسحاب في سرعتها ، وهي عند الرؤية لها والمشاهدة كأنها جامدة عقّبَ ذلك بأن قال ـ صُنعَ الله ـ أي هذا الأمر العجيب البديع صنع الله ، والمعنى : ويوم ينفخ في الصور ، وكان كيت وكيت من الأشياء الباهرة واثابة الله المحسنين ، ومعاقبة المجرمين ، فجعل هذا الصنع من جملة الأمور التي هي أنفسها ، وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال ـ صنع الله الذي أتقن كل شيء ـ يعني أن مقابلة الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من إحكام الاشياءِ واتقانه لها واجرائه اياها على الحكمة ، أي انه عالم بما يفعل العباد ، وبما سيرجعون إليه فيكافئهم على حسب أفعالهم ، ثم لخص ذلك بقوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ ﴾ إلى آخر الآيتين . فانظر أيها المتأمل إلى بداعة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة ايجازه وفصاحة تفسيره ، وأخذ بعضه برقاب بعض ، كأنه أفرغ افراغا واحداً ، ولأمر ما أعجز القوي وأخرس

الشقاشق .

ونحو هذا المصدر اذا جاء عقيب الكلام كان كالشاهد بصحته والمنادى على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا ما قد كان ألا ترى إلى قوله ـ صبغة الله . وصنع الله . ووعد الله . وفطرة الله ـ بعد ما وسمها باضافتها إليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله ـ الذي أتقن كل شيء ـ . . وأما الثاني وهو ضد الأول وذلك ما يراد به تصغير الشأن كقولهم إذا ذكر انسانا يريدون ذمه ـ قد ركب هواه . واستمر على غيه . وتمادى على جهله . وسحب ذيل عجبه ـ وما أشبه ذلك ثم يقول ـ صنع الشيطان الذي غلب النفوس ، وميل الألباب ـ ومثل هذا كثير فاعرفه .

القسم الخامس والخمسون

النفي والإثبات

وهو أعلى ضرب من البلاغة كثير الفوائد عذب الموارد . وقد تكلم فيه أرباب علم الكلام ، وأرباب علم البيان ، وقالوا إن نفي الخاص يدل على ثبوت العام ، ولا يدل نفيه على نفيه . وقد بينا أن زيادة المفهوم في اللفظ توجب زيادة الالتذاذ به لحصول جملة من الملاذ دفعة واحدة ، ولذلك كان نفي العام أحسن من نفي الخاص وإثبات الخاص أحسن من اثبات العام . أما الأول فكقوله تعالى : ﴿ مَثلُهم كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِم ﴾ ولم يقل بضوئهم لأن النور أعمّ من الضوءِ إذ يطلق على الكثير والقليل ، وإنما يقال الضوءُ على القدر الكثير .

ولذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً ﴾ وها هنا دقيقة وهو أنه قال ـ ذهب بنورهم ـ ولم يقل أذهب نورهم لأن الإذهاب بالشيءِ لا يمنع من عود ذلك الشيءِ بخلاف الذهاب إذ يفهم من ذلك استصحابه في الذهاب ، ومقتضى ذلك منعه من الرجوع . وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ المَلأُ مِنْ قَومِهِ إنَّا لَنَرَاكَ في ضَلَالٍ مُبينٍ قَالَ يَا قَوم لَيْسَ بي ضَلَالَةٌ ﴾ معناه لا ضلالة واحدة بي ويلزم من ذلك أن لا يثبت له فرد من الضلال البتة ولا كذلك لو قال ليس بي ضلال ، لأن اسم الجنس يقال على الكثير والقليل فيجوز أن يكون المنفي هو الكثير . ومما يشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أفٍ ﴾ فإن هذا يدل على النهي عن الضرب أيضاً ، لا على أن

التأفيف اعم ، بل لأن المقصود من منع التأفيف هو الإكرام ، وعدم الإهانة ، والإهانة بالضرب أكثر من الإهانة بالتأفيف .

الثاني كقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرضها السَمواتُ وَالأرْضُ ﴾ ولم يقل طولها لأن العرض أنقص إذ كلما له عرض فله طول ولا ينعكس . ومما يتعلق بهذا انه إذا كان الشيء يشبه أشياء بعضها أتم في التشبيه ، أو أوفق من بعض فالأولى والأهم الاقتصار على ما هو أتم وأوفق ، فإن ذكر الكل فالأولى الابتداء بالأدنى ، والأضعف ليكون انتقال الذهن إلى الأعلى بتدريج ، ولأن التشبيه بالأعلى ألذّ ، والانتقال من لذّة إلى ما هو دونها غير مُلذّ ولا مستحسن فلذلك قال الأشتر النخعي :

حَمى الحَـديـدُ عَليهمُ فكـأنـه لَمَعَـانُ بَـرْقٍ أوْ شُعَـاعُ شُمُـوسِ

وإذا كان للشيء صفة يغني ذكرها عن ذكر صفة أخرى ، أو يدل عليها كان الاقتصار عليها أولى من ذكرهما ، لأن ذكرهما كالتكرار وهو ممل ، وإذا ذكر فالأولى تقديم المدلول عليها وتأخير الدالة حتى لا تكون الآخرة قد تقدمت الدلالة عليها ، وقد يخل بذلك لمقصود آخر كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نبياً ﴾ فإنه أخر نبياً لأجل السجع . وإذا كان ثبوت شيء أو نفيه يدل على ثبوت آخر أو نفيه ، كان الأولى الإقتصار على الدال على الآخر ، فإن ذكرا فالأولى تأخير الدال ، وقد يخل بذلك لمقصود كما في قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَذا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرةً وَلَا كَبِيرةً إلَّا أحْصَاهَا ﴾ وعلى قياس ما قلنا ينبغي أن يقتصر على صغيرة ، وإن ذكرت الكبيرة فلتذكر أولا . ومثله قوله تعالى : ﴿ فلَا تَقُلْ لَهُمَا أفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَـا ﴾ وعلى ذلك القياس يكتفي بقوله ـ ولا تقل لهما أف ـ وان ذكرا فيقول ـ ولا تنهرهما ولا تقل لهما أفّ ـ . . وإذا تكررت الصفات فإن كان للمدح فالأولى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ليكون المديح مزيداً لتزايد الكلام ، وإن كان للذم فقد قالوا ينبغي الابتداء بالأشد ذما ، وهو مشكل .

وقد يجوز أن يستعمل نفي الخاص لنفي العام ، ويسمى هذا عكس الظاهر ، وهو من المجاز البديع . ومثاله قول علي رضي الله عنه في وصفه لمجلس رسول الله صلى عليه وسلم - إنه لا تنثى فلتاته - أي تذاع والمراد أنه لا فلتات له البتة ، وإنما يعرف ذلك لأنه نكرة في معرض المدح وانما يكون كذلك إذا كان المراد ما ذكرناه . ومنه - ليس بهاضب فينجحر - والمراد أنه لا ضب بها . . وكذلك قول بعضهم :

تَـرُدِينَ جِلبَابَ الحَيَـاءِ فَلَمْ يَرى لِـذُيُـولِهِنَّ عَلى الـطَريقِ غُبَارُ

والمراد انهن لا يخرجن ولا يمشين وهذا ينبغي أن يكون من باب تنسيق الصفات لكن فيه زيادة واقتضت إفراده .

القسم السادس والخمسون

في الضمائر وما يتعلق بها

اعلم وفقنا الله واياك ان الضمير لا يخلو إما أن يكون معلوماً أو لا يكون كذلك . فالأول تأكيده بضمير آخر ، وعدم تأكيده بذلك سواء في البلاغة كما في قوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الخَيرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾ وذلك لأن قدرة الله تعالى ، وعلمه معلومان فاستوى حذف الضمير المؤكد وثباته معهما .

والثاني الأولى فيه ، والأفصح تأكيد الضمير بضمير آخر ، وذلك إذا أريد تقوية المتعلق به ، وحينئذ إما أن يكون الضميران متصلين أو منفصلين أو أحدهما متصل والآخر منفصل . أما المتصلان فكقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيئاً نُكراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبراً ﴾ وإنما أكد هنا دون قصة السفينة لارادته في قصة الغلام زيادة النكر . . وأما المنفصلان فكقول المتنبي :

فَـإنَّـكَ أَنْتَ أَنتَ وَأَنْـتَ مِنْـهُمْ وَجـدُّكَ بِشـرٌ المَلِكُ الهُـمَـامُ

والغرض المبالغة في زيادة المدح . . وأما إذا كان أحد الضميرين منفصلاً والآخر متصلاً فكقوله تعالى :﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأعْلَى ﴾ وها هنا دقائق . أحدهما الإتيان بلفظة ـ إنّ ـ المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها . وثانيها تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به . وثالثها ذكر ـ الأعلى ـ معرّفاً

يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف عالي وأعلى . ورابعها أن ـ الأعلى ـ بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو . وخامسها حذف لام العلة يفيد زيادة علة لعدم الخوف لأن قوله ـ لا تخف ـ علة لعدم الخوف لأنه نهى عنه واشتقاقه بعد ذلك بقوله : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأعلَى ﴾ ـ منع أيضاً من الخوف لأن الأعلى لا يخاف الأدنى .

القسم السابع والخمسون

الفصل والوصل

وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف والتهدي إلى كيفية ايقاع حروف العطف في مواقعها ، وهو من أعظم أركان البلاغة حتى قال بعضهم : حد البلاغة معرفة الفصل والوصل . . واعلم أن فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه ، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلّا هذا القدر ، وهو الواو ، وهو المراد بالذكر ها هنا والعطف والمعطوف عليه على ثلاثة أقسام : **الأول** : عطف مفرد على مفرد وهو يقتضي التشريك فيما يوجب الإعراب . **الثاني**: عطف الجمل التي في قوة الإفراد ويقتضي التشريك أيضاً . **الثالث** :الجمل التي ليست في قوة المفرد. وهي على قسمين : قسم يكون فيه معنى أحد الجملتين لذاته متعلقاً بمعنى الأخرى ، كما إذا كانت كالتوكيد لها فلا يجوز إدخال العاطف ،لأن التوكيد والصفة متعلقان بالمؤكد والموصوف لذاتيهما والتعلق الذاتي يغني عن لفظ يدل عليه ، فالتأكيد كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنّا باللهِ وباليَوْم الآخر وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِنَ ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وَإذا تُتلى عَليه آياتنا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأنْ لَمْ يَسمَعْها كَأنَّ في أذُنَيهِ وَقراً ﴾ ولم يقل وكأن لأن المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقر التشبيه بمن لا يسمع إلا أن الثاني أبلغ . . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا علَّمناهُ الشِعرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلاّ ذِكرٌ وَقرآنٌ مُبينٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَن الهَوَى إنْ هُوَ إلّا وَحيٌ يُوحَى ﴾ الاثبات في الآيتين جميعاً تأكيد لنفي ما نفي . .

وأما قوله تعالى : ﴿ إنْ هذا الاّ مَلَك كَرِيمٌ ﴾ فيحتمل أن يكون تأكيداً لقوله : ﴿ مَا هَذَا بَشراً ﴾ إذ المرتفع عن البشرية من المخلوقات إنما هو الملك ، ولأن الناس إذا شاهدوا في الانسان من الخلق الحسن والخلق الجميل ما يعجبوا منه ، قالوا : ما هذا بشرٌ لأن غرضهم أن يقولوا أنه ملك ، فلما كان ذلك مفهوماً قبل التصريح به كان التصريح به تأكيداً ، ويحتمل أن يكون صفة له فإن اخراجه عن جنس البشرية يتضمن دخوله تحت جنس آخر لا تحت الملك على الخصوص ، فإن القسمة غير محصورة في النوعين ، فجعله ملكا تعيينٌ لذلك النوع وتمييز له عن غيره . الثاني أن لا يكون بين الجملتين تعلق ذاتيٌّ ، فإن لم يكن بينهما مناسبة فيجب ترك العطف ، ولذلك عابوا أبا تمام في قوله :

لا والـذي هِـو عَـالِمٌ أنّ الـهَـوَى صَـبـرٌ وأنّ أبـا الـحسيـنِ كَـريـمُ

إذ لا مناسبة بين مرارة الهوى ، وبين كرم أبي الحسين . ثم إن كان المحدث عنه في الجملتين شيئين لغير المناسبة في الذي أخبر بهما ، والذي أخبر عنهما والمراد بالمناسبة أن يكونا متشابهين كقولك : زيد كاتب وعمرو شاعر أو متضادين تضاداً على الخصوص ، كقولك : زيد طويل ، وعمرو قصير ، وكقولك العلم حسن ، والجهل قبيح . فلو قلتَ زيد طويل والخليفة قصير أخلَّ المعنى عند السامع إذ لم يكن لزيد تعلق بحديث الخليفة ، ولو قلت زيد طويل ، وعمرو شاعر اختل اللفظ ، إذ لا مناسبة بين طول القامة والشعر . . ، وإن كان المحدث عنه في الجملتين شيئاً واحداً كقولك : فلان يقول : ويفعل فيجب الاتيان بالعاطف فإن الغرض جعله فاعلاً للأمرين ، وترك العاطف يوهم أن الثاني رجوع عن الأول والإجتماع لزيادة الاشتراك كقولك العجب من إنك تنهي عن شيء وتأتي مثله . وكقول الشاعر :

لا تَـطمَعوا أن تَهِينُـونـا وَنُكـرِمَكم وأن نـكُـفَّ الأذى عَـنْـكُـمْ وَتُـؤْذُونَـا

أي لا تطمعوا أن تروا اكرامنا اياكم يوجد مع اهانتكم ايانا ويجامعها في الحصول . . والعاطف تارة يجب اسقاطه ، وتارة يجب كإثباته ، وتارة يخير بين اسقاطه واثباته . . أما الذي يجب اسقاطه ، فهو اذا كان اثباته يخل بالمعنى كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ألا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ فقوله ـ ألا انهم هم المفسدون ـ كلام مستأنف وهو إخبارٌ من الله تعالى ، فلو أتي بالواو العاطفة لكان اخباراً عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسهم بأنهم مفسدون فيختل المعنى ويتناقض الكلام . . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُم إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُن أَللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى ، وفي الحقيقة جواب سؤالٍ مقدر لأنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم قالوا : كيتِ وكيت تشوَّف السامعون إلى العلم بمصير أمرهم ، فكأنه قيل : فماذا فعل الله بهم ؟ فقال : ﴿ أللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم وَيَمدُّهمْ في طُغيانهمْ يَعمَهون ﴾ . . وأما ما يجب اثبات العاطف فيه فقوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ﴾ فان كل واحدة من الجملتين خبر من الله تعالى .

ومثله في القرآن واثباته لا يفيد معنى زائداً . وسيأتي بيان ذلك إن شاءَ الله تعالى .

فصل

يشتمل على ذكر جمل عُطف بعضها على بعض بالواو . والفاء . وثم . واختلاف معانيها

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ يُطعمُني وَيَسقينِ وإذَا مَرضتُ فَهُوَ يَشفِينِ وَالَّذي يَميتُني ثُمَّ يُحيينِ ﴾ عطف أولاً بالواو ، لأن الاطعام والاسقاء ليس فيهما ترتيب واجب مع أن تأخير الإسقاء أولى ، ولذلك أخره في الذكر ، وعطف ثانياً بالفاء إذ لا مهلة بين المرض والشفاء وعطف بثم لما بين الإماتة والاحياء من المهلة ، ومع ذلك نسب الموت الى الله لما في ذلك من إظهار القدرة والقهر ، ونسب المرض إلى نفسه ، لأن الادب أن لا ينسب الى الله تعالى الاّ ما يحمد والموت ، وإن كان مذموماً لكنه عند قاتل هذا محمود لأنه على يقين من السعادة الأخروية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ إنما عطف بالفاء مع أن بين مجيءِ المخاض والحمل مهلة ، لأن المهلة التي بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة قيل كانت يوماً ، وقيل كانت ثلاث ساعات ، وعليه أكثر المفسرين حتى يتميز حملها عن سائر النساءِ ، ويكون ذلك كرامة لها • فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك . . وجميع أفعال المطاوعة إذا كانت على معانيها فإنما يعطف عليها بالفاء ، لا الواو ، وتقول دعوته : فأجاب وأعطيته فأخذ ولا يحسن أعطيته ، وأخذ ولا دعوته وأجاب قال الله تعالى حكاية عن ابليس : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيكم

مِن سُلطَانٍ إلَّا أَنْ دَعَوتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لي ﴾ وكذلك تقول كسرته فانكسر ولا تقول كسرته وانكسر . وأما إذا كان فعل المطاوعة على غير معناه فقد يحسن العطف عليه بالواو كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَن أَغْفَلْنَا قَلبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ . ومن المعطوف بالواو أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا وَإِياكُم لَعَلَى هُدىً أو في ضَلاَلٍ مُبينٍ ﴾ ولو قال لفي هدى ، أو على ضلال لم يحسن لأن ـ على ـ تفيد الإستعلاء ، وهو مناسب للحق ـ وفي ـ تفيد الوعاء والكافر كأنه مغموس في الضلال . . ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ إنَّما الصَدَقاتُ لِلفُقَرَاءِ والمَساكِينَ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفي الرِّقَابِ والغَارِمينَ وَفي سَبِيلِ اللهِ وابنُ السَّبيل ﴾ ما عدل عن اللام في الأصناف الأخيرة الا لبيان أن تلك الأصناف أحق بالصدقات ينبغي أن توضع فيهم وضع الشيء في الوعاء ، وكرر في البيان أن سبيل الله أولى بذلك فتأمله فهو كثير في القرآن .

القسم الثامن والخمسون

في الوصف

والوصف أصله الكشف والاظهار من قولهم ـ وصف الثوب الجسم ـ إذا لم يستره ونم عليه . . وأحسنه ما يكاد يمثل الموصوف عياناً ، ولأجل ذلك قال بعضهم : أحسن الوصف ما قلب السمع بصراً . . ومنه في القرآن العظيم كثير مثل قوله تعالى في وصف البقرة التي أمر بنو اسرائيل بذبحها لما سألوا أن توصف لهم بقولهم : ﴿ أدْعُ لَنَا رَبَّك يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقرةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بكرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ وقوله لما سألوه أن يصف لهم لونها : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنهَا بَقَرةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَونهَا تُسِرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ وقوله لما سألوه بيان فعلها قال انه : ﴿ يَقُولُ إِنهَا بَقَرةٌ لَا ذُلُولَ تُثِيرُ الأرْضَ وَلَا تُسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ فجمع في هذه الآية جميع الأحوال التي يُضبط بها وصف الحيوان فإن الحيوان عند البيع والإجارة وسائر وجوه التمليكات يحتاج فيه إلى معرفة سنه ولونه وعمله ، ثم يفتقر فيه إلى معرفة عيوبه فنفى الله سبحانه وتعالى عن تلك البقرة كل عيب ـ بقوله ـ لا شية فيها ـ فجمع في هذه الآية جميع وجوه الوصف فإنه في الأول وصف سنها وفي الثاني وصف لونها ، وفي الثالث وصف خلقها وعملها . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الجنةِ التي وُعدَ المتقونَ ﴾ أي صفة الجنة التي وُعدَ المتقون كيت وكيت . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ في هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الَّذينَ يُنْفِقُونَ ﴾ الآية . وقوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية . . ومن هذا الباب في القرآن كثير لا يحصى ، وكذلك في السنة النبوية ، وكذلك في الشعر . . ومن بديع ما ورد في الشعر

قول أبي تمام في وصف سحابة :

دِيمةٌ سحت العهاد سُكُوب   مستغيثٌ بها الثَرى المَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقعة لا عظام أخرى   لسَعَى نَحْوَهَا المَكَان الجَدِيبُ

ـ والوصف قريب من التشبيه الاّ أن الفرق بينهما أن التشبيه مجاز والوصف راجع إلى حقيقته وذاته . وفي القرآن العظيم والكلام الفصيح منه كثير .

القسم التاسع والخمسون

تنسيق الصفات بغير حرف نسق

وهو أن تصف الشيء بصفات عديدة متوالية ، إما لتعظيمه ، وإما لتحقيره ، وإما لبيان خصوصية فيه . ومنه في الكتاب العزيز كثير . . أما في التعظيم فمثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذي لَا إِلَـهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ ﴾ الى آخر السورة . وأما في التحقير فكقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشّاءٍ بِنَميمٍ مَنّاعٍ لِلخَيرِ مُعتدٍ أثيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم ﴾ .

وما لبيان الخصوصية واظهار الكرامة فكقوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبَّهُ إن طَلَّقكُنَّ أنْ يُبدِلهُ أَزْوَاجاً ﴾ الآية . ومنه في السنة النبوية قوله صلى الله عليهم وسلم ـ « ألاَ أُخْبرُكُم بأحبكم إليّ وأقْربكُم مِنِي مَجَالسَ يَومَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُم أخلَاقاً المُوَطئُونَ أكْنافاً الَّذينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ » ـ ومن الذم ـ ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون ـ . . ومن هذا النوع في الشعر كثير . من ذلك قول العباس يمدح رسول الله صلى عليه وسلم :

وَأَبْيضَ يَسْتَسْقي الغَمَـامُ بِـوَجْهِـهِ ثمـالُ اليَتَـامى عُصمـةٌ لـلأرَامِـل

ـ وقول حسان :

بِيضُ الـوُجُوهِ كَـريمـةٌ أحسَـابُهُـم شَمّ الأُنُـوفِ مِن الـطِرازِ الأَوّلِ

القسم الستون

حسن النسق

وهو أن تأتي بكلمات من النثر أو النظم متتاليات ومتعاقبات منسوقة بعضها على بعض بحرف العطف ، كل كلمة إذا أفردت كانت تقوم بمعنى مفرد مستقبل ، وكل بيت إذا جرد من تلوه استقل معناه ولم يفتقر إلى غيره ، وإن ضم إليه تلوه صارا كأنهما بيتاً واحداً . . ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وقِيل يَا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أقْلِعي وغِيْضَ الماءُ وَقُضي الأمرُ وَاسْتَوَتْ عَلى الْجودِيّ وَقِيلَ بُعداً لِلقَوْمِ الظَّالمينَ ﴾ فأنت ترى هذه الجمل معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة ، لأنه سبحانه بدأ بالأهم إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها ، ولا يتهيأ لذلك الاّ بانكشاف الماء عن الأرض ، فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالانقلاع ، ثم علم سبحانه أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها ولم تنقطع مادة السماء تأذّى بذلك اهل السفينة عند خروجهم منها ، وربما ينزل من السماء أكثر مما تبتلع الأرض فأمرها بالاقلاع بعد أن أمر الارض بالإبتلاع ، ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ما على الأرض ، وانقطعت مادة السماء ، وذلك يقتضي أن تكون ثالثة الجملتين المتقدمتين ، ثم قال تعالى ـ وقضي الامر ـ أي هلك من قدر هلاكه ونجى من قضيت نجاته وهذا كنه الآية وحقيقة المعجزة ، ولا بد أن تكون معلومة لأهل السفينة ، ولا يمكن علمهم بها إلاّ بعد

خروجهم منها ، وخروجهم موقوف على ما تقدم ، وبذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل ، وكذلك استواء السفينة على الجودي أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقراراً لا حركة معه لتبقى آثارها عبرة لمن يأتي بعد أهلها ، وذلك يقتضي أن تكون بعد ما ذكرنا .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق فدعا الله سبحانه وتعالى على الهالكين وسماهم ووصفهم بالظلم احتراساً من هذا الاحتمال ، وذلك يقتضي أن يكون بعد كل ما تقدم والله أعلم . فانظر إلى حسن هذا النسق كيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء . . وقد حكي أن ابن المقفع العبدي عارض آي القرآن ، فلما بلغ إلى هذه الآية أمسك عن المعارضة وقال هذه الفصاحة التي لا تبارَى ، والبلاغة التي لا يسابق المتكلم بها ولا يجارى ، والقول الفصل الذي لا يختلف فيه ولا يتمارى . وهذا في الشعر كثير . . ومن أحسنه قول ابن شرف القيرواني :

جَـوِرْ عليًّـا ولَا تحفَـل بِحـادِثَـةٍ إذا ادَّرعتَ فَلَا تسْأَلْ عَن الأسلِ
سَلْ عنه وانطِقْ بِهِ وانظُرْ إليه تَجِد مِـلْءَ المسَامِـعِ والأفْواهِ وَالمُقَـلِ

القسم الحادي والستون

المدح والذم

وفي كتاب الله تعالى منه كثير . المدح للمؤمنين . والذم للكافرين . ومدحه هو المدح على الحقيقة . وذمه هو الذم على الحقيقة . . وقد مدح الله تعالى نفسه بقوله : ﴿ أَللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الله أحدٌ أَلله الصمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحدٌ ﴾ حتى قال بعض العلماء لكل أحد نسبة ونسبة الله تعالى - قل هو الله أحد - ومدح الله عز وجل نبيه بآيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناكَ شَهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَداعِياً إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنيراً ﴾ ومدحَ نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في آيات كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذينَ معَهُ أَشِداء عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجّداً ﴾ ومدح المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ التَائبون العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَائِحُونَ الرَّاكِعُون السَاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَن المُنْكَرِ والحافِظُونَ لِحدُودِ الله ﴾ .

وذم سبحانه وتعالى الكافرين بآيات كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ إنّ الذينَ كَفَروا سَواءٌ عَلَيهِمْ أأنذَرْتَهُم أم لَمْ تُنْذِرهُمْ لَا يُؤمِنُون خَتَمَ الله ﴾ الآية . وذم المنافقين بقوله : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بالله وَباليوم الآخر وَما هم بِمؤمنين يُخادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخادِعُونَ إلا أنفسَهم وَمَا يَشْعرُونَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فزادهم الله مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ

أليمٌ ﴾ . . وأما مدح الناس بعضهم بعضاً فينبغي لمن أراد أن يمدحه بألفاظ حسنة مستعذبة واضحة المعنى رائقة اللفظ غير حوشية ولا قلقة ، وأن تكون القصيدة أو الرسالة حسنة المطلع بديعة التخلص عذبة المقطع ، وأن يكثر في وصف الممدوح ونشر مآثره وتعديد مكارمه ونحو ذلك . .

وقد قال قدامة الأوصاف التي يمدح بها اربعة ، الاول : العقل ويدخل فيه الحياء والثبات والسياسة والكفاءة وثقافة الرأي والصدع بالحجة والحلم عن سفاهة السفهاء وأمثال ذلك . الثاني : الشجاعة ويدخل فيها المهابة والحماية والدفاع والاخذ بالثأر والنكاية في العدو ، وقتل الأقران ، والسير في المهامه وأشباه ذلك . الثالث : العفة ويدخل فيها القناعة وقلة الشرَه وطهارة الإزار ونحو ذلك . الرابع : العدل ويدخل فيه السماحة والإطلاق والتبرع بالنائل واجابة السائل وقراء الضيف . ويحدث من تركيب الشجاعة مع العفة إنكار الفواحش ، والغيرة على الحريم . ومع العدل الإتلاف وترك الخلاف . ويحدث من تركيب العفة مع العدل الإسعاف بالقوة والإيثار على النفس ونحو ذلك . . واستوعب زهير الأقسام الأربعة فقال :

أخِي ثِقَةٍ لا تهلك الخمرُ مَالهُ ... وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهلكُ المالَ نائلهُ

وصفه بالعفة لقلة إمعانه في اللذات وبالسخاء ووصفه بالشجاعة والعقل فقال :

وَمن مثْلُ حِصنٍ في الحروبِ ومثله ... لإذهاب ضيمٍ أو لخصيمٍ يجادِله

وأما قوله ـ أخي ثقة ـ فهو وصف بالوفاء ، وهو داخل فيما ذكرناه . . وفي الذم يأتي بأضداد ما تقدم . وقيل أحسن الهجاء ما لا تستحي العذراء من انشاده . وقيل في الذم أن تأتي بالألفاظ المنكية ، والمعاني

المشجية والمقاصد المؤلمة المبكيـة ، ويتوخى أقبـح معائب المهجـوّ وأعظم وجوه الإزدراء به ، ولهذا المعنى حرَّمه الله ورسوله وعم بالذم والانكار كل من يحفظه أو يقوله .

القسم الثاني والستون

الحمد والشكر

وقد اختلف العلماء فيهما ، فقال قوم وهم الجمهور : الحمد هو ذكر ما في الانسان من المآثر الحسنة والصفات المستحسنة والشكر ثناء يقصد به مجازاة المنعم . . وقال بعض أهل العلم ان الحمد وصف الحلال كقول الخنساء أخت صخر :

وَمَا بَلَغْت كَفُّ امرىء متناولا ... من المجدِ إلّا وَالَّذي نلتَ أطولُ
وَمَا بَلَغَ المَهدونَ لِلناس مِدْحةً ... وَإن أطنبوا إلا التي فيك أفضلُ

والشكر وصف الأفعالْ كقول الشاعر :

وانكُمْ بقية حيّ قيس ... وهضبتُهُ التي فوقَ النصابِ
تبارونَ الرياح إذا تبارت ... وتمتنُّون أفعالَ السحابِ
يذكرني مقامي في ذراكم ... مقامي أمس في ظلّ الشباب

وقيل ان الحمد والشكر سواءٌ . وقال أهل اللغة ـ حمدتُ الرجلَ ـ اذا شكرتَ له صنيعه ـ وأحمدته ـ إذا وجدته محموداً . . وقال ابن الانباري ـ حمد ـ مقلوب مدح ، وقد قيل كيف يكون الحمد والشكر سواء والحمد نقيضه الذم والشكر نقيضه الكفران ، والذي أختاره أن الحمد أعمُّ من الشكر ، وانه قد يحمد الشخص على ما فيه من الأخلاق الجليلة والصفات الجميلة ، ويحمد على حسن خلقه من الصباحة والجمال

والكمال ويحمد على ما فيه من الفصاحة والبلاغة والنجابة ، ويحمد على كثرة انعامه واحسانه والشكر ، إنما يكون للمنعم عليك فقط ، فإذا حمدت أحداً إن نويت بالحمد الشكر له على ما اسدى إليك من الانعام والإحسان ، كان هذا الحمد هو الشكر لأنه مجازاة لصنيع ومكافأة لاحسان فقد اتيت بأعلى درجات الشكر هو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله الحمد رأس الشكر ، وهو الذي يجوز إطلاقه على الشكر ، وإطلاق الشكر عليه ، وإن أردت بالحمد الثناء على صفاته الجميلة الكاملة التي خلقه الله عليها ، فهذا اخو المدح ، وهو اعلاه ويجوز إطلاقه على المدح وحسن الشيم والخلال والثناء عليه بما أسدى إليك وإلى غيرك من الانعام والإفضال ، فهذا هو الحمد الكامل ، ولا يجوز أن يطلق عليه الشكر والمدح ، فهذا هو الحق . . وقد تكلم المفسرون في الحمد والشكر والفرق والجمع بينهما وبين المدح ، ومن علم ما ذكرته هنا سهل عليه الاختلاف والائتلاف ، والله الموفق للصواب لا رب غيره .

القسم الثالث والستون

تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهو كقولهم : بحار العلم إلا أنهم جبال الحلم . . ومنه قول بديع الزمان :

هَـوَ البَدْرُ إلاّ أنـه البَحـرُ زاخـراً سِوَى انهُ الضِـرْغَامُ لَكِنّـهُ الوَبـلُ

وهذا من نوع الغلوّ والإغراق ، وسيأتي بيانه عقيب هذا القسم ان شاء الله تعالى . وهذا النوع في القرآن كثير .

القسم الرابع والستون

المبالغة وتسمى الافراط والغلوّ والايغال ومعنى هذه الاسماء متقاربة وبعضها أرفع من بعض

قال علماء علم البيان : المبالغة الزيـادة على التمام ، وسميت مبالغة لبلوغها إلى زيادة على المعنى لو أزيلت تلك الزيادة وأسقطت كان المعنى تاماً دونها ، لكن الغرض بهـا تأكيـد ذلك المعنى في النفس وتقريره . . وفي القرآن العظيم والكلام الفصيح والأشعار منه كثير . . أما الكتاب العزيز فقوله تعالى : ﴿ إذ جاؤكم مِنْ فَوْقِكم وَمِنْ أسفَلَ مِنْكم وإِذ زَاغَتِ الأَبصارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ وَتَظُنُّون بِالله الظُّنُونَا ﴾ .

ومنه قوله تعـالى : ﴿ وَقَـدْ مَـكَرُوا مَـكْرَهـم وَعِندَ الله مَـكرُهُـمْ وإنْ كَانَ مَـكْرُهُمْ لتَزُولَ مِنهُ الجِبَالُ ﴾ وقد قيل إن هذه الآية ليست من باب المبالغة بل حكاية عما وقع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَمَوات يَتَفَـطَّرْنَ مِنهُ وتنشَقُّ الأرض وتخرُّ الجِبَالُ هَدًّا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَو أن قُرآناً سُيِّرَت بِهِ الجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرضُ أَوْ كلِّمَ بِهِ المَوْتى ﴾ الآية . . وأما الكلام الفصيح فقد رُوي عن العرب أنهم قالوا فلان يهُدّ الجبال ويصرع الطير ويفزّع الجن ويزوي الماء . .

وقال بعض العرب في فرسه ـ يحضر ما وجد أرضاً ، وإن الوابل

ليصيب عجزه ولا يبلغ معرفته حتى أنال حاجتي - . وذم اعرابي رجلاً فقال - يكاد يعدي لؤمه مُن تسمى باسمه - . وقالت سكينة - ما لبستْ بنتي الدرَّ إلاّ لتفضحه - ومنه في الشعر كثير . . فمن ذلك :

أضاءَتْ لَهم أحسابُهُمْ ووجُوهُهُمْ دُجى اللَّيلِ حَتى نظّم الجزْعَ ثاقِبه

وقال المتنبي :

لَقِيتُ الرَّوابي والشَنَاخَيبَ دُونَهُ وَجَبْتُ هجيراً يَتْركُ الماءَ صَادِيا

وقال آخر :

لَو كَان يَقعُدُ فَوقَ النَّجْمِ مِن كَرَمٍ قَومٌ لقيلَ اقعدُوا يا آلَ عباسِ

وقال آخر :

فَكُنْتُ إذَا جِئْتُ لَيلى بِأَرْضِهَا أرَى الأرضَ تطوَى لي ويَدْنو بعيدُها
من الخفِرَاتِ البيضِ وَدّ جَليسُها اذا ما مضتْ أحدُوثةٌ لو تُعيدُها
وكيف يَوَدُّ القلبُ مَن لا يَوَدُّهُ بلى قد تريدُ النفسُ من لا يُريدُها

- وقال آخر :

وَحَديثها السِحْرُ الحَلاَلِ لو انهُ لم يُجن قتلَ المسلمِ المتحرِّزِ
إن طال لم يُملَلْ وانْ هي أوجزَتْ وَدَّ المحدّثُ أنها لم توجزِ
شرَكُ النفوسِ ونزهةٌ ما مثلُها للمطمئنّ وعُقْلَةُ المستوفِزِ

والاشعار في هذا الباب كثيرة لا تحصى :

القسم الخامس والستون

الرثاء والتعزية

فأما الرثاء فهو مدح الميت بما كان فيه من المناقب المذكورة والمحاسن المأثورة . ومنه قوله تعالى في حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَتَرَكْنا عَلَيه في الآخرين سَلامٌ على إبْراهيمَ كَذلِكَ نجْزي المحْسِنِينَ إنَّه مِنْ عِبادِنا المُؤمنينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنّ ابْراهيمَ كَانَ أُمَّةً قَانتاً لله حَنيفاً وَلَمْ يَكُ مِن المُشْركينَ ﴾ . وقوله تعالى في حق نوح عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَتَرَكْنا عَلَيه في الآخِرين سَلَام عَلى نُوح في العالمين إنه مِن عِبَادِنَا المؤمِنينَ ﴾ . . وأما التعزية فهو ان يذكر ما يتوصل به الى تسلية مخلفي الميت وتصبيرسم واطفاء نارِ ثكلهم . وفي القرآن من ذلك كثير وهي كثيرة في أشعار المتقدمين والمتأخرين . . أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ ا َ ٰ ُ حَمدٌ إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُسُلُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وكأيِّنْ مِن نَبيّ قَاتَلَ مَعهُ رِبّيّون كثير فما وَهَنوا لما اصابهم في سبيل الله وَمَا ضَعُفوا وَما استكانُوا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أينَمَا تَكوُنوا يُـدْرِكْكُم الموتُ ولَـو كُنْتُم في بروج مُشيَّـدةٍ ﴾ وقولـه تعالى : ﴿ وَالَّذينَ إذا أصَابَتْهُمْ مُصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعونَ أُولَئِك عَلَيهِمْ صَلواتٌ مِنْ رَبهم ورَحْمـةٌ وأولئك هُمُ المهتـدون ﴾ . وقولـه تعالى : ﴿ وَلَئِنْ صَبرتمُ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينَ ﴾ وأما الأشعار فقد ورد منها في هذا

كثير لا يحصى . . فمن أحسن ذلك قول بعضهم :

مضى ابنْ سَعيدٍ حيثُ لم يَبقَ مشرقٌ ولا مغـربٌ إلا لَـهُ فِيـهَ مـادحُ
وَمَا كُنتُ أدري مَا فَواضِلُ كفّـهِ عَلى النَّاس حَتى غيَّبتُه الصفائحُ
وَأصْبَحَ فِي لحدٍ مِنَ الأرْضِ مُفرَداً وَكَانَتْ بهَ حَياً تُضَيقُ الصَحَاصِحُ
لَئِنْ عَـظُمَتْ فِيـهِ وَحسنُـهـا لَقَدْ عَظُمتْ مِن قبْلُ فِيهِ المَدَائحُ

- ومن بديع التعزية قول بعضهم :

أيتها النفسُ أجملي جَـزَعـاً إنْ الـذي تحـذرين قَـدْ وَقَعَا

- وقول بعضهم :

قِسْمَـةُ الموتِ قِسمـةٌ لاَ تَجُورُ كُلُّ حيٍّ بكَاسِهَا مخمورُ

- وقول الخنساء :

يُـذَكّرُني طلوعُ الشَّمْسِ صَخْـراً وَأندُبهُ لِكُـلِ غُـروب شَمْسِ
ولولا كَثَرةُ البَاكِينَ حَوْلي عَلى إخوانِهمْ لَقَلْتُ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَـا يَبْكُـون مِثْـل أخي وَلَكَنِ أُسَلِّي النَّفْسَ عَـنْـهَ بِـالتَـأسّـي

القسم السادس والستون

في الشكاية

وهي في القرآن على قسمين : ملفوظ بها . وغير ملفوظ بها . . أما الملفوظ بها ففي قوله تعالى : ﴿ إنَّما أشكو بَثي وَحُزْني إلى الله ﴾ . .

ومن الشعر قول بعضهم :

إلى اللهِ أشكو لَا إلى النَّاسِ أنني   أرى الأرضَ تُطوَى والأخلاَّءُ تذهَبُ

ـ وقال آخر :

وَلاَ خَيْرَ فِي شَكوَى إلى غَيرِ مُشتكى   وَلاَ بُدّ مِن شَكْوَى إذا لَمْ يَكُنْ صبرُ

ـ وأما غير الملفوظ بها ففي القرآن منه كثير . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إنّ القَومَ اسْتَضْعَفُوني وَكَادُوا يَقتلونني ﴾ . وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إني دَعوْتُ قَوْمي لَيلاً وَنَهاراً فَلَم يزدْهُمْ دُعَائِي إلاّ فِراراً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إسراراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وأفوّضُ أمري إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبادِ ﴾ ومثله في القرآن كثير وفي الشعر كثير . . فمن بديعه قول الشاعر :

يـا إلٰهي قـد أَثْقَلَتني الـذُنـوبُ   فـاعْفُ عني فَالعَفـوُ مِنكَ قَـريبُ
وَتَجَاوَزْ عَنْ مُـذنبٍ بخـطَايـا   ه عَن الخَيـرِ قلبـهُ مـحجـوبُ

كُل يَوم يَمْضِي عَلَيهِ وَيذْري   إنَّهُ من حَياتِهِ مَحْسُوبُ
وَهُوَ في غَفْلَةٍ بِعَيدٌ مِن الخَـ   ـيرِ قَرِيبٌ منه الخُطَا والذُنُوب

ـ ومن بديعه أيضاً قول بعضهم :

يا من يُناجي بالضميرِ فيسمعُ   أنتَ المُعَدّ لِكلّ ما يُتوقع
يا مَن يُناجي لِلشَدائِدِ كُلِّهَا   يَا مَنْ إليْهِ المُشتَكى وَالمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزائِنُ جُودِهِ في قَولِ كُنْ   امنن فَإن الفَضْلَ عِنْدَكَ أجمعُ
ما لي سِوىَ قَرعي لِبَابِكَ حِيلةٌ   فَإِذَا رَدَدْتَ فأيَّ بَاب أقرُعُ
ومَن الذي أدعُو واهتُفُ باسمِهِ   إنْ كَانَ بِرُّكَ عن فَقِيرِكَ يَمْنَعُ
حَاشَى لِجُودِكَ أنْ يَقْنُطَ رَاجياً   الفَضْلُ أجزلُ والمَواهِبُ أوسَعُ

ـ وفي هذا الباب أشعار كثيرة لا تحصى :

القسم السابع والستون

الحكاية

وهو ان يحكي كلام المتكلم ، اما بلفظه أو بمعناه والقرآن العظيم مشحون بذلك . وهو على قسمين : ظاهر . ومقدر . . أما الظاهر فكما حكاه الله سبحانه وتعالى من قول الملائكة : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسفكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وقَالَتِ اليَهُودُ لَيستِ النَّصَارَى عَلى شيءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى ﴾ وكذلك كل ما حكاه الله تعالى من أقوال القرون الخالية والأمم الماضية . وأما المقدر فكقوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنةٍ فَمِنَ اللهِ ومَا أَصَابَكَ مِن سَيئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ التقدير يقولون ـ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ـ دليل ذلك انه ردّ عليهم بقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِن عِنْدِ اللهِ فَمَا لِهؤُلاءِ القَومِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ ومثله في القرآن العظيم كثير .

القسم الثامن والستون

الاقتضاء

وَهو طلب الموعود بالوعد السالف . وهو على ضربين : حسن وخشن . فالحسن مرغوب فيه ، لأنه يحصل المقصود وينجز الموعود . . وأما المذموم فهو سبب الحرمان وحسم لمادة الاحسان . وقد وقع منه في الكتاب العزيز القسمان . . أما الحسن فمثلُ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنا وَآتنا مَا وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنا يومَ القِيامَةِ إنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَاد ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ احكم بالحق وَربنا الرَّحمن المستعانُ على ما تصفون ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنا أفرِغْ عَلَيْنا صَبراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلى القَوْمِ الكَافِرينَ ﴾ استنجزوا وعده الكريم وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقاً عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنينَ ﴾ . . وأما الخشن فورد منه في القرآن كثير أيضا . فمنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِن عِنْدِكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حِجَارةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قبل يَومِ الحِسَابِ ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ . وفي الشعر منه كثير :

القسم التاسع والستون

التذكير

وهو التنبيه لمن غفل أو سهى عن شكر نعمة أسديت إليه ، وممن أزلفت لديه نسيها أو تناساها لتقوم عليه حجة المنعم ، وليوقظ من نوم غفلته في ليل نسيانه أو تناسيه المظلم . وفي الكتاب العزيز منه كثير من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيكم وَإني فَضَّلْتُكُم على العَالَمِينَ . اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكم إِذْ جَعَلَ فِيكُم أَنْبِياء وَجَعَلَكُم مُلوكاً وَآتَاكُم مَا لَم يُؤتِ أحداً من العَالَمِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فقُولا لَهُ قَوْلاً ليناً لعله يَتَذَكرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ومعناه لعله يتذكر سترنا له وانعامنا عليه في أمر النيل إذ تضرع الينا ، فأجرينا له النيل لما التمس قومه منه إجراء النيل ، أو يخشى انتقامنا منه في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق . . والفرق بين الاقتضاء والتذكير أن التقاضي لاستبعاد حصول المطلوب لطول مدة انتظار المرغوب . والتذكار إنما يكون عن غفلة أو نسيان كقول بعضهم :

جئتك لِلأذْكَارِ مُسْتحرضاً   لا لتقاضيكَ وَحُوشِيتا
وَلَستَ بالمهمِل لَكِنَّمَا   لِكَثْرةِ الأشْغَالِ أنْسِيتا

القسم الموفي السبعين

الوعد والوعيد

أما الوعد فهو اطماع بإحسان في المستقبل ، وهو على قسمين متحقق الوقوع ، وهو وعد الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادُ ﴾ ووعد مرجو وقوعه ، وهو وعد العباد . والوعد يكون في الخير والشر ، لكن استعماله في الخير أكثر قال الله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبادَهُ بِالغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعدُه مأتياً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ ويأمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنهُ وَفَضْلاً ﴾ . وفي هذه الآية شاهد للمعنيين . وقد ورد في القرآن العظيم وفي الشعر منه كثير . أما القرآن فمنه ما قدمناه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُم اللهُ مَغَانِمَ كَثيرةً تَأْخُذُونَها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلى رُسُلِكَ ﴾ . .

وأما الوعيد فهو تخويف بسوءِ المجازاة في المستقبل تحذيراً من الوقوع في المخالفات . وفي القرآن العظيم منه كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم مِن قَبْلُ أنْ نَطْمِسَ وجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُم كَمَا لَعَنَّا أصحابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُل مُؤْمِناً متَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً

فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدّ لَهُ عَذَاباً عظِيماً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نَارُ جَهنَّمَ لاَ يَقْضِي عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّف عَنْهُم مِن عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزي كلّ كَفُور ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِير ﴾

القسم الحادي والسبعون

العتابُ والانذار

وهو دليل بقاء المودة ودوام عقد الالفة والصحبة . والغرض به إزالة ما في النفوس من الوحشة ، لأن بجريانه يظهر ما في القلوب من آثار الجناية ، ويبدو ما في البواطن من تأكيد أسباب العناية إذ لولا بقاء المودة الخفية لحلت القطيعة بالكلية ، ولم يحتج إلى عتاب ، ولم يرغب في الأعتاب ولهذا قيل :

* وَيَبقى الوُدّ ما بقيَ العِتَابُ *

ومنه في القرآن العظيم كثير . . فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أنْ جَاءَهُ الأعْمَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكيمٌ ﴾ . . وفي القرآن من جميل العتاب شيء كثير . .

وأما الانذار ففي القرآن منه كثير لا يحصى . فمنه قوله تعالى : ﴿ إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأنذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنذِرْهُمْ يَومَ الآزِفـهِ إذ القُلوبُ لدَى الحَنَـاجرِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذ قُضيَ الأمرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

القسم الثاني والسبعون

الاعتاب

وهو رجوع الانسان عما عتبت عليه بسببه يقال : عتبته فاستعتب أي أرجعته فارتجع . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّار مَثْوًى لَهُمْ وإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ بِمُعْتِبِين ﴾ . وفي الحديث : « اما مُحْسِناً فَيَزْدَادُ وإمَّا مُسيئاً فَيَسْتَعْتِب » . . ومنه قول الشاعر :

عَتبتُ عليه فَما أعْتَبا وَعَنْهُ اعتَذَرْتُ وَقَدْ أَذْنَبا

القسم الثالث والسبعون

الاعتذار

وهو التوسل إلى محو الذنب وإزالة أثر الجرم مأخوذ من قولهم اعتذرتِ المنازل اذا درَستْ . . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعتَذِرُونَ إليكُم إذا رَجعُتُم إلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَإذْ قَالت أمَّةٌ مِنهم لِمَ تَعِظونَ قَوْماً اللهُ مُهلِكهمْ أو مُعذِّبهم عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعذرةً إلى رَبّكُم وَلَعَلَّهُم يَتقُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ تبرَّأنا إليْكَ مَا كَانُوا إيَّانا يَعْبُدُونَ ﴾ .

القسم الرابع والسبعون

تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل

يُفعل ذلك لضرب من المبالغة . وفي القرآن العظيم منه كثير . . فمن بديع ما جاء منه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلقي وَإمّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِين ﴾ قولهم ـ يا موسى إما أن تلقي ـ تخيير منهم له ، وحسن أدب راعوه معه ، كما يفعل أرباب الصناعات إذا تلاقوا في تقديم بعضهم على بعض ، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال ، وإنما قالوا ـ وإما أن نكون نحن الملقين ـ ولم يقولوا وإما أن نلقي كما قالوا ـ يا موسى إما أن تلقي ـ لرغبتهم في أن يلقوا قبله وتشوفهم إلى التقدم عليه ، وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل . . ومما يجري على هذا المنهاج قوله عز وجل : ﴿ فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلى ﴾ فتوكيد الضمير هاهنا في قوله ـ لا تخف انك أنت الأعلى ـ نفي الخوف من قلب موسى ، وأثبت في نفسه الغلبة والقهر ولو قال : لا تخف إنك الأعلى أو ـ وأنت الاعلى ـ لم يكن في التأكيد لنفي الخوف من قلب موسى كما له من القوة في تقرير الغلبة ، ونفي الخوف بقوله ـ إنك أنت الاعلى ـ وذلك لأن في هذه الثلاث كلمات وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ ست فوائد . الاولى إنّ المشددة التي من شأنها التأكيد لما يأتي بعدها كقولك : زيد قائم ، ثم تقول إنّ زيداً قائم ففي قولك إن زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد ،

والتقرير له ما ليس في قولك زيد قائم . الثانية تكرير الضمير في قوله تعالى ـ انكَ أنت ـ ولو قال فأنت الأعلى لما كان بهذه المثابة من التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره . الثالثة : لام التعريف في قوله ـ الأعلى ـ فلو قال إنك أنت أعلى فَنَكَّرَهُ وكان صالحاً لكل واحد من جنسه كقولك رجلٌ فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال واذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علماً فيهم .

وكذلك قوله ـ إنك أنت الاعلى ـ أي أنت الأعلى دون غيرك . الرابعة :لفظ أفعل الذي هو من شأنه التفضيل ، ولم يقل العالي . الخامسة : اثبات الغلبة من عالٍ . السادسة : الاستئناف في قوله ـ انك أنت الاعلى ـ ولم يقل لأنك أنت الاعلى ، لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه ، لأنه عال وإنما نفى الخوف عنه أولا بقوله ـ لا تخف ـ ثم استأنف الكلام بقوله ـ إنك أنت الاعلى ـ فكان ذلك أبلغ في تقرير الغلبة لموسى عليه الصلاة والسلام واثبات ذلك في قلبه ونفسه . فهذه ست فوائد في هذه الكلمات الثلاث فانظر أيها المتأمل إلى هذه البلاغة العجيبة التي تحيّر العقول وتذهب الألباب ومعجز هذا الكلام العزيز الذي أعجز البلغاء وأفحم الفصحاء ورجّل فرسان الكلام .

فإن قيل : لو كان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه في كتابه حيث هو أحق بما هو أبلغ من الكلام ، وقد رأينا في الكتاب العزيز مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فما الموجب لذلك ان كان تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه من الاقتصار على أحدهما دون الآخر ، فقد كان يجب عند ذكر الله تعالى نفسه ، لأنه أحق بالأبلغ من العلاء ، وإن كان الأمر بخلاف

ذلك فكيف قلنا أن توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ ؟

الجواب : عن ذلك انا نقول : توكيد المتصل بالمنفصل إنما يرد في الكلام لتقرير المعنى واثباته في الذهن وما يختص بالله تعالى لا يفتقر إلى تقرير ولا اثبات ، لأنه إذا قيل عنه انه على كل شيء قدير ، لم يحتج في ذلك إلى توكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير ، بل علم وعرف أنه على كل شيء قدير ، وأن قدرته جارية على كل مخلوق ، فصار هذا من الأمر المعروف الذي لا يعتريه شك ، ولا يعترضه ريب ، وما هذا سبيله في الوضوح والبيان فلا حاجة فيه إلى التوكيد إذ كان التوكيد من شأنه التقرير للمعنى المرأد اثباته في النفس ، وكون الله سبحانه على كل شيء قدير ثابت في النفوس ، فلم يحتج إلى تقرير واثبات .

فإن قيل : فقد ورد في القرآن العزيز عند ذكر الله تعالى نفسه التأكيد بالضمير المنفصل للضمير المتصل كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابن مَريمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمِيَ إِلَهين مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ كما انك على كل شيء قدير . فما السبب في هذا ، وهلا كان الجميع شرعاً واحداً ؟

فالجواب على ذلك : إنا نقول توكيد الضميرين أحدهما بالآخر في هذه الآية لا ينقص علينا ما أشرنا اليه أولا ، لأنه إن وقع الاقتصار على أحدهما دون الآخر ، فإن القول في ذلك ما تقدم في الآية الأولى ، وإن جيء بهما معاً ، فإن ذلك أبلغ في بَابهِ وآكد ، والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد . ولنمثل لك في استعمال الضميرين معاً والاقتصار على أحدهما دون الآخر مثالاً تتبعه فنقول : إذا كان المعنى المقصود أمراً معلوماً قد ثبت في النفس ورسخ في الالباب ، فأنت بالخيار بين أن توكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه ، وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر ، لأنك إن وكدت الكلام فيه أعطيت المعنى حقه ، وإن لم

توكد فإنه لا يحتاج إلى تأكيد لبيانه وظهوره ، فإن كان المعنى المقصود خفياً ليس بظاهر ولا معلوم فالأولى توكيد أحد الضميرين بالآخر لتقرره وتكسبه وضوحاً وبياناً . ألا ترى إلى قوله لموسى عليه السلام ـ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ـ فإنه كان ظهور موسى عليه السلام على السحرة وقهره لهم أمراً مستقراً في ضمن الغيب لا يعلم ولا يعرف ، وأراد الله عز وجل أن يخبره بذلك ليذهب عنه الخوف والحذر بالأبلغ من الكلام ، ليكون ذلك أثبت في نفس موسى وأقوى دليلاً عنده في انتفاء الخوف عنه ، فوكد الضمير المتصل بالمنفصل ، فجاء المعنى كما ترى ، ولو لم يؤكد كان ذلك أيضاً اخباراً لموسى عليه الصلاة والسلام بنفي الخوف عنه واستظهاره على السحرة ، ولكن ليس له من التقرير في نفس موسى عليه الصلاة والسلام ما لقوله إنك أنتَ الاعلى فاعرف .

وَعلى نحو من ذلك قوله تعالى ـ قالوا يا موسى إما أن تلقي ، وإما أن نكون نحن الملقين ـ فإن ارادة الإلقاء قبل موسى لم يكن معلوما عنده ، لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقالة خطابهم لموسى إلى ما هو توكيد ما هو لهم بالضميرين علم أنهم يريدون التقدم عليه ، والإلقاء قبله لأن من شأن مقابلة خطابهم لموسى عليه الصلاة والسلام بمثله أن يقولوا : إما أن تلقي ، وإما أن نلقي لتكون الجملتان متقابلتين ، فحيث قالوا عن أنفسهم ـ وإما أن نكون نحن الملقين ـ استدل بذلك على إرادتهم الإلقاء قبله فهذه معان لطيفة ورموز غامضة ، لا ينتبه لها إلاَّ الفطن اللبيب فاعرفها .

القسم الخامس والسبعون

الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الإسمية المؤكدة بإنّ المشددة وتفضيل إحداهما على الأخرى

وذلك كقولنا قام زيد وان زيداً قائم ، فقولنا قام زيد معناه الإخبار عن زيد بالقيام ، وقولنا إن زيداً قائم إخبار عن زيد بالقيام أيضاً إلّا أن في الثانية زيادة ليست في الأولى ، وهي توكيده بأن المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها من الكلام . . ومن هذا النحو قوله تعالى : ﴿ وَإذَا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإذَا خَلَوْا إلى شَياطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُم إنَّما نَحْنُ مُستهزؤ ن ﴾ فإنهم انما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بأن المشددة فقالوا في خطاب المؤمنين ـ آمنا ـ ولاخوانهم ـ إنا معكم ـ لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أجزوا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر ، والبُعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط ، وكان ذلك متقبلا منهم ورائجاً عند اخوانهم وما قالوه للمؤمنين ، فإنما قالوه تكلفاً واظهاراً لايمان خزياً ومداجاة ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوا بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عندهم إلّا رواجاً ظاهراً لا باطناً ، ولأنهم ليس لهم من عقائدهم باعث قويٌّ على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به اخوانهم من العبارة المؤكدة ، فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين بخلاف ما قواله في خطاب اخوانهم ، وصرّحوا في كلامهم لإخوانهم أن ما خاطبوا به

المؤمنين إنما هو هزء فقالوا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِؤُنَ ﴾ .. وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية لا توجد في نوع من الكلام العربي الّا في القرآن الكريم ، وما أكثر ذلك وأمثاله في آياته وأوفره مودعاً في غضونه فاعرفه وقس عليه ترشد .

القسم السادس والسبعون

في لام التأكيد

اعلم وفقنا الله وإياك أن علماء علم البيان وعلماء العربية اتفقوا على أن هذه اللام تدخل في الكلام لنوع من المبالغة وذلك أنهم اذا عبروا عن أمر يعز وجوده أو يعظم أمر احداثه ووقوعه جيء بها محققة لذلك وشاهدة . . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيتُم مَا تَحْرَثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حطاماً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيتُم المَاءَ الَّذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُم أَنْزَلتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَولاَ تَشْكُرُونَ ﴾ ألا ترى كيف دخلت اللام في آية المطعوم دون آية المشروب ، وإنما جاءَت كذلك لأن جعل الماءِ العذب ملحاً ليس بعظيم ، ولأن كثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة والمرارة ، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق ، وأما المطعوم فإن جعله صعب ، فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره ، وتقرير ايجاده . وكونه هكذا يفعل بكل كلام فيه نوع خصوصية .

القسم السابع والسبعون

في الإقتصاد والإفراط والتفريط

قال ابن الاثير رحمه الله : الاقتصاد أن يكون المعنى المضمن في العبارة على حسب ما يقتضيه المبر عنه في منزلته .. وأما التفريط والإفراط فهو أن يكون المعنى المضمن في العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه ، إمَّا لانحطاطه دونها وهو التفريط ، وإمَّا تجاوزاً عنها وهو الإفراط لأن أصل التفريط في وضع اللغة من فرط في الأمر إذا قصر فيه وضيعه ، وأصل الافراط في وضع اللغة من أفرط في الأمر إذا تجاوز عنه .. والتفريط عيب في الكلام فاحش كقول الأعشى :

وَمَا مَزبدٌ من خَليجِ الفرا تِ جَوْنٍ غواربُه تلتطِمْ
بأجوَدَ منه بماعُونهِ إذا ما سَماؤهمُ لم تَغِمْ

فإنه قد مدح ملكا يجود بماعونه ـ والماعون ـ هو كل ما يستعمل من قدوم ، أو فاس أو قصيعة ، أو قدر ، وما أشبه ذلك فلا سبيل إلى جعله مدحاً البتة ، بل هو إلى الذم أقرب منه إلى المدح ، فهذا من أقبح التفريط فاعرفه . وأما الإفراط فهو بمنزلة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن رجلاً جاءه فكلمه فقال ما شاء الله وشئت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أجعلتني لله ندًّا ، قُل ما شَاء الله وحده .. ومن هذا الباب قول عنترة :

وأنـا المنيّـةُ في المـواطنِ كلّهـا   والـطعنُ مِنـي سَـابقُ الآجـالِ

فإن الطعن لا يسبق الأجل ، لأن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر بالياء باثنتين من تحتها وهو أقرب أمراً من كونه بالباء الموحدة غير أن كليهما افراط . . واعلم أن علماء علم البيان في استعمال الإفراط على ثلاثة أضرب . فمنهم من يكرهه ولا يراه صوابا كأبي عثمان الجاحظ فيما روي عنه ، ومنهم من يختاره ويؤثر كقدامة بن جعفر الكاتب ، فإنه كان يقول الغلوّ عندي أجود المذهبين فإن أحسن الشعر أكذبه . ومنهم من يذهب إلى التوسط بين الغلوّ والتفريط وهو الاقتصاد ، وذلك أن يجعل الغلوّ وهو الافراط مثلاً ، ثم يستثنى فيه بأو ، أو يكاد أو ما جرى هذا المجرى ، فيدرك مراده ويسلم من عيب عائب أو طعن طاعن ، وذلك كقول بعضهم في مدح الحسين :

يَكـادُ يُمسِكـهُ عِـرفـانَ رَاحَتِـهِ   رُكنُ الحَطيمِ إذا مَا جَاءَ يَسْتَلمُ

ـ وكقول أبي عُبَادَة البحتري :

وَلـو أنّ مُشتـاقـاً تَكَلّفَ فـوقَ مَـا   في وُسعـهِ لَسَعَـى إليـكَ الـمِنبَـرُ

وهذا المذهب المتوسط أليق المذاهب الثلاثة وأدخلها في الصنعة فاعرفه .

قال المصنف عفا الله عنه : أما الاقتصاد والافراط فقد ورد في الكتاب العزيز منه شيء كثير ، وقد تقدم بيانه ، وأما التفريط فليس في القرآن منه شيء .

القسم الثامن والسبعون

الغزَلْ

وهو من محاسن النظم ، والغزل التصابي ، والاشتهار بمودة النساء ، ولهذا قال بعضهم :

أيَّامَ تَدْعُونَني الشَّيْطَانَ مِن غَزَل وَكُنْ يَهوِيَنني إذ كُنْتُ شَيْطَاناً

واشتقاقه من الرقة لأن المتغزل يرقق ألفاظه حتى يستميل بها القلوب ويعدها للرسائل ، والوسائل بين المحب والمحبوب . وينبغي أن تكون ألفاظه مُستعذبةً ومعانيه مُلهية مُطربة . وينبغي أن يكثر فيه من ذكر الإجرع والحمى . ولعلع . والتقى . وطويلع . وقبا . والعقيق . وحاجز . والمنحنى وما أشبه من الألفاظ مثل ذكر المنازل التي تترشف ذكرها القلوب ، وتصبو إليها النفوس من غير أن تراها ، وكذلك يُكثر فيه من ذكر الحنين والتشويق والتحزين . وقد يحتاج في بعض المواضع إلى ذكر الكرم والشجاعة والفصاحة والبراعة ليميل بذلك قلب المحبوب ، ويكون مدعاة إلى نيل المطلوب ألا ترى إلى قول بعض الشعراء :

يَوَدُّ بأن يُمسي عَلِيلاً لَعَلَّهَا إذا سَمِعَتْ مِنهُ بِشَكْوَى تُراسِلُهُ
وَيَهتزُّ لِلْمَعْروفِ في طَلبِ العُلى لِتَحْمَدَ يَوماً عَنْدِ سَلمَى شَمائِلُهُ

ـ ومثل قول المتنبي :

أَيقنتُ أنّ سَعِيداً آخذٌ بدمي لمَّا بَصرتُ بهِ بالرُّمحِ مُعتقلاً

اراد انها اذا رأته على هذه الصورة المليحة هويته ، فنالها من هواه كما نال المتنبي من هواها ، فكأنه أخذ بثأره .. ومنه قوله في هذه القصيدة أيضاً :

عَلَّ الأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لي   إلى التي جَعَلَتْني في الهَوَى مَثَارُ

يشير إلى أنها إذا أحبت الامير عَلمتْ مقدارَ المحبة وعزت من يحبها كما قيل :

إنَّمَا يَرحَمُ المُحِبُّ المُحِبُّو   ن وَيَحْنُو عَلى المشُوقِ المُشوقُ

والقرآن العظيم من جملة إعجازه كثرة الشجا ، وترقيقه للقلوب واستمالته للنفوس بحيث أنه لا يسمعه أحد الاّ ومال إليه قلبه وامتلأت به جوانحه وانطوت على مثل جمر الغضا ضلوعه وجرت على صفحات خده دموعه ، وفيه من وصف الجنة ونعيمها ومنازل الزلفى وطيب رسومها ما يشوق القلوب إلى لقائها ، ويسوق النفوس إلى الحلول بفنائها مثل قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أنهارٌ مِنْ مَاءٍ غَير آسنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذّةٍ لِلشَاربينَ وأَنهارٌ مِن عَسَلٍ مُصفًى وَلَهُمْ فِيهَا من كلّ الثمراتِ ومغفرةٌ من ربّهم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهرٍ في مَقعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَليكٍ مُقتدِرٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُم فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الأَبْرَار يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُوراً ﴾ إلى آخر السورة . وقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنّتانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ إلى آخر السورة . وفي القرآن العظيم من هذا النوع كثير .

القسم التاسع والسبعون

في التشبيب

وهو اللفظ الدال على محاسن النساء ، ومحاسن أخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى معهن ، ويدخل فيه الشوق والتذكر لمعاهد الأحبة وتغيرها بالرياح الهابَّة والبروق اللامعة وأمثالها . . ومن محاسن التشبيب قول بعضهم .

لَوْ جَادَهنَّ غداةَ زُمنَ رَواحَا ... غيثٌ كدَمعي مَا أرَدْنَ بَراحا
مَاتَتْ بِفَقْدِ الظَاعِنينَ دِيارُهمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَهَا أرواحا
النَائِياتُ النَافِذاتُ نَوَاظِراً ... وَالنَّافِذِينَ أَسِنَّةً وَسِلاَحا
وَأرَى العُيونَ وَلا كَأَعْينِ عَامرٍ ... قَدراً مَع القَدَرِ المتاحِ مُتاحا
مُتوارثي مَرَضِ العُيونِ وَإنَّمَا ... مَرَضُ العُيونِ بأنْ يكنَّ صِحَاحَا
لاَ عَيبَ فيهمْ غَيرَ شُحّ نِسائِهِمْ ... وَمِنَ السَمَاحَةِ أنْ يكنَّ شِحَاحَا
طرَقتْهُ في أتْرَابِهَا فجلتْ لَهُ ... وَهْناً من الغُرَرِ الصِبْاحِ صَباحا
وبَسمْنَ عن بَرَدٍ تألَّفَ نَظمُهُ ... فرأيتُ ضَوْءَ البرْقِ ثمَّتَ لاَحا
أبرَزْنَ مِن تِلْكَ العُيونِ أسِنّةً ... وهزَزْنَ من تلك القُدُودِ رِمَاحَا
يَا حبّذَا ذَاكَ السِّلاحُ وَحَبّذَا ... وَقْتٌ يَكونُ الحُسنُ فيهِ سِلاَحَا

والأشعار في مثل هذا كثيرة . وفي القرآن العظيم من وصف النساء كثير مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿عَسَى رَبُّهُ إن طَلَّقكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ أزْوَاجاً

خَيراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِباتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قَاصِراتُ الطَّرْفِ ﴾ الآية . وفي القرآن العظيم كثير .

القسم الموفي ثمانين

الاستدراج

قال ابن الاثير وهو التوصل إلى حصول الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به . وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يؤنق السامع ويطربه ، لأن بناء صناعة التأليف عليه ومنشأها . . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ في الكِتَابِ ابْرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صدّيقاً نَبياً إذْ قَالَ لأبيه يَا أبَتِ لِمَ تَعبُدْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ هذا الكلام يهز أعطاف السامعين ، ويبهج نفوس المتأملين ، فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة امعانَ النظر في مطلوبه ، وتردادَ الفكر في اثنائه واتخاذه قدوة لك ونهجاً تعتقبه ، ألا ترى حين أراد ابراهيم النظر في مطلوبه ، وتردادَ الفكر في اثنائه واتخاذه قدوة لك ونهجاً تعتقبه ، ألا تَرَى حين أراد ابراهيم أن ينصح أباه ويعظه فيما كانت متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصي به أمر العقل ، كيف رتب الكلام معه في أحسن سياق وانتظام مع استعمال المجاملة واللطف واللين والأدب الجميل ، والخلق الحسن مستصحباً في ذلك نصيحته وذلك انه طلب منه أولاً نقله عن خطيئته طلب منبه على تماديه موقظ له من إفراطه وقلة تناهيه ، لأن المعبود لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقدراً على الثواب والعقابَ إلا أنه بعض الخلق لا يُشكَ في نقص عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلق كالملائكة

والنبيين ، فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمع ولا يبصر؟ ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترفقاً به ومتطلفاً فلم يتهم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكن قال : إن معي لطائف وشيئاً منه ، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ ، فلا تستنكف وهي أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتّبعني أنجّك من أن تضل فتنبه ثم ثلّث بتنشيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده وهو عدوّك وعدوّ أبيك آدم هو الذي ورّطك في هذه الورطة وألقاك في هذه الضلالة ، إلا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لامعانه في الخلاص لم يذكر من جناية الشيطان إلا الذي يختص منها بالله عز وجل وهي عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت الى ذكر معاداته لآدم وبنيه ، ثم ربع ذلك بتخويفه سوء العاقبة ، وما ينتج عليه من الوبال ولم يخل هذا الكلام من حسن أدب حيث لم يصرح بالعقاب اللاحق بأبيه ، ولكنه قال ـ اني أخافُ أن يمسّكَ عذابٌ من الرحمن ـ فذكر الخوف والمس اعظاماً لهما وترك العقاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه أكثر من العذاب ، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ـ يا أبت ـ توسلا إليه واستعطافاً فقال له في الجواب : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرجمنك واهْجُرْني مَلِيًّا ﴾ ألا ترى كيف أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه باسمه ، ولم يقابل قول ـ يا أبت ـ بيا بني وقدم الخبر على المبتدأ في قوله ـ أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم ـ لأنه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة ابراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب أحد عنها ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجلٌ مُؤمنٌ مِن آلِ فِرْعَونَ يَكتُمُ إيمَانهُ أَتَقْتُلُونَ رَجلاً أن يَقُولَ رَبّي اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إنّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ ﴾ ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطف مغزاهُ ، فإنه أخذهم

بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتخطاه ، وإن كان صادقاً فيصيبكم بعض الذي يعدكم إنْ تعرضتم له . وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك أيها المتأمل وأقول : إنما قال : يصبكم بعض الذي يعدكم ، وقد علم أنه نبي صادق ، وإن كل ما يعدهم به لا بد من أن يصيبهم لا بعضه ، ولأنه احتاج مع أدلة خصم موسى أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول ، ويأتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله : وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه فقال : وإن يك صَادِقاً يصبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقابلة خصمه غير المشتط فيه ، وذلك حين وصفه الله بكونه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يقر به ، لكنه أردفه بقوله : ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلاً من أن يتعصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل ، وكذا قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أي لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله بالنبوة ولا عضده بالبينات ، فتبين أيُّها المتأمل لهذه الدقائق اللطيفة الصنع تدل على التيقظ في صناعة التأليف .

القسم الحادي والثمانون

خذلان المخاطب

وهو الأمر بعكس المزاد ويدل ذلك على الاستهانة بالمأمور وقلة المبالاة بأمره أي انا مقابلك على فعلك ومجازيك بحسبه . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانُ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَّهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ للهِ أنداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِن أَصْحابِ النَّارِ ﴾ . فقوله ـ قل تمتع بكفرك ـ من باب الخذلان كأنه قال له إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك ان لا تؤمر به بعد ذلك ونأمرك بتركه . وهذا مبالغة في خذلانه ، لأن المبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على ضدّ ما أمر به . . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قُلِ الله أعبدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِن دُونِهِ ﴾ فإن المراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان على ما سبق ذكره . وفي هذا الكلام معنيان لطيفان الأول أي أن عبادتكم لله وعبادتكم لغيره إنما تنفع أو تضر لكم لا لسواكم فالله تعالى مستغن عن عبادتكم له . الثاني : توعده لهم بالمقابلة على فعلهم من غير تصريح بالوعيد ، وذلك أبلغ من الإصراح به لوقوع الموعود في حيرة من أمره ، وترامي وهمه عند ذلك إلى كل خطب عظيم من المجازاة والمقابلة ، كقولك لمن عصاك افعل ما شئت أي إني مقابلك عليه . وهذا نوع من علم البيان شريف .

القسم الثاني والثمانون

التعليق والإدماج

وهو أن يدمج مدحاً بمدح أو هجواً بهجو ، أو معنىً بمعنى كما قال المتنبي :

إلى كم تَردُّ الرُّسْلَ عما أتوا به كأنهم فيما وَهبتَ مَلاَمُ

أدمج رد الرسل برد اللوم ، وكلاهما مدح . . وقوله أيضاً :

حَسَنٌ في وُجُوهِ أعدائِهِ أقْبَحُ من ضَيفهِ رأته السَّوَامُ

أدمج الحسن مع القبح وكلاهما مدح وصفه بالكلام ، لأن ابلهِ إذا رأت ضيفه علمت أنه ينحرها له ، وقد سمى العسكري هذا النوع في كتاب الصناعتين له المضاعف ، وأنشد فيه :

وأسرعتُ نحوَكَ لما دَعوْ ت كأني نَوالك في سُرعتهْ

ـ ومثله في وجيه الدولة :

وَبَاتَ أسْعَدنَا حَظًّا بِصَاحِبِهِ مَنْ كَانَ في الحَبّ أشْقَانَا بِصَاحِبِهِ

وقاعدة هذا الباب أن يكون أحد المعنيين تلويحاً والآخر تصريحاً . وفي القرآن العظيم من هذا النوع كثير .

القسم الثالث والثمانون

الاستخدام

وهو أن تكون الكلمة لها معنيان فيحتاج إليهما فيذكرها وحدها فيستخدم المعنيين كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ والصلاة ها هنا يحتمل ان تكون فعل الصلاة ، أو موضع الصلاة فاستخدم الصلاة بلفظ واحد ، لأنه قال سبحانه : ﴿ إِلَّا عَابِري سَبِيلٍ ﴾ فدل على أنه أراد موضع الصلاة . وقال تعالى : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ فدل على أنه أراد فعل الصلاة . . وأنشد للبحتري :

فَسَقَى الغَضَا وَالسَاكنيهِ وَإِنْ هُم شَبُّوهُ بَينَ جَوانحٍ وَقُلُوبِ

ـ الغضا ـ يحتمل أن يكون الموضع ، ويحتمل أن يكون الشجر فاستخدم المعنيين به ـ والساكنيه ـ أراد المكان والشجر بقوله ـ وإن هم شبوه ـ ومن ذلك لبعض العرب :

إذَا نَزَلَ السَماءُ بأَرْضِ قَوْمٍ رَعيناهُ وَإِنْ كَانوا غِضَابا

ـ والسماء ـ يحتمل معنيين المطر والنبات فاستخدم المعنيين بقوله ـ إذا نزل ـ يعني المطر ـ رعيناه ـ يعني النبات . . وكما قال الشيخ أبو العلاء :

وَفَقِيهٍ أفكارُهُ شِدْنَ للنُعْمَانِ ما لم يَشِدْهُ شعر زيادِ

يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون النعمان بن المنذر الملك ،

والآخر أن يكون النعمان بن ثابت الفقيه ، فاستخدم المعنيين بلفظ واحد فقال ـ شدن للنعمان ـ يعني أبا حنيفة رضي الله عنه وقال ـ شعر زياد ـ يعني النعمان بن المنذر ، لأن زياداً هو النابغة مدح النعمان . . وكما قال أبو تمام :

وَإذَا مَشَتْ تَـركَتْ بِصَدْرِكَ ضَعْفَ ما بِـحُـليّـهـا مِـن شِـدَّةِ الـوَسـواسِ

لأن ـ الوسواس ـ يحتمل معنيين وهو بلابل الصدر ، وصوت الحليّ فاستخدم المعنيين بقوله : ـ تركت بصدرك ـ يعني البلابل وبقوله ـ ضعف ما بحليها ـ يعني صوت الحلي . . ومنه :

اسمُ مَن ملّني وَمن صـدَّ عني وَجـفـاني لِـغَـيـرِ ذَنـبٍ وجُـرْمِ
والـذي ضَنَّ بِـالـوِصَـالِ عَلَيْنَـا مِثلَ مَا ضَنَّ بِـالهَوَى قَلبُ نُعْمِ

هذا استخدام في الاعراب ، لأن قلب مرفوع بالخبر فاعل ضن وهو أيضاً استخدام في المعنى ، لأنها بمعنى قلب من المقلوب ، لأن الاسم ـ معن ـ فهو معكوس ـ نعم ـ فاعرفه . ومنه في الكتاب العزيز كثير من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سَفينةٍ غَصْباً ﴾ يحتمل أن يكون أراد ـ وراءَهم ـ أي في طلبهم ويحتمل أن يكون أراد أمامهم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصنَ بأنفُسِهنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ ﴾ ـ والقرء ـ الحيض والقرىء أيضاً الطهر ، واللفظ يحتمل المعنيين فاعرفه .

القسم الرابع والثمانون

التفقير

وهو أن يأتي في البيت ذكرُ نكتة ، أو بيت أو رسالة أو خطبة ، أو غير ذلك فيومىء إليها الشاعر ، أو الناثر مثل قوله تعالى : ﴿ فيهِنَّ قَاصِراتُ الطَّرْفِ ﴾ فإن أمرأ القيس أومأ إليه بقوله :

مِن القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لوْ دَبَّ مُحوِلٌ   مِن الـذَّرّ فَـوْقَ الأنفِ مِنْهَـا لأثـرا

ـ ومنه قول الآخر :

ألـومُ زِيـاداً فـي رَكَـاكـةِ رَأيـهِ   وَفـي قَـوْلـهِ أيّ الـرّجـالِ المُهَذّبُ

وَهَـل يُحسِنُ التهذيبُ مِنكَ خَـلائِقاً   أرَقّ مِـنَ المَـاءِ الـزّلالِ وأطـيـبُ

الفَنْ الثاني

ما يتعلق بالألفاظ من الفصاحة كما أن مـا يتعلق بالمعـاني من البلاغة ، ولهذا قيل معنى بليغ ولفظ فصيح يقال أفصح الأعجمي وفصح اللحان . وهذا الفن يسمى أيضاً البديع . والبديع علم يبحث فيه عن أحوال اللفظ المؤلف من حيث لا يمكن أن يؤتى به إلا بحسن انتظام وهو ينقسم إلى أقسام :

الأول التهذيب :

وهو تخليص الألفاظ من ثقل العجمية ، وهجنة الحوشية ، وفظاظة النبطية ، وأن يترك الكلام عذب المساق حسن الاتساق قريباً من فهم السامع عذب المساغ في اللهـوات والمسامـع يدخـل الأذن بغير إذن ويتصور معناه في العقل بدقيق التدبر ولطيف التفكر . والقرآن العظيم كله من أوله الى آخره على هذه المثابة غير ما فيه من المتشابه ، فإنه يحتاج إلى الإمعان في التذكر ، وترديد التدبر ، وذلك أيضاً على غاية ما يكون من الحسن ، فكل في بابه قد استوفى بديع نصابه قد بسقت اشجاره وعذبت ثماره واتسقت ألفاظه ، واستحكمت معانيه ، وحَسُنَ رَونقـه ، وعظمت حلاوته وطلاوته ، لا تمله الأسماع مع كثرة ترداده ، ولا تنفر منه الطباع مع ابراقه وإرعاده ، بل هو الذي أحكمت آياته وفصلت وكملت

معانيه في ألفاظه ، وحُصلت وأحكمت أحكامه ، وأصلت فهو كما قال الله تعالى : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِلَتْ﴾ قد سلم من حوشي الألفاظ ورذلها ، وتخلص من فظاظة العجمة وثقلها ، وكل كلمة منه حلّت محلها وقرنت بمثلها فهو كما قال البحتري :

وإذا دُجتْ أقـلامُـهُ ثم انتحَتْ ... برقت مَصَابيحُ الدُّجى في كتبه
فـاللفظُ يقربُ فهمـهُ في بعده ... منّـا ويبعـدُ نيله في قـربـه
حِكم سحـائبُها خِـلالَ بَنانـه ... هـطالـةٌ وقـليبـهـا فـي قـلبـه
كـالـروضِ مؤتلفاً بحمرةِ نَـوْره ... وَبَيـاضِ زهـرتـه وخضـرةِ عشبـه
وكـأنهـا والسمـعُ معقـودٌ بهـا ... شخصُ الحبيب بـدا لعين محبه

وهذه الأبياتُ من أحسن ما قيل من التهذيب ، وأبلغ ما نظم في التنقيح والترتيب ويتعين على كل ناظم وناثر أن لا يملي قصيدة ، أو رسالة أو خطبة حتى يتلمحها بعين بصيرته . ويقدح لها زناد فكرته وقريحته ويهذب ألفاظها ويحقق معانيها ، ويحسن مساغها ويؤسس مبانيها كما قيل :

لَا تـعـرضنَّ عَلى الـرُواةِ قَصِيـدَةً ... مَـا لَم تُبَالِـغْ قَبـلُ في تَهْـذِيبِهَـا
فَـإذَا عَـرَضْتَ الشِعْـرَ غَيـرَ مُهَـذَّبٍ ... عَـدُّوه مِثـل وَسَـاوِسٍ تَهْـذي بِهَـا

القسم الثاني

الانسجـــام :

وهو أن يأتي الكلام سهل المساق عذب المذاق ، حسن الاتساق مَنحـدِراً في الأسماع كتحـدر الماء المنسجم حتى يكـون للجملة من المنثور ، والبيت من الموزون موقعاً في النفوس وعذوبة في القلوب ما ليس لغيره مع بُعده من التصنع ، وأكثر ما يقع غير مقصود كمثل الكلام الموزون الذي تأتي به الفصاحة في ضمن النثر عفواً كانصاف أبيات وقعت في أثناء الكتاب العزيز ، وفي السنة . وقد وقع من ذلك كثير في الخطب والرسائل ومن[1] أن يكون بيتاً أو نصف بيت . وقد وقع في غير القرآن بيتان فصاعداً وليس بشعر وإن لم يقصد . فأما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك إلاّ مثلُ البيت الواحد أو النصف والبيت المفرد لا يسمى شعراً ، وأيضاً فإن الشعر إنما سُمي شعراً لكونهم شعروا به أي فطنوا . وهذا إنما جاءَ عفواً في درج الكلام . . فمما ورد من ذلك في القرآن العزيز قوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالجَوابِ وَقُدورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ فوافق هذا في درج الكلام قول امرىء القيس :

امـرؤ القيـسِ رهـيـنٌ مُـولـعٌ بـالـفَـتَـيَـاتِ

---

(١) كذا في الاصل .

مُكرمُ الضَيفِ بِلَحمٍ وَشُحومِ البكَرَات

في جِفانٍ كالجوابِ وَقُدورٍ رَاسِيَاتٍ

- وقد قال بعض أهل العلم بالعروض ان الذي في القرآن من ذلك ليس بمتزن ، ولا موافق لبحر بيت امريء القيس وهو صحيح .. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنْ يَنْتَهُوا يَغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ نَبِّيءْ عِبَادِي أني أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ ﴾ والتلاوة أيضاً لا تستقيم على الوزن إنما الوزن يكون على تحبوا دون النون كما قال بعض الشعراء :

لَن تَنالوا البرّ حتى تُنفقوا مما تحبوا

وقد جَوّز الحذاق الماهرون بأوزان القريض العالمون بضروبه واجزائه وتقطيعه هذه الأبيات ، فلم يجدوها موزونة ، بل مباينة لأوزان الشعر ، إما بزيادة أو نقصان ، ولولا خشية التطويل لبينت ذلك .

القسم الثالث

الاشتقاق ويسميه بعضهم الاقتضاب أيضاً
وهو من باب التجنيس ، وإن عُدّ أصلاً برأسه

وهو أن يجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ ﴾ .. وقول أبي تمام :

عممتَ الخلْقَ من نُعمـاكَ حتى ... غـدا الثقَـلاَنَ منهـا مُثقَـلاَنِ

قال المصنف عفا الله عنه : هذا الباب أولى بأن يكون من أجناس التجنيس ، والآية التي استشهد بها هي من التجنيس المغاير ، والبيت الذي استشهد بـه من التجنيس المماثـل . وسنذكـر أجناس التجنيس وأقسامه في فصل مفرد بعدُ ان شاء الله تعالى .. ومما يشبه هذا النوع وليس منه ويسمى المشابهة قوله تعالى : ﴿ إنّي لِعَمَلِكُم مِنَ القَالِينَ ﴾ .. وقول البحتري :

وَإذَا مَـا رِيَـاحُ جُـودِكَ هَبّـتْ ... صَـارَ قَـولُ العُـذَاةِ فِيهَـا هَبَـاءَ

ذكره الزنجاني في تكلمته ..

قال ابن الاثير : الاشتقاق على قسمين : صغير . وكبير . فالصغير أن تأخذ أصلاً من الأصول فتجمع بين معانيه ، وإن اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فإنك تأخذ معنى السلامة في تصرفه ، نحو سلم وسالم وسلمان وسليم والسليم للديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلاً بسلامته . وعلى

هذا جاء غيره من الأصول كقولنا هشمتك هاشم وحاربك محارب ، وسالمك سالم وأصاب الأرض صيّبٌ لأن الصيب هو المطر الذي يشتد صوته ووقعه على الأرض . وأمثال ذلك كثير . . ولهذا الضرب من الكلام رونق لا يخفى على العارف بهذه الصناعة . . فمما جاء منه قول بعضهم :

* أمحَلّتيْ سَلمى بِكَاظِمَةَ آسلما *

ـ وَكَذَلكَ قَولُ الآخر وهو جرير بن عطية :

وَمـا زَالَ مَعقُـولاً عِقـالٌ عَنِ النَـدَا وَمَـا زَالَ مَحْبُوساً عَنِ الخَيرِ حَـابِسُ

ـ وقال غيره :

* إنّ قَومي لَهُمْ جِدَادُ الجَدِيدِ *

وشُـكي إلى بعض الخلفاء جور عامل له وسُئل أن يكتب إليه كتابا فقال ما ترك فضة إلّا فضها ولا ذهباً إلّا أذهبه ، ولا غنيمة إلّا غنمها ، ولا مالاً الّا مال عليه فأي شيء بعدُ يكتب اليه . وأمثال هذا كثير فاعرفها . . قال ابن الأثير ، وأما الاشتقاق الكبير فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنًى واحداً يجمع تلك التراكيب ، وما تصرّف منها ، وإن تباعد شيء من ذلك رُدّ بلفظ الصيغة والتأويل اليها كما يفعل الاشتقاقيون . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول ان لفظة ق ر م من الثلاثي لها ستة تراكيب وهي قرم . قمر . رمق . رقم . مقر . مرق . فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة ـ والقرم ـ شدة شهوة اللحم ـ وقمر ـ الرجل إذا غلب من يقامره ـ والرقم ـ الداهية وهي الشدة التي تلحق الانسان من أمره وعيش ـ مرمق ـ أي ضيق وذلك نوع من الشدة أيضاً ـ والمقر ـ شبه الصبر يقال أمقر الشيء إذا أمرّ وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة ـ ومرق ـ السهم إذا نفذ من الرمية ، وذلك لشدة مضائه وقوته . . واعلم أنه إذا سقط من تركيب الكلمة شيء فجائز ذلك في

الاشتقاق ، لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تراكيب الكلمة ، بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها أدَّت الى معنى واحد يجمعها . . فمثال ما سقط من تركيب الثلاثي لفظة و س ق فإن لها خمسة تراكيب وهي : و س ق . و ق س . س و ق . ق س و . ق و س . وسقط من جملة التركيب قسم واحد وهو س ق و وجميع هذه الكلمة تدل على القوة والشدة - فالوسق - من قولهم استوسق الامر أي اجتمع وقوى - والوقس - ابتداء الحرب وفي ذلك شدة على من يصيبه - والسوق - متابعة السير ، وفي هذا عناءٌ وشدة على السائق والمسوق - والقسوة - شدة القلب وغلظه - والقوس - معروف وفيه نوع من الشدة والقوة لسرعة السهم واخراجه إلى ذلك الرمي المتباعد . . واعلم أنا لا ندعي أن هذا يطّرد في جميع اللغة ، بل قد جاء شيء منها كذلك ، وهذا مما يدل على متانتها وحكمها لأن الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب ، وهي مع ذلك دالة على معنى واحد ، وهذا من أعجب الأمور التي توجد في لغة العرب وأعذبها فاعرفه .

القسم الرابع

الجزالة والرذالة

أما الجزالة فقد تقدم الكلام عليها والقرآن العظيم من وجوه اعجازه جزالة ألفاظه ، وهو من أوله إلى آخره لابسٌ حُللَ الجزالة والفصاحة ، سالمٌ من الرذالة والفظاعة . . وأما الرذالة فهي في غير القرآن ، فمنها في المنظوم والمنثور كثير . . اما المنظوم فمثل قول بعض العرب :

زِيَادُ بْن عَينِ عَينِهِ تحت حاجبه ... واسنانه بيضٌ وقد طرَّ شاربه

ومثله ما أنشد سيبويه في كتابه :

إذا مَا الخَبرُ تأدمهُ بِلَحمٍ ... فَذَاكَ أمانةُ اللهِ الثريدُ

ـ ومثل قول أبي العتاهية :

مَاتَ الخَليفَةُ أيُّها الثَقَلانِ ... فَكَأنني أفْطَرْتُ في رَمَضَانِ

وأما النثر فمثل قولهم ـ فلان لئيم الخيم كأنّ كفه ميم ، وكأن عقله جيم ، إن واصلته منع وان أعطيته قطع ـ والقرآن العظيم أجَلُّ وأعظم من أن يكون فيه شيء من ذلك ، او يماثله .

القسم الخامس

السهل الممتنع

وهو الذي يظن من سمعه لسهولة ألفاظه ، وعذوبة معانيه أنه قادر على الاتيان بمثله ، فإذا أراد الاتيان بمثله عزَّ عليه مثاله ، وامتنع عن طالب معارضته ، فلا يناله والقرآن العظيم كله على هذا المنوال خلا ما فيه من المتشابه والحروف التي في أوائل السور ، فإذا فسرت كانت كذلك . ومنه في السنة كثير . . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ تُنْكَحَ المَرأَةُ لِجَمَالِها وَمَالِها وَحَسَبِهَا عَلَيكَ بذَاتِ الدينِ تَربَتْ يَداكَ » ـ . وقوله صلى الله عليه وسلم ـ « إيَاكُم وخَضْرَاءُ الدِّمَن قَالوا وَمَا خَضْراءُ الدِّمَنْ ؟ قَالَ المَرأَةُ الحَسْنَاءُ في المَنْبَتِ السُّوء » . وقوله صلى الله عليه وسلم ـ « المعدَةُ بَيْتُ الدَّاء وَالحِمْيَةُ رَأسُ كُل دَوَاء وَعَوِّدُوا كُل جَسَدٍ مَا اعتاد » ـ وقوله صلى الله عليه وسلم . ـ » الخَيْلُ مَعْقودٌ في نَواصِيهَا الخَيْر إلى يَومِ القِيامَةِ ظُهُورِهَا عزٌّ وَبُطونِها كَنْزٌ » ـ . وأما في النثر والنظم فقليل مثاله في النثر قول العماد الكاتب ـ ولو جعل الله حظه من الذهب كحظه من الادب لاستجدى من سعته قارون واستعان بفصاحته هارون ـ . .
ومنه في الشعر مثل قول مروان بن أبي حفصة :

بَنُـو مَطرٍ يَـومَ اللِّقاءِ كَـأَنَّهُم ... أسُودٌ لها مِن غَيـلِ خفـانَ أشبُـلَ
هُمُ يمنعـون الجَارَ حَتَّى كَـأَنَّمـا ... لِجَـارِهم بَينَ السَمـاكَين مَنْـزِلُ
هُمُ القوم إنْ قالوا أصَابُوا وإن دُعوا ... أجابوا وإن أعطُوا أطَابُوا وأجْزَلوا

بِهَا لَيلُ في الإسلامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُن كَأَوَّلِهِمْ في الجَاهِلِيةِ أَوَلُ
وَلَا يَسْتَطِيعُ الفَاعِلونَ فِعَالَهُم وَإِنْ أحسَنُوا في النَائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا
تُلاثُ بامثال الجِبَالِ حُباهُمُ وَأَحْلَامُهُم مِنها لَدى الوَزْنِ أَثْقَلُ

القسم السادس

الرشاقة والجهامة

فأما الرشاقة فقد ذكرناها آنفا ، وفي القرآن العظيم منه كثير . . وأما الجهامة فليس في القرآن منها شيء فإن الجهامة لا تكون إلا عن غلظ طبع وشدة حصر ، ولَكِن والقرآن العظيم منزه عن ذلك .

القسم السابع

الفك والسبك

أما الفك فهو أن يفصل المصراع الأول من المصراع الثاني أو الفقرة الأولى من الفقرة الثانية ، أو الجملة الأولى من الجملة الثانية ، ولا تتعلق الثانية بشيء من معنى الأولى مثل قول زهير :

حيِّ الدّيارَ التي لَم يَعفها القِدَمُ   بَلى وَغَيـرهـا الأرواحُ والـدِيمُ

ومن ذلك قول المتنبي :

جللاً كَمـا بي فليـكُ التبـريح   أغِـذاء ذا الـرَّشأ الاغن الشيـح

وهذا النوع منه في القرآن كثير ، فإنه يأتي بجملة أثر جملة ليس لها تعلق بالتي قبلها والنحاةُ يسمون ذلك الجمل المعترضة . . وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة ، أو الخطبة بعضها ببعض من أوله إلى آخره ، ولهذا قيل خير الكلام المسبوك المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض ، والقرآن العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه .

القسم الثامن

الحل والعقد

وهو أن يأخذ لفظاً منظوما أو منثوراً فينظمه مع الاتفاق في المعنى . . وهذا القسم يختص بالإنشاء معروف بالكتّاب البلغاء الفصحاء ، وهو من أجلّ ما يمتُّون به وأعظم ما يترفعون بسببه . . وفي القرآن العظيم من جنسه وهو ما ورد فيه من آية مجملة فسرتها آية أخرى أو مفسرة أجملتها آية أخرى فأشبه ذلك الحل والعقد . . وأكثر ما يقع هذا النوع في الشعر والرسائل ، فإن الشعر معقود والنثر يحلله والنثر محلول والشعر يعقده وللماهرين في صناعة الانشاء من هذا كثير ، ليس هذا موضع ذكره إذ ليس غرضنا في هذا الكتاب إلا اثبات ما وقع في الكتاب العزيز من فنون الفصاحة وعيون البلاغة ، وبدائع البديع ، أو ما يجري مجرى ذلك .

القسم التاسع

الازدواج

وهو أن يزاوج بين الكلمات أو الجمل بكلام عذب وألفاظ حلوة . . ومثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فاعْتدُوا عَلَيهِ بِمِثْل ما اعتَدَى عَلَيكُم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَجَزاء سَيئة سيئةٌ مثلُها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُون الله والّذِينَ آمنوا وَمَا يُخادِعُون إلاّ أنْفُسَهُمْ ﴾ ومثله قوله تعالى : ﴿ وَكانَ الله عَليماً حَكِيماً ﴾ وقد جاء في الكلام الفصيح وأشعار العرب وغيرها مؤتلفاً ومختلفاً ، ويكون كلمة وكلمتين . . ومنه الحديث ـ إما محسناً فيزداد وأما مسيئاً فيستعتب ـ . . ومنه قول الشاعر :

عَتبتُ عَلَيهِ فَمَا أعتَبَا وَعَنْهُ اعتذَرْتُ وَقَد أذْنَبَا

القسم العاشر

تضمين المزدوج

وهو أن يقع في الفقرات لفظان مسجعان بعد مراعاة حدود الاسجاع والقوافي الأصلية كقوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَال مَا لي لاَ أرَى الهُدْهُدَ أمْ كَانَ مِن الغَائِبينَ لأعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أوْ لأذبَحنَّه أو ليأتيني بِسُلْطَانٍ مُبينٍ فَمكَثَ غيرَ بَعيدٍ فَقَالَ أحَطتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِه وَجْئتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبإٍ يقينٍ ﴾ بعد مراعاة اللفظ في مقاطع الآي وهي ـ الغائبين ومبين ـ . . ومنه في الشعر والنثر كثير. فمن النثر قول بعض البلغاء: فلان رفع دعامة الجِد والمجد باحسانه ، وبرَّز بالجَد والجد على أقرانه . . ومثاله من النظم قول الشاعر:

تَعوّدَ رسَمَ الوَهب والنهْبِ في العُلا   وَهذَانِ وَقتَ اللطفِ والعُنْفِ دابُهُ
فَفي اللُطْفِ أرزاقُ العبادِ هباتـهُ   وفي العُنْفِ أعمارُ العِداة نهابُهُ

القسم الحادي عشر

التسجيع . والكلام عليه من وجوه

الأول : في أقسامه . الثاني : اختلاف العلماء في جواز استعماله وحظره . والثالث : في شرطه ، وما ينبغي أن يكون فيه .

الأول : قد اختلفت عبارات أرباب هذه الصناعة في التسجيع فقال قوم : هو على ثلاثة أقسام : المتوازي. والمتطرف . والمستحسن . . أما المتوازي فهو رعاية الكلمتين الأخيرتين في الوزن والرويّ . وذكر الرويّ في النثر توسعة في الكلام ، وإلّا فالرَوي مخصوص بالشعر . مثاله من كتاب الله تعالى قوله عز وجل : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرفُوعَةٌ وَأكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ . . ومثاله من السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم اعطِ مُنْفِقاً خَلَفاً واعط مُمْسِكاً تَلَفاً » .

وأما المتطرف فهو أن تتفق الكلمتان الاخيرتان في الحرف الأخير دون الوزن . مثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُم لَا تَرجُونَ لله وَقاراً وَقَدْ خَلَقَكم أطْواراً ﴾ . . ومنه قول بعض البلغاء ـ جنابة محط الرحال ومجثم الآمال . .

وأما المتوازن فمثاله من الكتاب العزيز قوله تعالىَ : ﴿ وَآتَيْناهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبين وَهَدَيناهُما الصِراطَ المُستَقيمَ ﴾ وقال قوم هو على ثلاثة اقسام : قصير موجز . ومتوسط معجز . وطويل مفصح مبين للمعنى مبرز

. . أما الاول وهو القصير فاعلم أن أقصر الفقرات القصار في السجع ما يكون من لفظين كقوله تعالى : ﴿ وَالعَاديَاتِ ضَبْحاً فالمُوريـاتِ قَدْحـاً فَالمُغيراتِ صُبْحاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَالمُرسَلَات عُرفاً فـالعَاصِفـاتِ عَصْفاً ﴾ . وأطول الفقرات القصار ما يكون من عشر لفظات وما بين هذين متوسط كقوله تعالى : ﴿ والنَّجْمِ إذَا هَوَى ما ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ اقترَبتِ السَاعةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ وَإنْ يَرَوا آيةً يُعرِضوا وَيقُولوا سِحرٌ مُسْتَمِر وَكَذَّبوا وَاتَّبعوا أهْوَاءهم وَكُلُّ أمرٍ مُستقرٌ ﴾ . . وأقصر الطوال ما يكون من أحد عشر لفـظة وأطولهـا غير مضبـوط وكلما طـالت الفِقَر زاد بيـانها وافصاحها . وقد وقع في الفقر المطوّلة ما هو من عشرين لفظة فما حولها مثل قوله تعالى : ﴿ إذْ يُريكهم الله في مَنامِكَ قليلا ولو أرَاكَهُمْ كثيراً لفشلتم ولَتَنازَعْتُم في الأمر وَلكن الله سَلّمَ إنه عليمٌ بِذاتِ الصُدورِ وإذْ يُركُموهُم إذْ التَقَيْتُم في أعيُنِكم قلِيلاً ويُقَلِّلُكم في أعْيُنِهم لِيَقْضي الله أمراً كَانَ مَفْعُولا وَالى الله تُرْجَعُ الأمُورُ ﴾ .

ومثاله فيما دون ذلك قوله تعالى : ﴿ ولَئِنَ أَذَقْنَا الإنْسَان مِنَّا رَحْمَةً ثمّ نَزَعْنَاها مِنْه إنَّهُ لَيَئوسٌ كَفُورٌ ولَئِنْ أَذَقْنَاه نَعْمَاءَ بعد ضرَّاءَ مسَّته ليقولَنَّ ذَهَبَ السَّيّئاتُ عني إنّه لَفَرِحٌ فخورٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جاءَكُم رَسُولٌ مِن أنْفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيه ما عَنتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكم بِالمُؤمِنين رَؤفٌ رَحِيمٌ فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُل حسبيَ الله لَا إلَهَ إلا هُوَ عَلَيه توكّلتُ وَهُو رَبُّ العَرْشِ العظِيمِ ﴾ . . والفقرات المسجوعة إما أن تكون متساوية أو لا . . أما المتساوية ففي الاكثر إنما توجد في الفقرات القصار ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأمَّا اليَتيمَ فَلَا تَقْهَر وأمَّا السَائِل فَلَا تَنهَر ﴾ .

وأما المختلفة فاختلافها إما أن يكون في فقرتين أو أكثر . . أما

المختلفة في فقرتين فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى ولا تزيد بقدر كثير كقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّب بِالسَاعةِ سَعيراً إذا رأتْهم مِنْ مكانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغيُّظاً وَزَفِيراً وَإذَا ألقُوا مِنْها مَكاناً مُقرنين دَعوْا هُنالِكَ ثُبُوراً ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالوا اتخذَ الرَّحمنُ وَلداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيئاً إدًّا تَكَادُ السَّمَواتِ يَتفطَّرن مِنهُ وَتَنْشَقُّ الأرضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ . . وأما المختلف في أكثر من فقرتين فأحسنه أن تكون الفقرة الثالثة زائدة والأوليتان متساويتان أو الثانية منه أزيد يسيراً . . وأقل السجع حسناً ما يكون المتأخر من الفقرات أقل مما قبلها .

وأما الثاني : فقد اختلف أربابُ علم البيان فيه . فمنهم من قال باستحسان السجع وفضله على الاسترسال في الكلام ورجحه . . ومنهم من كره السجع واقبحه ، واحتج على ذلك بأمرين : أحدهما اشتماله على الكلفة . والثاني قوله عليه الصلاة والسلام : « أَسَجْعاً كَسَجْعِ الجَاهِليةِ » وكلا الحجتين فاسدٌ . . أما الاولى فلأنه لم يخل شيء من الكلام من تكلف ما . . وأما الثانية فلأن الإنكار إنما كان لسجع مخصوص ، وهو ما قصد به ابطال حق أو تحقيق باطل ولو كان السجع قبيحاً لاستحال وروده في القرآن . . والتسجيع وعدمه أسلوبان جرت عليهما ألسنة فصحاء العرب وخطبائهم يأتون بذلك بغير تكليف ولا تعسف . . وورد في القرآن العظيم آياتٌ كثيرة خالية من السجع وآيات كثيرة مشحونة بالسجع ، وسورة الضحى ، والكوثر فاعرفه .

الثالث : قال علماء علم البيان الأسجاع موضوعة على ان تكون ساكنة الاعجاز موقوفاً عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينهما ولا يتم ذلك الاّ بالوقف ، ألا ترى أنك لو وصلت قوله : ما من عزَّةْ إلا وإلى جنبها عزّه ، وقولهم ما أبعد ما فاتَ ، وما أقرب ما هو آت لم يكن من اجراء كل الفقرات على ما يقتضيه حكم الاعراب ، فتكون

قد عطلت عمل الساجع وقوة عزمه . . وإذا رأيتهم يخرجون الكلم عن اوضاعها من الازدواج فيقولون أتيتك بالغدايا والعشايا . وهناني الطعام ومراني . وأخذه ما حدث وما قدم . وانصرفن مأزورات غير مأجورات . وقال عليه الصلاة والسلام « أَنْفِقْ بِلالْ ولا تخش من ذِي العَرْشِ إقلَال » مع أن فيه ارتكاب ما يخالف اللغة فما ظنك بهم في ذلك ؟

القسم الثاني عشر

الترصيع

وهت أن تكون ألفاظ الكلام مستوية الأوزان متفقة الاعجاز مثل قوله عز وجل : ﴿ إنّ الأبرار لَفي نعيم وَإن الفُجّارَ لَفي جحيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابَهمْ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا حِسابَهُم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَأثرن به نَقْعاً فَوسطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ وهو في كتاب الله كثير . ومنه في النثر كثير منه قول الحريري وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظه . . وهو في الشعر كثير منه قول ابي فراس :

وأفعالُهُ للراغبينَ كريمةٌ ... وأموالُه للطالبينَ نِهابُ

وقول آخر :

ثمانية لَمْ تَفْتَرِق مُذ جمعتها ... فلا افترقتْ ما ذَبَّ عن ناظر شُفْرُ

يَقينكَ والتقوى وَجُودكُ والغنى ... ولفظُك والمعنى وَحَرْبك والنَّصْرُ

ومنه قول أبي الورد :

يَروحُ إلَيْهم عازِب الحمدِ وافياً ... وَيْغدُو إلَيْهِمْ طَالبُ الرِّفْدَ عافِيا

وقد يجيء مع التجنيس كقولهم إذا قلت الانصار كلّت الابصار ، وما وراء الخلق الدَّميم إلا الخُلقُ الذميم . . وقول المطرزي :

وزندُ ندا فَواضِلَه وَرِيٌّ ... ورندُ ربا فضائله نضيرُ

ودرّ جَلالـه أبداً ثمينٌ ... وَدَرُّنوا له أبداً غزيرُ

القسم الثالث عشر

التسميط

وهو على قسمين :

الأول : أن يكون في صدر الكلام أو الرسالة ، أو البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ، ثم يجمعها قافية مخالفة لازمة للقصيدة حتى تنقضي أو رسالة حتى تنتهي ، فتصير كالسمط الذي احتوى على جواهر متشاكلة . ومنه قوله تعالى : ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ الجَوَارِ الكُنَّسِ وَاللَّيلِ إذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذَا السَماءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيانُ الشَمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ . ومثله في القرآن كثير . ومنه قول امريء القيس :

ومستلئمٍ كشفتُ بالرمحِ ذيلهُ   أقمتُ بعَضْبٍ ذي شَقَاشقُ مَيلِهِ
فجعتُ به في مُلتقى الحربِ خيلهُ   تركتُ عِتاقَ الطيرِ يحجُلنَ حولَهُ
كأنَّ على سرباله نضحَ جِرْيالِ

ـ وكقول الآخر :

حَـلوٌ شَمَـائِلُهُ تَـنْـدى أَنَـامِلُهُ　　إنْ جَـاءَ سَـائِلُهُ أَعْنَـاهُ نَـائِلُهُ

حتى يروحَ له ما شاء من مالِ

القسم الثاني : أن يصير كل بيت أربعة أقسام كقول جَنوب الهُذَيلية :

وجَرْدٍ وَرَدْتَ　　وثغرٍ سدَدتَ　　وعِلجٍ شدَدتَ　　عَلَيه الحمَالاَ

وَمَالٍ حَوَيتَ　　وخيلٍ حميتَ　　وَضَيفٍ قَرَيتَ　　يخافُ الوَكالا

ـ وقد أبدع الحريري في التوشيح بقصيدته التي أولها :

خلِّ ادّكارَ الأربُعِ　　والمعهد المرْتبعِ　　والظاعنِ المودّعِ

وعدّ عنه ودَعِ

واندُبْ زماناً سَلفاً　　سَوّدْتَ فيهِ الصُحُفَا　　وَلَمْ تَزَلْ مُعتكفا

على القبيحِ الشنعِ

ـ ومن بديع التسميط أيضاً قوله في قصيدته التي يقول فيها :

وَإنْ لاَحَ لَكَ النقش　　من الأصْفَرِ تهتشّ　　وَإنْ مَرّ بِكَ النَعْشُ

تغاممتَ ولا غمّ

سَتذْرِي الدمّ '' الدّمعَ　　إذا عايَنتَ لاَ جمع　　يَقي في عَرصَةِ الجَمْعِ

وَلاَ خَالٌ وَلاَ عَمّ

جعل قصيدته كلها على هذا المنوال :

القسم الرابع عشر

التجزي

وهو أن يكون الكلام مجزأ ثلاثة أجزاء أو أربعة أجـزاء . مثال الثلاثة أجزاء من الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاك الكَوثَر فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر ﴾ . . ومثال الاربعة قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام يعظ أباه بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبصِرُ وَلاَ يُغني عَنْكَ شَيئاً يَا أَبَتِ إني قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأتِكَ فَاتّبعني أهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا يَا أَبتِ لاَ تَعْبُدِ الشَيطَانَ إنَّ الشَيْطَانَ كَانَ لِلرحْمَنِ عَصيًّا يَا أَبتِ إني أخَافُ أنْ يَمسَّك عَذَابٌ مِن الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ وفي القرآن منه كثير . . ومنه قول ابن المعتز في الثلاثة :

عَجَباً لمنصلك المقلد كَيْفَ لَم ... تَسِلْ الدِماءُ عَلَيكَ مِنه سُيولا
لَكَ حَسَنَةٌ مُتَقَلِداً وَبَهَاؤُهُ ... مُتَنَكِباً ومَضَاؤُهُ مَسْلُولا

ـ ومثال الأربعة الاجزاء قول المتنبي :

فنحن في جذَلٍ والرومُ في وَجلٍ ... والبحرُ في خجلٍ والبرّ في شُغلِ

ـ ومنه قول ابن المقرّي :

إذا صلَدُوا أوْرَى وإن عجّلوا ارتأى وَإن بَخِلُوا أعطى وَإن غَدَرُوا وَفّى
فَلِلجُودِ مَا أبقى وَلِلمَجْدِ مَا ابْتَنى وَلِلنَّـاسِ مَا أبـدَى وَللهِ مَا أخفى

القسم الخامس عشر

في التوشيح

التوشيح أن تكون ذيول الأبيات ذات قافيتين على بحرين أو ضربين من بحر واحد ، فعلى أي القافيتين وقفت كان شعراً مستقيما كقوله :

اسلم ودُمتَ على الحَوا دِث   مَارَسا رُكنا ثبير أو هِضاب حَراءِ
ونَلِ المراد منها ممكناً عَلى   رَغْم الدُّهُورِ وَفُزْ بِطُولِ بَقَـاء

قـافيتهما على ثـاني قـافيـة من ثـاني الكـامـل، وعلى الأول من سادسه . . وأما ما هو من بحر واحد ، وقد يسمى هذا النوع المتلوّن وذكره الزنجاني وأنشد فيه :

أبنيّ لا تَـظْلُم بِمَكَّةَ لا الصَغيـرَ وَلَا الكَبِيـرَ   وَلَا الفَقِيـرَ البَـائِسَ

وقال ان قيدتـه كان من سـابع الكـامل ، وان أطلقتـه كان من سادسه . وهذا النوع في القرآن العظيم ما يشبهه ، وهو ما ورد في الآيات من الوقف الكافي والتمام إن وقفت على الوقف الكافي كان حسناً ، وإن وقفت على التمام كان أجود كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ان وقفت على - من قبلك - كان وقفاً حسناً ، وإن وقفت على - يوقنون - كان أحسن وهـو تمام ، وكذلك كل ما أشبهه .

القسم السادس عشر

براعة المطلب وحسن التوسل

وهو أن تكون ألفاظ المطلب مهذبة مقترنة بتعظيم الممدوح كقوله تعالى : ﴿ فَتَلقّى آدمُ مِن رَبهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمَ ﴾ . وكقوله تعالى في قصة نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ إنَّ ابني مِن أهْلي وَإنّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ ﴾ . وقوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبَّنا إني أَسْكَنْتُ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُم يَشْكُرُونَ ﴾ . وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِن المُلْكِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَألحِقنِي بالصَّالِحِينَ ﴾ . وقوله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام : ﴿ قالَ ابنَ أمَّ إنّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُوني ﴾ إلى قوله : ﴿ الظالمين ﴾ . وقوله تعالى حكاية عن يونس عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَنَادَى في الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إني كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَإذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابن مريم أأنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وأميَ إلَهينِ من دونِ اللهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ . وقوله تعالى فيما حكاه رسوله عليه الصلاة والسلام عن عباده المؤمنين : ﴿ إنّ في خَلْقِ السَمواتِ وَالأرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ . . وجاء من

هذا النوع في الشعر كثير منه قول المتنبي :

وفي النفس حاجاتٌ وفيكَ فطانةٌ سُكوتي بَيانٌ عندها وخطابُ

القسم السابع عشر

المخالفة

اعلم أن المخالفة هو الخروج عن مذهب الشعراء ، وترك الاقتداء بآثارهم مثل قول نصيب :

طَـرَقَتْـكَ صَـائـدة القُلوبِ وَلَيسَ ذَا   وَقْـتِ الـزِّيَـارَةِ فَـارجَـعي بِسَـلَام

وَلَيْسَ مِن المَعْهُودِ رَد المحبوبِ عَلى عَقْبِهِ إِذا زَارَ . . ومثل قول ابن عتيق :

جُعلَ الندُّ والألوَةُ والمسكُ أصيلاً لَهَا عَلى الكَافُور

- ومعلوم أن الزنج على نتن رائحتهم لو تطيبوا ببعض هذا الطيب ، لطابت رائحتهم ، وإنما الحسن الجيد قول امرىء القيس :

ألم تـرَ أني كلما جئتُ نحـوَهـا   وَجدْتُ بها طِيبـاً وإن لم تَطيّبِ

- ومن ذلك قول امرىء القيس :

أغـرَّكِ مني أنّ حُبّـكِ قـاتلي   وَأَنَّكِ مَهْمَا تَـأْمُري القَلْبَ يَفعـلِ

وهذا مخالف للمعتاد لأن فيه توعداً للمحبوب والمحب لا يتوعد محبوبه . . وكذلك قوله :

وإنْ تكُ قَد سَاءَتكِ مني خليقـةٌ		فسُلّي ثيـابي من ثيـابـكِ تَنسلي

ـ والقرآن العظيم كله مخالف لأساليب الشعر ، وقوانين النظم والنثر التي يستعملها الناظمون والناثرون . ولهذا قال الغفاري : لقد عرضته على إقراء الشعر فلم يلتئم فإنه ليس بالشعر .

القسم الثامن عشر

لزوم ما لا يلزم

ويسمى التضييق والتشديد والإعنات ، وهو التزام أن يكون ما قبل القافية حرفاً معيناً كما في قوله تعالى : ﴿ إقرأ باسْم رَبّكَ الَّذي خَلَقَ خَلقَ الإنسانَ من علقٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وكتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَذكِّر فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نتربصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ في سِدْرٍ مَخضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ . وهو في القرآن كثير . . وجاءَ في الحماسة :

إنّ الـتي زَعَـمَتْ فُـؤَادَكَ مَلّهـا ... خُلقت هَواكَ كَما خُلقتَ هوى لها
بَيضَـاءُ بَاكِـرُهـا النَعيمُ فَصـاغَهَـا ... بِـلبـاقـةٍ فـأَدَقَّـهـا وَأجـلّهـا
حَجَبَتْ تحيتهـا فَقُلتُ لِصَاحِبي ... مَـا كـانَ أكثَـرهـا لَنَـا وأقلّهـا
وَإِذَا وَجـدتُ لَهَا وسَـاوسَ سلوة ... شَفعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسلّهـا

ـ وكذلك قول كثير عَزّة في أبيات له :

خَليليَّ هـذا رَسمُ عَـزَّةَ فـاعْقِـلا ... قـلـوصَيكمـاثم انزلا حَيثُ حَلت
فَكَانَتْ لقطع الحبـل بَيني وبَينها ... كنـاذرةٍ نَـذراً فـأوفتْ وحَـلّتِ

ـ وقول المعري :

لا تـطْلَبنّ بغير جـدٍّ حَـاجـة   قَلمُ البَليغِ بغير جِـدٍّ مِعـزَلُ
سَكنَ السِّما كَانَ السَمـاءَ كِلاهَـا   هَـذا لَـهُ رُمـحٌ وَهَـذا أَعْـزَلُ

وفي هذا القرآن العظيم من هذا النوع كثير . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنهُ تَحِيدُ ، وَنُفِخَ في الصُّورِ ذَلِكَ يَومُ الوَعِيدِ ﴾ لزم الياء والدال في أكثر هذه السورة . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِلَمْ يَكُنْ شَيئاً مَذْكُوراً ﴾ . إلى قوله : ﴿ يُفَجرُونَها تَفْجِيراً ﴾ التزم قافية توافق قافية . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنَا خَيرٌ مِن هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبين فَلَولاَ ألقى عَلَيهِ أسـوِرَةٌ من ذَهَـبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَـلائِكَهُ مقترنين ﴾ والقرآن مشحون بهذا . . وهذا النوع أتى في القرآن عفواً من غير قصد ، وربما وقع في أقوال فصحاءِ العرب من غير قصد ، والمتأخرون يقصدون ذلك ويتكلفون في استعماله .

* لَيسَ التَكَحُّلَ في العَينينِ كالكَحَل *

القسم التاسع عشر

التفويف

والمفوف عند أرباب هذه الصناعة فيه قولان : الأول أن تكون ألفاظه سهلة المخارج عليها رونق الفصاحة ، وبهجة الطلاوة ، وعذوبة الحلاوة مع الخلو من البشاعة ، ملطفة عند الطلب والسؤال ، مفخمة عند الفخار والنزال . . وان كان شعراً فليكن شعره سهل العروض ، وقوافيه عذبة المخارج ، سهلة الحروف ومعانيه مواجهة للغرض المطلوب ظاهرة منه حيث لا تحتاج إلى إعمال الفكر في استنباط معانيه ، فإذا كان كذلك سمي مفوَّفاً بما تنوع من ألفاظه ومعانيه فأشبه البُرْدَ المفوَّف الذي فيه ألوان مختلفة وألوان متقابلة . . وأصل التفويف بياض يكون على الأظفار .

الثاني : المفوف من الكلام والشعر هو الذي يكون فيه التزامات لا تلزم تكتب بأصباغ مختلفة حتى يفطن للالتزامات التي جعلت عليه ، وعلى كلا القولين فالقرآن العزيز كله كذلك ، فإن كان التفويف بأصباغ مختلفة الألوان فتفويف القرآن العظيم مقاطع آياته وفواتحها وتحزيبه وتعشيره وارباعه واخماسه واسباعه ، فإنّ العلماءَ رضي الله عنهم رخصوا بأن يكون ذلك بالحمرة ، أو الخضرة ، أو الصفرة ، أو بألوان مخالفة للون الحبر والمداد ، حتى يعلم أنها ليست من نفس القرآن فاستحبوا ذلك ، فاذا صار على هذه الصفة أشبه البرد المفوف ، بل أجل وأحسن

وأبهى وألطف ، وإن كان التفويف القول الأول ، فالقرآن العظيم كله كذلك أيضاً فاعرف ذلك .

القسم الموفى عشرين

التطريز

قال علماء البيان : التطريز هو أن تأتي قبل القافية بسجعات متناسبة ، فيبقى في الابيات أواخر الكلام كالطراز في الثوب .. ومنه قول الشاعر :

أُمْسي وأصبحُ من هُجرانكم دَنفاً — يَرْثي ليَ المُشفقانِ الأهلُ والولدُ
قدْ خدَّد الدّمعُ خَدّي من تذكركم — وَهدّني المضنيانِ الشوقُ والكَمْدُ
كــأنمــا مُهجتي شَلْوٌ بمسبعــةٍ — يَنْتَابَهَا الضَـارِيانِ الـذئبُ والاسدُ
لَم يَبقَ غيرُ خفي الرُّوحِ مِن جَسَدي — فَداً لكَ الفَانيان الـرُّوحُ والجَسَدُ
إنّي لأحسد في العشاقِ مُصطبراً — وحَسبكَ القاتِلان الحبّ والحسدُ

قال المصنف عفا الله عنه : هذا النوع استخرجه المتأخرون ، وليس في شعر القدماء شيء منه ، ولا في كلامهم وقد استقريته من الكتاب العزيز واشعار المولدين فوجدته على ثلاثة أقسام .الأول : ما له عَلَمان علم من أوله وعلم من آخره .الثاني : ما له علم من أوله .الثالث : ماله علم من آخره . فأما الذي له عَلَمان فكقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِن أنفُسِكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّةً وَرَحْمَةً إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَـوم يَتفكَّرونَ وَمِنْ آياتِهِ خَلقُ السَموات وَالأرْض واخْتِلافُ ألْسِنَتِكُم وَألـوانُكم إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلعَالِمينَ . وَمِنْ آياتِهِ مَنامكُم بِاللّيلِ

وَالنَّهارِ وَابتِغاؤُكُم مِن فَضْلِهِ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمعاً وَيُنزِّلُ مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَيُحيي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . ومنه في الشعر قول بعضهم من أبيات :

والمسعدانِ عَليها الصَّبرُ والجلدُ أفْنَاهُمَا الخَاذِلاَنِ الوَجْدُ وَالكَمْدُ
وَالعَاذِلاَنِ عَلَيْهَا رَدَّ عَذْلِهِمَا في حُبها العاذرانِ الحسنُ والجيَدُ
وَالبَاقِيانِ هَواهَا وَالغَرامُ بِهَا فَدَاهُمَا الذَّاهِبَانِ الرُوحُ وَالجَسَدُ

ـ ومنه قوله تعالى : ﴿ أمَّنْ خَلَقَ السَموات وَالأرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَأنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُم أنْ تُنْبِتُوا شَجرَهَا أإلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أمَّنْ جعَلَ الأرْضَ قَراراً وَجعَلَ خِلالَهَا أنهاراً وَجعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً أإلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أكْثَرهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، أمَّنْ يُجِيبُ المُضْطرَّ إذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُوءَ وَيَجْعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أإلهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذكَّرُونَ ، أمَّنْ يَهدِيكم في ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَنْ يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشراً بَينَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أإلهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشرِكُونَ أمَّنْ يَبدأ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَمَاءِ وَالأرضِ أإلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُم إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وأما الذي طرازه من أوله . فمنه في القرآن كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الذي لَا إلهَ الاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذي لَا إلهَ إلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكبِرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشرِكُونَ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنى يُسَبّحُ له ما في السموات والأرض وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ . وهذا النوع قد ورد فيه من أشعار المتقدمين والمتأخرين فمن ذلك قول البحتري :

تعلوْا الوفودَ ثلاثةٌ في أرضهِ إفضالُهُ وجداهُ والانعامُ

وَثَــلاَثَــةٌ تَغْشَــاكَ مَهْمَــا زُرْتَــه إرفــادُهُ والمنُّ والاكــرامُ
وَثَــلاَثَــة قَــد جَـانَبَتْ أخــلاَقَــهُ قَــولُ الــبَــذا والــزورُ والآثــام
وَثَــلاَثَــة في الغُــرِّ من أفْعــالِــهِ تَــدْبــيــرُه والنَّقْضُ والإبــرامُ

- وأما الذي علمه من آخره ، ففي القرآن منه كثير . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فبأي آلاءِ رَبّكُمَا تُكَذِبَانِ ربُّ المُشرقينِ وَرَب المَغْـرِبين فبأي آلاءِ ربّكُما تُكذبانِ ﴾ إلى آخر السورة . ومنه قـوله تعـالى : ﴿ فَكَيفَ كَانَ عذابي وَنُذُرِ إنّا أرْسَلْنَا عَلَيهِمْ رِيحاً صَرْصراً ﴾ الى آخر السورة . . ومن ذلك في المرسلات قوله تعالى : ﴿ وَيلٌ يَوْمئذٍ لِلمكذّبينَ ﴾ إلى آخر السورة .

القسم الحادي والعشرون

ما يقرأ من الجهتين

مثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ وأرباب علم البيان يسمون هذا النوع العكس والتقليب ، وهو عندهم على أربعة أنواع ، الأول : قلب البعض : وهو أن تقلب حروف الكلمة ، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام : ـ « اللَّهُمَّ اسْتُرْ عوْرَاتِنا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا » ـ . ومنه قول الحريري :

لِجَوْبُ البلاد مع المتربة أحبّ إليّ من المرتبهْ

ـ الثاني مقلوب الكل كقولهم ـ كفةُ بحر ، وجنابه رحب . الثالث : المجنّحُ وهو أن يقع مقلوب الكل في جناح البيت ، أو جناحي المصراع كقوله :

لاحَ أنوار الذي مِن كَفِّهِ في كُلِّ حَالِ

ـ الرابع المسوى : وهو أن يقرأ طرداً وعكساً من الجهتين . ومنه الكلمتان في الآيتين المتقدمتين . ومنه قول الحريري :

أس أرملاَ إذا عرا وارع إذا المرءُ أسا

ـ الأبيات . . ومنه قول الآخر :

أراهنّ نادمنه ليل لهو وهل ليلهن مدان نهاراً

ـ ومن أنواع هذا الباب ما إذا انعكست الكلمات يخرج منها كلام صحيح كالرسالة المشتملة على مائتي كلمة للحريري في المقامة القهقرية التي أولهـا الانسان صنيعة الاحسان إلى أن ختم بقـولـه : الأحـرار عنـد الأسرار . . ومن هذا النوع أيضاً ما تقلب فيه الألفاظ بطريق العكس لتفيد معنى آخـر كقولهم : كـلام الملوك ملوك الكلام ، وعـادات الأشراف أشراف العادات .

القسم الثاني والعشرون

رد العجز على الصدر . ويسمى التصدير

وهو أيضاً من ضروب البيان وفنون التلعب باللسان . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهْم فَلَا يَصلُ إلى الله وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصل إلى شَرَكَائِهِمْ ﴾ .. ومنه قولهم القتل أنفى للقتل .. ومنه قول بعض البلغاء الحيلة ترك الحيلة .. ومنه قول الشاعر :

تَسِيرُ النجومُ الدَّائِراتُ بِحُكمهِ وَذَاكَ إذا عُدَّتْ عُلاهُ يَسيرُ

ـ وقول الآخر :

لَقَدْ حَازَ أنواعَ الفضائلِ كُلها وَأمسَى وَحيداً في فنون الفَضَائِلِ

ـ وقول الآخر :

سَألتُ صُرُوفَ الدّهرِ حَظّ مُملّكٍ فشَحّتْ وَجَادَتْ لي بحظّ أديب

فصل

ومن هذا الضرب التجنيس ، وهو عند أكثر علماء علم البيان على قسمين : تجنيس حقيقي . ومشبه بالتجنيس . . أما التجنيس الحقيقي فهو أن تأتي بكلمتين كل واحدة منهما موافقة للأخرى في الحروف مغايرة لها في المعنى ، ولم يرد ذلك في الكتاب العزيز الاّ في آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ وَيومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجرمُونَ مَا لَبِثُوا غَيرَ سَاعَةٍ ﴾ . . وأما المشبه بالتجنيس فكثير ، وقد احتوى الكتاب العزيز منها على اللباب وأتى منها بالعجب العجاب ، وهو على ضروب :

الأول : التجنيس المماثل وهو أن يكون من اسمين أو فعلين مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَسَفَى عَلى يُوسُفُ وَابيضَّتْ عَيْنَاهُ من الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الخَبِيثَاتُ لِلخَبِيثِينَ وَالخَبيثونَ لِلخَبيثَات وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيبينَ وَالطَّيبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجعَلْنَاهُ رَجلاً وَلَلبِسْنَا عَليهِمْ مَا يَلبسُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا إلاّ بَشرٌ مِثْلكُم يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ .

الثاني : التجنيس المغاير وهو يكون من اسم وفعل . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَمتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِن رَبّكَ ﴾ وفي

القرآن منه كثير . وقد جمع بعض الشعراء في أبيات نذكرها في آخر هذا الفصل فيها أجناس من التجنيس .

الثالث : تجنيس التصحيف ، وهو أن يكون اللفظ فرقا بين الكلمتين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ . ومنه قول الشاعر :

القَابِضُونَ عَلى العُليا بكفّهمُ ... وَالقَابِضُونَ مِن الدُّنْيَا بأطرافِ
المحسبونَ إذا جَدَّ الفَخارُ بهم ... وَالمُحْسِنُونَ إذا سِيلوا بالحافِ

الرابع : تجنيس التحريف : وهو أن يكون الحرف فرقا بين الكلمتين . . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنهونَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ الجَوَارِ الكُنَّسِ ﴾ .

الخامس : تجنس التشكيل : وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنْذَرِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ . . ومنه قول بعضهم :

أأنتمْ زَعَمْتُمْ أنني غَيرُ عاشقٍ ... وأني لا أعبا ببين مُفارقي
فلمْ قَرحت يومَ الوَداعَ مَدامعي ... ولمْ شاب من هولِ الفراق مَفارقي

وهذه أبيات جمعت فيها أجناس من التجنيس التي نقدم ذكرها وهي :

رُبَّ خَوْدٍ عرفتُ في عَرَفاتِ ... سَلَبتني بِحُسنها حَسناتي
ورَمتْ بالجمارِ حبَّةَ قلبي ... أيُّ قلبٍ يَقوَى على الجمراتِ
وأفاضتْ مع الحجيجِ ففاضتْ ... من دموعي سوابقُ العَبراتِ
حرَّمتْ حين أحرمت نومَ عيني ... واستَباحتْ حِمايَ باللحظاتِ

لم أنلْ في مِنىً مُنى النفْسِ لكنْ   خِفتُ بالخيفِ أن تكون وَفاتي

فقوله ـ عَرفت في عرفات ـ تجنيس مغاير وقوله ـ سلبتني بحسنها حسناتي ـ مماثل وكذلك ـ وأفاضت ففاضت ـ وكذلك ـ حرّمت وأحرمت ـ وكذلك ـ بالجمار والجمرات ـ وقوله ـ ولم أنل في منًى مُنى النفس ـ تجنيس التشكيل وقوله ـ خفت بالخيف ـ تجنيس مغاير .

السادس : تجنيس العكس وهو أن تكون حروف الكلمتين غير مرتبة . مثاله من القرآن قوله تعالى : ﴿ إني أخَافُ أنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَينَ بني اسْرائِيلَ وَلَم تَرقُب قَولي ﴾ وقد جاء في الشعر أن يقدّم حرفاً في كلمة ويؤخره في أخرى .. ومنه قول حسان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

تحملهُ الناقةُ الأدماءُ مُعتجراً   بالبُرْدِ كالبدْرِ غَشّى نورُهُ الظُّلَما

السابع : تجنيس التركيب : وهو أن يجمع بين اسمين أو اسم وفعل ، ثم يجعلهما كالكلمة الواحدة مثال الاسم مع الاسم ـ بعل بك . ومعدي كرب ـ ومثال الفعل مع الاسم حضر موت . ورام هُرمز . وقد جاء في القرآن العظيم : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ﴾ .. وفي الشعر كثير . من ذلك قول بعضهم :

إنّ أسْيافَنا الغِضَابَ الدّوامي   جَعلتْ مُلكنا مديدَ الدّوام

باقتسامِ الأموالِ من وقتِ سَام   واقتحام الأهوالِ من وَقت حامٍ

ـ ومنه :

بَأبي غَزَالٌ نامَ عن وَصبى به   وسُجومِ دمعي في الهوى وصبيبهِ

ـ ومنه قول المتنبي :

وشادنٍ قلتُ له   هَلْ لَك في المنادَمهْ

فَقالَ كَمْ مِن عَاشِقٍ   سَفكتُ بالمنى دَمهْ

ومنه في الشعر كثير .

الثامن : تجنيس التصريف وهو أن تنفرد إحدى الكلمتين عن الأخرى بحرف مثل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِمَا تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِ وَبِمَا كُنْتُم تَمْرَحُونَ ﴾ . ومثل قوله تعالى : ﴿ وَهُم يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ . ومثل قوله : ﴿ لَيَكُونُنَّ أهدَى مِن إحْدَى الأُمَمِ ﴾ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « الخيل مَعْقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيرُ » . . ومنه قول الأعشى :

ورأيتُ أنّ الشيبَ خا نتُه البشاشةُ والبشاره

التاسع : تجنيس الترجيع : وهو أن ترجع الكلمة بذاتها كما قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسلَنَا بِالبَيِّنَاتِ ﴾ . ومنه قوله عز وجل : ﴿ إنَّ ربَّهم بِهِمْ يَومَئِذٍ لَخبيرٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلينَ ﴾ . . ومنه قول الشاعر :

وما مُنعتْ دار ولا عزَّ أهلها مِنَ النَّاسِ إلا بالقَنَا وَالقَنَابِلِ

ـ وقال المخبل :

فَأَتَتْ عَلَيهِ وَمَالُهُ مِن مَالِهِ مِمَّا أفاءَ وَلاَ أفادَ عَناقُ

ـ وقال آخر :

عَذيري مِن دَهرٍ مُوارٍ مُوارِبِ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلّهُنّ ذُنوبُ

ـ ولأبي تمام :

يَمدُّونَ من أيدٍ عَواصٍ عَواصمٍ تَصُولُ بأسيافٍ قَواضٍ قَواضبِ

القسم الثالث والعشرون

التسهيل

وهو أن يكون في القافية ما يدل على الكلام ، أو في أول الكلام ما يدل على القافية كقول أبي حية :

إذا مـا تَقَاضَى المَـرء يَـومٌ وليلةٌ   تَقَـاضَاهُ دَهـرٌ لاَ يَمـلّ التَقَـاضِيَـا

ـ ومثله :

فَـلَيْسَ الَّــذي حَلّلْتَــهُ بـمحـلّلِ   وَلَيْسَ الَّــذي حـرَّمتَــهُ بمحـرَّمِ

ـ ومثله :

هِي الـدّرُّ مَنْثُوراً إذا مَـا تَكَلَّمَتْ   وَكَـالـدُّرّ مَنْـظُومـاً إذَا لَم تَكلّم

القسم الرابع والعشرون

الاتفاق والاطراد

وهو أن يوفق شيئاً لا يتفق عاجلاً مثل قول أبي تمام في الغزل :

لِسَلمى سُـلامـانٍ وعمـرَة عـامـرٍ　　وهند بني هندٍ وسعـد بني سعدِ

ـ وقوله أيضاً يصف حصاناً :

بِـحَـوافـرٍ حُفْرٍ وصُلبٍ صُـلّبٍ　　وَمَـشَـاعِـرٍ شُعـرٍ وَخـلقٍ أخلقِ

ـ ومن ذلك أيضاً :

حَمـدَانَ حَمدونٍ وَحَمْـدَانُ حَـارِثٍ　　ولـقمـانُ لـقـمـان وَلُـقـمَـانَ رَاشِـدِ

وهذه كلها تعسفات ليس في القرآن العظيم منها شيء :

فصل

وقد كان ينبغي أن يكون مقدماً في أول الكتاب ، ذكر ما اشتق منه القرآن ، والسورة والآية والكلمة والحرف وبيان معانيها . . أمـا القرآن فاشتقاقه فيه قولان . أحدهما التتبع والجمع من قولهم : قرأت الماء في الحوض إذا تتبعته وجمعته فيه فهو جامع لما في كتب الأولين المنزلة على سائر النبيين .

والثاني : أنه مشتق من الإظهار والبيان لأنه أظهر سائر العلوم المحتاج إليها في أمر الدين والدنيا وجمع بينها وكلاهما حسن ، والأول أظهر ، وقد يأتي القرآن بمعنى الصلاة في مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَرآنَ الفَجْرِ ﴾ أي وصلاة الفجر ، وبمعنى القراءة . . وفي مرثية عثمان رضي الله عنه :

ضحَّوْا بأشمطَ عنوانُ السجودِ به   يُقَطِّعُ الليلَ تَسبيحاً وقرآناً

وأما السورة ففيها أربعة أقوال : الأول : أنها سميت بذلك لعظمها وعلوّ شأنها من قولهم فلان سورة من المجد . الثاني : سميت بذلك لكرمها وتمامها من قولهم : لفلان سورة من الأهل أي أقوام كرام .الثالث : أنها قطعة من القرآن واشتقاقها من السؤر الذي يفضل من الشارب ، وعلى هذا يكون أصلها الهمز ، وإنما ترك لانضمام ما قبله فأبدلوا منه واواً . الرابع : سميت سُورة لأن قارئها ينتقل من منزلة في الأجر إلى منزلة أعلا

منها . . قال الشاعر :

ألم تـر أنّ اللهَ أعـطاكَ سُـورةً تـَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَـا يتـذَبـذَبُ
كَـأنَّـكَ شَمْسٌ وَالمُلُوكُ كَـواكِبٌ إذا طَلعتْ لم يبـدُ منهنّ كَوْكَبُ

ومعناه أعطاك منزلة فوق منازل الملوك ، وهو قول حسن . . وأما الآية ففيها أربعة أقوال : الأول : أنها اشتقت من العلامة ، والآية علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها . الثاني : أنها سميت بذلك لأنها كلمات مجتمعة من القرآن من قولهم : خرج القـوم بآيتهم أي بجمـاعتهم . الثالث : الآية الرسالة والقصد . . قال الشاعر :

ألَا أبْلِغَـا هَـذَا المعـرّض آيَـةً أيقظان قال القولَ إذ قال أمْ حلمُ

معناه بلغاه رسالة والآية رسالة من الله إلى نبيه وخلقه . الرابع : إنما سميت بذلك لأنها عجب لأنها تشبه كلام البشر ، ولا يقدرون على الإتيان بمثلها من قولهم فلان آية من الآيات ، أي عجب وهـو قول حسن . . وأما الكلمة فهي اللفظة الدالة على المعنى المفرد ، أو على معنيين أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز وهي في كتاب الله تعالى تطلق ويراد بها معان سبعة :

أحدها : كلمة التوحيد وهي لا إله الاّ الله . الثاني تطلق ويراد بها الشرك قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذينَ كَفَـرُوا السُّفْلَى ﴾ يعني الشرك : ﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا ﴾ يعني كلمة الاخلاص والتوحيد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً في عَقْبِهِ ﴾ قال مجاهد والسدّي هي قول لا إله الا الله . الثالث : تطلق ويراد بها الوعد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبّكَ ﴾ يعني وعدم الساعة . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدَهُم ﴾ . الرابع : : تطلق ويراد بها دعاء الله الخلق اليه . ومنه قوله تعالى : ﴿ إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ ﴾ الآية . الخامس : تطلق ويراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَتُه أَلقاهَا إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ سماه كلمة لأنه

أوجده بالكلمة وهي قوله « كن » . السادس : تطلق ويراد بها القصة والقصيدة ، والعرب يقولون كلمة امرىء القيس ، يريدون قصيدته ، ويقولون خبرنا كلمة فلان يريدون قصته .

وفي الحديث : « وَاسْتَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ » يعني النساء كأنه يشير إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ . السابع : تطلق ويراد بها الكلمة الواحدة المفردة التي جمعها كلمات . والكلمات في كتاب الله تعالى تأتي على ستة معان : الأول تطلق ويراد بها علم الله سبحانه وتعالى . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبي وَلَو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ . الثاني : يراد بها مواعيده سبحانه وتعالى . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ أي لا خُلفِ لما وعد . الثالث : تطلق ويراد بها الخصال . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذ ابتَلى ابْراهِيمُ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي بعشر خصال من الطهارة معروفة . الرابع : تطلق ويراد بها الاعتراف وطلب المغفرة . ومنه قوله تعالى : ﴿ فتلقَّى آدم من ربِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ وهي قوله : ﴿ ربَّنَا ظَلَمْنا أنفُسَنَا وإن لم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ . الخامس : تطلق ويراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام ، قاله الهروي في قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ . السادس : تطلق ويراد بها القرآن . ومنه الحديث ـ أعوذ بكلمات الله التامات ـ يعني القرآن قاله الهروي أيضاً وغيره . .

وأما الحرف فله في كتاب الله تعالى ، ولسان العرب محامل . أحدها : اللغة يقال هذا حرف بني فلان أي لغتهم . الثاني : يطلق ويراد به معنًى من المعاني . ومنه الحديث : « نَزَلَ القُرآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » أي على سبعة معان . الثالث : يطلق ويراد به أحد القراءات، وعليه حمل بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . الرابع : يطلق ويراد به الآية . ومنه الحديث : « لِكُلِّ حَرْفٍ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ .

وَحَدٌّ ومَطْلعٌ » وفي رواية ـ ولكل آية منه ظهر وبطن وحـد ومطّلع ـ . الخامس : يطلق ويراد به الشك . ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ » أي على شك . وقال ابن عرفة معناه : على غير طمأنينة . السادس : يطلق ويراد به الجانب . ومنه قول ابن عباس ـ أهل الكتاب لا يأتون النساء إلّا على حرف ـ أي جنب . ومنه حرف الجبل جانبه . السابع : الحرف الناقة . . ومنه قول كعب بن زهير :

حـرْفٌ أخـوهـا أبـوهـا من مُهجّنـةٍ   وعـمُهـا خَـالُـهـا قـوْداءُ شِـمـلـيـلُ

ـ الثامن : يطلق ويراد به أحد حروف الهجاء التي يجمعها أبجد .

فصل

في ذكر اعجاز القرآن العظيم

قد تكلم العلماء في ذلك فقال قوم : إعجازه من جهة ايجازه واحتواء لفظه القليل على المعاني الكثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُم في القصاص حَيَاةٌ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوتَ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَومٍ خِيَانَةً فانبذ إليهم عَلَى سَوَاءٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلصوا نجيّا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ للهِ الأمرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ألا لَهُ الخلقُ والأمرُ ﴾ الآية ، وأشباهها كثير اذا تأملت الكتاب العزيز وجدت فيه من هذا كثير . .

وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد في السنة وكلام العرب ما لفظه قليل ومعناه كثير مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « الأعمالُ بِالنِيَّاتِ وَالمجَالِسُ بالأمَانَات » . وأشباهه كثير . . وقال قوم : إعجازه من جهة حسن تركيبه ، وبديع ترتيب ألفاظه ، وعذوبة مساقها وجزالتها ، وفخامتها وفصل خطابها . . وقال قوم : إعجازه من غرابة أسلوبه العجيب واتساقه الغريب الذي خرج عن أعاريض النظم وقوانين النثر وأساجيع

الخطب وأنماط الأراجيز، وضروب السجع.. وقد اعترض على هذا القول من وجوه. الأول: لو كان الابتداء بالأسلوب معجزا لكان الابتداء باسلوب الشعر معجزاً. الثاني: أن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله. الثالث: أن الذي تعاطاه مسيلمة من الحماقة في معارضة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ - والطاحنات طحناً - هو في أسلوب في غاية الفظاعة والركاكة، وكان مبتدئاً به ولم يُعد ذلك معجزاً، بل عُدَّ سُخفاً وحُمقاً. الرابع: لما فاضلنا بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُم في القَصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الأَلْبَاب﴾ وبين قولهم - القتل أنفى للقتل - لم تكن المفاضلة بسبب الوزن، وإنما تعلق الاعجاز بما ظهرت به الفضيلة. الخامس: إنّ وصف العرب القرآن بأنّ له لحلاوة، وأنّ عليه لطلاوة لا يليق بالأسلوب.. وقال قوم: اعجازه بمجموع هذه الوجوه الثلاثة، وهذا الكلام يحتاج إلى نظر لأن مجموع هذه الأقسام الثلاثة إنما تكون معجزة في حق العرب خاصة، لأن الفصاحة والبلاغة فيهم جبلة وخلقة، وهم فرسانها أصحاب قصبات السبق فيها إلى الأمد لا يباريهم فيها أحد، ولا يجاريهم في مضمارها جواد، ولا يماريهم في التفرد بها ممار ذو عناد قد ألقت الأمم إليهم فيها مقاليد الإذعان، وخفضوا لهم جناح الذل بما حصل لهم عندهم من العرفان فثبتَ لديهم أن أحداً لا يجاريهم في هذا المضمار، ولا يدانيهم في اظهار ولا إضمار فجاءهم، هذا الكتاب العزيز بقاصمة الظهر وفادحة القهر، ودعوا إلى المعارضة فلم يقدموا وندبوا الى المساجلة والمجاراة فأمسكوا وأحجموا وقرِّعوا بقوارع التوبيخ والتقريع فركبوا خُيول العجز واستلأموا فقامت الحجة عليهم بذلك وصحت المعجزة لديهم لحصول التحدي والعجز عن الاتيان بمثله..

وأما الأعاجم ومن يجري مجراهم فلا تقوم عليهم بذلك حجة، ولا تصح فيهم بذلك معجزة لأنهم معترفون أن الفصاحة ليست من شأنهم

ولا مضمارها من حَلبات ميدانهم ، والله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة أحمرهم وأسودهم قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إني رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّة لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ولا يثبت إعجازه على الكافة الاّ بما يعزب على الكافة الاتيان بمثله مع اعترافهم بان في مقدورهم من جنسه ولو جاء موسى لقومه بالفصاحة ، وعيسى لبني اسرائيل بالبراعة لما قامت لهما على قومهما بذلك حجة . . وقال قوم : إنما وقع إعجازه بما فيه من المعاني الخفية والجلية وفنون العلوم النقلية والعقلية . . وأصحاب هذا القول لهم في ذلك خمسة مذاهب منهم من قال اعجازه فيما جاء فيه من أخبار القرون السالفة في الأزمنة الخالية والأعصر الماضية في الأماكن القاصية والدانية ، وقصص الأنبياء مع أممها مما التمسوه منه مثل قصة أهل الكهف وقصة الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وحال ذي القرنين ، ومما لم يسألوه عنه من قصص بقية الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين مع تحققهم أنه أمي لا يحسن الكتابة ولا تقدمت منه دراسة ولا سبقت منه رحلة ، ولا انتهت اليه نحلة ، ولم يكن بأرضه من يعلم بالأخبار ، ويقتفي الآثار سوى أهل الكتاب الذين صرح بسبهم وأطلق لسانه في ثلبهم وضلل عقولهم وهجن طريقهم وأظهر معائبهم ، ولو كان أحد منهم أطلعه على شيء ذلك أو اعلمه به لقابلوه بالإفصاح في الرد عليه ،ولملأوا الأرض بالتشنيع والتقريع ، وحيث لم ينقل ذلك علم أنه لم يعلمه بشر وليس ذلك إلا من جهة الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، مع أنه قد تعرض جماعة من سفهائهم فقالوا : ما أخبر الله عنهم : ﴿ إِنَّمَا يَعلمُه بَشَرٌ ﴾ وكانوا يقولون : إنه سلمان الفارسي وغيره ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : لِسانَ الّذي يَلحدُونَ إِلَيهِ أَعْجَميٌّ وَهَذا لِسَانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ ﴾ .

وقد اعترض على هذا القول بأنّ بعض سور القرآن ليس فيها شيء

من ذكر القرون الماضية والأعصر الخالية ، وتلك السورة معجزة قد تحداهم الله بالاتيان بمثلها فلم يقدروا . . ومنهم من قال إعجازه بما فيه من الاخبار بما يكون ، وما كان ، مما وقع على حكم ما أخبر به مثل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ إلى آخرها وقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شَاءَ الله آمِنِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الٓم غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ الآية وقوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كَانتْ لَكُم الدَّارُ الآخرَةُ ﴾ الآيتان . وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ سَيُهزَمُ الجَمعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبرَ ﴾ . وقوله : ﴿ قَاتِلُوهُم يُعَذِبهُمُ الله بِأَيْدِيكُم ﴾ الآية . وقوله : ﴿ هُوَ اللهُ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ لَنْ يَضرُّوكُم إلا أَذى ﴾ . وقوله : ﴿ مِنَ الّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ . وقوله : ﴿ يُخفُونَ في أَنْفُسِهْم ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ في أنفُسِهِمْ ﴾ . وقوله : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ يعدُكم الله إِحْدَى الطَائِفَتَينِ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئين ﴾ . وقوله : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى غير ذلك مما كشف به أخبار المارقين ، وأسرار المنافقين ، وكان جميعه كما أخبره وصدق الله ورسوله . وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ، ليس فيها شيء من الأخبار بالمغيبات ، وتلك السور معجزة قد تحداهم الله بالإتيان بمثلها ، فلم يقدروا على ذلك وضاقت عليهم مع فصاحتهم المسالك . .

ومنهم من قال إعجازه بما احتوى عليه من العلوم التي لم يسبق إليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت إليها فطن العرب ولا غيرهم من الأمم . . وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد في السنة ، وكلام

العرب مثل هذا ولم يُعد معجزة . . ومنهم من قال إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية ، وغير الواعية إليه واقبالها بوجه المودة عليه واستحلاءِ طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردد عليها من مبشراته المبهجة ومحذراته المزعجة وآياته المقلقة وأخبارة المونقة مع كثرة قرعه للأسماع وصدعه بما يخالف الطباع ، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على اذكاره راغبة في تكراره شجية عند سماع مزماره يجد ذلك منهم البر والفاجر والمؤمن والكافر ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ اَللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ الآية . . وروى أن نصرانياً مرَّ بقارىء فوقف يبكي فقيل له مم بكاؤك ؟ قال : الشجا والنظم . . وفي الحديث الذي وصف به النبي صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه ، هو الفصل ليس بالهزل لا تشبع منه العلماء ، ولا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، وهو الذي لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ الآيات . . وقد اعترض على هذا القول بأنه قد يوجد في السنة ، وكلام فصحاء العرب ، وأشعار فحول الشعراء ما يحسن موقعه ، وتشرئب النفوس إلى سماعه ، ولا تمله على تكراره .

ومنهم من قال : إعجازه بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة ، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة ، وما يلحقها من الخشية سواءٌ كانت فاهمةٌ لمعانيه ، أو غير فاهمة أو عالمة بما يحتويه ، أو غير عالمة كافرة بما جاءَ به أو مؤمنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « القُرْآنُ صَعْبٌ مُسْتَصْعبٌ عَلَى منِ كَرِهَهُ وَهُوَ الحَكم » فهذه الغيبة لم تزل تعتري من سمعه ، وقد اعترت جماعة من الصحابة قبل الاسلام وبعده ، فمات منهم خلق كثير من المؤمنين ، وسلبت به عقول كثير من الموقنين وتدلهت به ألباب جماعة من المحسنين . وقد صح أن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور ، فلما

بلغ هذه الآية : ﴿ أمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَيءٍ أمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ . إلى قوله تعالى ﴿ المسيطرون ﴾ كاد قلبي أن يطير . وفي رواية :أول ما وقر الايمان في قلبي . . وروى أن عتبة بن ربيعة كلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما جاءَ به من خلاف قومه فتلا عليهم : ﴿ حم فصِّلت ﴾ . إلى قوله : ﴿ صاعِقَةً مثلَ صاعِقةِ عادٍ وثمودَ ﴾ فأمسكَ عتبة على في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وناشده الرحم أن يكف . وفي رواية : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبة مُصغ مُلق بيده خلف ظهره معتمداً عليها ، حتى انتهى إلى السجدة ، فسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقام عتبة لا يدري بما يراجعه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه ، حتى أتوه فاعتذر اليهم ، وقال : لقد كلمني كلاماً ما سمعت أذناي بمثله قط ، فما دريت ما أقول له ، ومثل هذا كثير . . وأما من مات عند سماع تلاوة القرآن من المؤمنين وزال عقله وتدله من المحبين ، وراجع الأمر من المذنبين العاصين ، فكثير لا يمكن حصره ولا يسعنا ها هنا ذكره ، فكتب الرقائق فيها من ذلك كثير . .

وقد اعترض هذا القول بأن جماعة من أرباب القلوب وذوي الاستغراق في بديع أوصاف المحبوب حصل له من سماع بعض الأشعار وما أخرجه عن طوره وربما مات على فوره . . وقال قوم : اعجازه حفظ آياته من التبديل ، وصون كلماته من النقل والتحويل ، ولا يستطيع أحد أن يتحيف منه سمطاً ، ولا يزيده شكلاً ، ولا نقطاً ولا يدخل فيه كلمة من غيره ، ولا يخرج منه أخرى ، ولا يبدل حرفاً بحرف ، وذلك من آياته الكبرى ، وكم جهد أهل العناد في ذلك ، فما قدروا له ، وما استطاعوا ، وكم قصدوا تحريفه فأبى الله ذلك ، فأذعنوا له وأطاعوا . .

روى أن يهودياً تكلم في مجلس المتوكل فأحسن الكلام وناظر فعلم أنه من جملة الأعلام ، وناضل فتحققوا أنه مسدد السهام ، فدعاه

المتوكل إلى الاسلام فأبى ، وأقام لفرط الاباءِ على مذهب الآباءِ بعد أن بذل له المتوكل ضروباً من الأنعام ، وصنوفاً من الرفعة والإكرام ، وراجعه في ذلك مرة بعد أخرى ، فلم يزدهُ ذلك إلاّ طغياناً وكفراً فغاب عنه مدة ، ثم دخل إلى مجلسه وهو يعلن الاسلام ويدين دينه فقال له المتوكل : أسلمت؟ قال : نعم ، قال ما سبب إسلامك؟ فقال : لما قطعت من عنقي قلادة التقليد ، وصرت من رتبة الاجتهاد إلى مرتقى ما عليه مزيد نظرت في الاديان ، وطلبت الحق حيث كان فأخذت التوراة ، فنظرت فيها وتدبرت معانيها وكتبتها بخطي وزدت فيها ونقصتُ ، ودخلت بها السوق وبعتها ، فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً ، وأخذت الإنجيل وزدت فيه ونقصت ، ودخلت به السوق وبعته فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً ، وأخذت القرآن وقرأته وتأملته فإذا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ كتبت وزدت فيه ونقصت ودخلت به السوق وبعته ، فنظر فيه المسلمون فعرفوا المواضع التي زدت فيها ونقصت ، وردوا كل كلمة إلى موضعها ، وكل حرف إلى مكانه فعلمت أنه الحق لتحقيق وصفه بأنه كلام الله الذي لا يأتيهِ الباطلُ منْ بَين يدَيهِ ولا مِنْ خلفهِ ، تَنزيلٌ من حَكيمٍ حَميد ، فآمنت به وصدّقت ما جاءَ به .

فصل

اختار القاضي عياض وجماعة أن الاعجاز الظاهر المتحقق إنما هو في الأربعة الأول حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحته ووجوه ايجازه ، وبلاغته الخارقة عادات العرب . الثاني : صورة نظمه العجيب الأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب . الثالث : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، وما لم يكن ، ولم يقع فوجد كما أخبر . الرابع : ما أتى به من اخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة والشرائع الداثرة ، وما عدى هذه الأربعة ، وما دلت عليه خصائص تفرّد بها ومآثر يستأثر بحصولها . . وقال قوم : وجوه اعجازه ثمانية ، وقد قدّمناها في الفصل الذي قبل هذا الفصل ، زاد بعضهم على هذا ، ونقص آخرون . .

وقال قوم : اعجازه في خروج الاتيان بمثله عن مقدور البشر . . وقال قوم : اعجازه صرف الله خلقه عن القدر على الإتيان بمثله ، ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم . . وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة . الأول : أن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل أن الله تعالى عجزهم عنها ، بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحته ، بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدوراً لهم كما أن نبياً لو قال معجزتي أني أضع يدي على رأسي ، هذه الساعة ، ويكون ذلك متعذراً عليكم ، ويكون الأمر كما زعم لم

يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل من تعذر ذلك عليهم ، ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرف .

الثاني : لو كان كلامهم مقاربا في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن ، لوجب أن يعارضوه بذلك ، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحري وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحري وبين القرآن ، ولما لم يكن كذلك بطل ذلك . الثالث : أن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدي فبطل أن يكون الإعجاز بالصرف ، بل الإعجاز ليس بالصرف . .

وكل واحد من هذه الأقوال يحتمل أن يكون معجزة إذا تحدّى بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعجزوا عن الاتيان بمثل ما تحدى به ، وسمي هذا القول معجزة لتعجيزه من رام معارضته والإتيان بمثله ، لانها إسم فاعل من أعجزت يقال : أعجزت هذه القصة فهي معجزة . . والذي يتعين اعتقاده أن القرآن بجملة ألفاظه ومعانيه وبعضه وكله معجزة ، إما لسلب قدرتهم عن الإتيان بمثله ، وإما لصرفهم عنه لأن النبي صلى الله عليه وسلم تحدى به وعرض عليهم الاتيان بمثله فعجزوا عن ذلك ، ولأن الله سبحانه أخبر انهم لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، أو عشر سوَر من مثله ، فعجزوا عن ذلك ، أو سورة منه ، أو آية لتحديه صلى الله عليه وسلم بها ، وعجزهم عن الإتيان بمثلها هذا الذي وقع عليه تصريح الكتاب ، وصريح الخطاب ، ولا مرية في ذلك ، ولا خلاف .

فإن قال قائل : إن سورة من القرآن معجزة ، ومع هذا إنها لم تحتو على جميع ما أودع القرآن من الايجاز وضروب البيان وعذوبة المساق ،

وغرابة الأسلوب والاخبار عن القرون السالفة في الأعصر الماضية إلى غير ذلك مما تقدم ذكره .

فالجواب عنه : أن السورة من القرآن جامعة لجميع ما ذكرناه ، إما منطوق به أو مشار إليه ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُون اللهِ ﴾ فما وقع التحدي إلا بسورة منكرة ، أي سورة كانت ، فهذا دليل على أن القرآن العظيم ، قد احتوت أقصر سورة فيه من المعاني البديعة والفصاحة التي تسدّ بها عن معارضته الذريعة ، ونضرب لك مثالاً ليتحقق عندك ما ذكرناه فنقول سورة الكوثر أقصر سورة ، وفيها من الألفاظ البديعة الرائقة التي اقتضت بها أن تكون مبهجة ، والمعاني المنيعة الفائقة التي اقتضت بها أن تكون معجزة أحد وعشرون ثمانية في قوله : ﴿ إنّا أعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾ وثمانية في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ ﴾ وخمسة في قوله : ﴿ إنّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر ﴾ أما الثمانية التي في قوله : ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر ﴾ فالاول ان قوله : ﴿ إنَّا أعْطَيْنَاكَ الكوثَر ﴾ دلّ على عطية كثيرة مسندة إلى معط كبير ، ومن كان كذلك كانت النعمة عظيمة عنده ، وأراد بالكوثر الخير الكثير ، ومن ذلك الخير الكثير ينال أولاده إلى يوم القيامة من أمته . جاء في قراءة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ـ النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم ـ ومن الخير الذي وعد به ما أعطاه الله في الدارين من مزايا التعظيم والتقديم والثواب ما لم يعرفه الا الله . وقيل : إن الكوثر ما اختص به من النهر الذي ماؤه احلى من كل شيء ، وعلى حافاته أواني الذهب والفضة كالنجوم ، أو كعدد النجوم .

الثانية : أنه جمع ضمير المتكلّم ، وهو يشعر بعظم الربوبية . .
الثالثة : إنه بنى الفعل على المبتدأ فدل على خصوصية وتحقيق على ما بينا في باب التقديم والتأخير . . الرابعة : أنه صدر الجملة بحرف التوكيد

الجاري مجرى القسم . . الخامسة : أنه أورد الفعل بلفظ الماضي دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ، وذلالة على أن المتوقع من سيب الكريم في حكم الواقع . . السادسة : جاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأن المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإيهام والشياع ، والتناول على طريق الاتساع . . السابعة : اختيار الصفة المؤذنة بالكثرة . . الثامنة : أتى بهذه الصفة مصدرة باللام المعـروف بالاستغراق لتكون لما يـوصف بها شـاملة ، وفي إعطاء معنى الكثـرة كاملة .

وأما الثمانية التي في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فالأول فاء التعقيب هاهنا ، مستفادة من معنى التسبب لمعنيين . أحدهما جعل الأنعام الكثيرة سبباً للقيام بشكر المنعم وعبادتـه . الثانيـة جعله لترك المبالاة بقول العدوّ فإن سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال : إن محمداً صنبورٌ ـ والصنبور ـ الذي لا عقب له ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه السورة . الثالثة : قصده بالأمر التعريض بذكر العاص ، وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره ، لغير الله وتثبيت قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم واخلاصه العبادة لوجهه الكريم .

الرابعة : أشار بهاتين العبادتين إلى نوعي العبادات أعني الأعمال البدنية التي الصلاة قوامها والمالية التي نحر الإبل سنامها للتنبيه على ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختصاص في الصلاة التي جُعلت فيها قرة عينه ، ونحر الابل التي همته فيه قوية .

رُوي عنه صلى الله عليه وسلم : أنه أهدى مائة بدنة فيها جمل في أنفه بُرَةٌ من ذهب . الخامسة : حذف اللام الأخرى لدلالة الأولى عليها . السادسة : مراعاة حق السجع الذي هو من جملة صنعة البديع إذا ساقه قائله مساقاً مطبوعاً ، ولم يكن متكلفاً . السابعة : قوله ـ لربك ـ

فيه حسنان . وروده على طريق الالتفات التي هي أم من الأمهات .

وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر وفيه اظهار لكبرياء شأنه واثباته لعز سلطانه ، ومنه أخذ الخلفاء ـ يأمرك أمير المؤمنين بكذا ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خطب الأزدية إلى أهلها فقال خطب اليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم . الثامنة : علَّم بهذا أن من حقوق الله التي تعبد العباد بها إنه ربهم ومالكهم وعرّض بترك التماس العطاء من عبد مربوب ترك عبادة ربه . . وأما قوله : جل جلاله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرْ ﴾ ففيه خمس فوائد . الأولى : أنه علل الأمر بالاقبال على شأنه ، وترك الاحتفال بشانيه على سبيل الاستئناف الذي هو حسنٌ حسنُ الموقع ، وقد كثرت في التنزيل مواقعه . الثانية ويتجه أن نجعلها جملة الاعتراض مرسلة ارسال الحكمة الخاتمة الاغراض كقوله تعالى : ﴿ إنّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ وعنى بالشانيء العاص بن وائل . الثالثة : إنمالم يسمعه باسمعه ليتناول كل من كان في مثل حاله . الرابعة : صدر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم وعبر عنه بالاسم الذي فيه دلالة على أنه لم يتوجه بقلبه إلى الصدق ، ولم يقصد بلسانه الإفصاح عن الحق ، بل نطق بالشنآن الذي هو قرين البغي ، والحسد وعين البغضاء ، والحرد ، ولذلك وسمه بما ينبيء عن الحقد .

الخامسة : جعل الخبر معرفة وهو الابتر ، والشانيء حتى كأنه الجمهور الذي يقال له الصنبور . ثم هذه السورة مع علو مطلعها وتمام مقطعها واتصافها بما هو طراز الأمر كله من مجيئها مشحونة بالنكث الجلائل مكتنزة بالمحاسن غير القلائل ، فهي خالية عن تصنع من يتناول التنكيت ويعمل بعمل من يتعاطى بمحاجته التبكيت .

قال المصنف عفا الله عنه : والأقرب من هذه الأقاويل الى الصواب

قول من قال : إن اعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيف والتحريف والزيادة والنقصان ، فإنه ليس عليه إيراد ولا مطعن .

وقال بعض العلماء : إن إعجازه إنما وقع بكون المتكلم به عالماً بمراده من كل كلمة ، وما يليق بها ، وما ينبغي ان يلائمها من الكلام ، وما يناسبها في المعنى لا يختفي عنه ما دق من ذلك ، وما جل ولا مصرف كل كلمة ، ولا مآلها وغير الله تعالى لا يقدر على ذلك ، لأنه أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ، وهذا القول من الأقوال التي لا مطعن عليها . . وقد عدد العلماء وجوهاً من اعجازه غير ما ذكرناه الأوْلى أن تعد من خصائصه .

وقال قوم : اعجازه من جهة أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة قائمة بالذات ، وإن العرب اذا تحدوا بالتماس معارضتهم له والاتيان بمثله أو بمثل بعضه كلفوا ما لا يطاق . ومن هذه الجهة وقع عجزهم . وهذا القول أيضاً حسن والله أعلم .

فصل

فيما احتوى عليه هذا الكتاب العزيز من تلوين الخطاب ومعدوله، وفنون البلاغة وضروب الفصاحة، وأجناس التجنيس وبدائع البديع ومحاسن الحكم والامثال مفصلاً، ومجملا خاطب العرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم والخطاب الوارد عليهم ينقسم إلى قسمين، باقٍ على أصل مدلوله وموضوعه، ومعدول به عن حقيقته إلى مسموعه، والمجموع ما عدل، وما لم يعدل مائة وعشرون قسماً.

الأول: خطاب عام وهو ما أريد به جميع من يعقل مثل قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ والجبلَّةَ الأوَّلينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

الثاني: خطاب خاص بلفظ عام كقوله تعالى: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعدَ إيمَانِكُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُم ﴾.

الثالث: خطاب الجنس مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾.

الرابع: خطاب النوع مثل قوله تعالى: ﴿ يَا بني آدم خُذُوا زِينَتَكُم عَندَ كُلِّ مَسْجدٍ ﴾ ويريد بني آدم من صلبه خاصة وقوله تعالى: ﴿ يَا بَني اسْرَائِيلَ ﴾.

الخامس: خطاب العين كقوله تعالى: ﴿ يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ

وَزَوجُكَ الجَنَّةَ   يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَام مِنّا . يا ابراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرُؤْيَا ﴾

السادس : خطاب المدح مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

السابع : خطاب الذم كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

الثامن : خطاب الكرامة كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسولُ بَلِّغْ ﴾ .

التاسع : خطاب الإهانة كقوله تعالى : ﴿ إنَّكَ رَجِيم ﴾ .

العاشر : خطاب الجمع بلفظ الواحد كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِكَ الكريم ﴾ .

الحادي عشر : خطاب الواحد بلفظ الجمع كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَاقِبتم فعاقبوا بمثلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ لِلصَابِرِينَ ﴾ خاطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بِالله ﴾ . ومنه قوله : ﴿ وَلَا يأتل أُولُوا الفَضْل مِنْكُم وَالسّعةِ أنْ يُؤْتُوا أُولي القُرْبَى وَالمَسَاكِين وَالمُهَاجِرينَ في سبيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَليَصْفَحُوا أَلَا تحبونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم وَاللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾ خاطب بذلك أبا بكر رضي الله عنه حين حرم مسطحاً رِفدره حين تكلم في حديث الافك .

الثاني عشر : لمالك خازن النار تقديره ألق ألق ، وقد سمع عن بعض العرب يا حَرَسي اضربا عُنقه ـ وقد حمل بعض الائمة قول امرىء القيس :

* قِفَا نَبْكِ منْ ذِكرى حَبيبٍ وَمنزلِ *

على هذا المحمل .

الثالث عشر : خطاب العين والمراد به الغير كقوله تعالى يخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ والمراد به أمته .

الرابع عشر : الخروج بخطاب الحضرة الى الغيبة مثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَينَ بِهِمْ ﴾ .

الخامس عشر : الخروج من الغيبة الى الحضور كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذينَ اسْوَدَّتْ وُجوهُهُم أَكَفَرْتُم بعْدَ إيمَانِكُم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إنّ هَـذَا كَانَ لَكُمْ جَـزَاءً وَكَانَ سَعيُكُم مَشْكُوراً ﴾ .

السادس عشر : خطاب التحنن مثل قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لاَ تقْنَطُوا مِنْ رَحمَةِ اللهِ ﴾ إلى قوله ﴿ تَشْعُرُونَ ﴾ .

السابع عشر : اطلاق اسم العلم على المعلوم .

الثامن عشر : إطلاق المعلوم على العلم .

التاسع عشر : اطلاق القدرة على المقدور .

العشرون : اطلاق اسم الإرادة على المراد .

الحادي والعشرون : إطلاق اسم المراد على الإرادة .

الثاني والعشرون : إطلاق اسم الفعل على أول جزءٍ منه ، وعلى آخر جزءٍ منه .

الثالث والعشرون : إطلاق اسم الأمل على المأمول .

الرابع والعشرون : إطلاق اسم الوعد والوعيد على الموعود .

الخامس والعشرون : إطلاق اسم العقد والعهد على الملتزم بهما ،

السادس والعشرون : إطلاق اسم البشرى على المبشر به .

السابع والعشرون : إطلاق اسم القول على المقول .

الثامن والعشرون : إطلاق اسم النبأ على المنبأ به .

التاسع والعشرون : اطلاق الإسم على المسمى .

الثلاثون : إطلاق اسم الكلمة على المتكلم .

الحادي والثلاثون : اطلاق اسم اليمين على المحلوف عليه .

الثاني والثلاثون : إطلاق اسم الحكم على المحكوم به .

الثالث والثلاثون : إطلاق العزم على المعزوم عليه .

الرابع والثلاثون : إطلاق اسم الهوى على المهوى .

الخامس والثلاثون : إطلاق اسم الظن على المظنون .

السادس والثلاثون : إطلاق المحب على المحبوب .

السابع والثلاثون : إطلاق اسم الظن على المظنون .

الثامن والثلاثون : اليقين على المتيقن .

التاسع والثلاثون : إطلاق إسم الشهوة على المشتهى .

الأربعون : إطلاق اسم الحاجة على المحتاج .

الحادي والاربعون : اطلاق اسم السبب على المسبب .

الثاني والأربعون : إطلاق اسم الكتابة على الحفظ .

الثالث والاربعون : إطلاق اسم السمع على القبول .

الرابع والاربعون : إطلاق إسم الايمان على ما نشأ عنه .

الخامس والاربعون : إطلاق اسم المسبب على السبب .

السادس والاربعون : إطلاق اسم العقوبة على الإساءة .

السابع والأربعون : اطلاق اسم الأكل على الأخذ .

الثامن والأربعون : إطلاق اسم الغلبة على المقاتلة التي هي سبب عنها .

التاسع والأربعون : اطلاق اسم الرِّجز والرجس على عبادة الأصنام .

الخمسون : اطلاق اسم المغفرة على التوبة .

الحادي والخمسون : إطلاق اسم الكبرياء على الملك .

الثاني والخمسون : إطلاق اسم القوة على السلاح .

الثالث والخمسون : إطلاق اسم الإعطاء والإيتاء على الإلتزام .

الرابع والخمسون : إطلاق اسم الفعل على غير فاعله .

الخامس والخمسون : إطلاق اسم الفعل على سببه .

السادس والخمسون : إطلاق اسم الفعل على الأمر به .

السابع والخمسون : إطلاق اسم البعض على الكل .

الثامن والخمسون : إطلاق اسم الكل على البعض .

التاسع والخمسون : إطلاق اسم القيام على الصلاة .

الستون . إطلاق اسم الركوع عليها .

الحادي والستون : اطلاق اسم السجود عليها .

الثاني والستون : اطلاق اسم القراءة عليها .

الثالث والستون : إطلاق اسم التسبيح عليها .

الرابع والستون : اطلاق اسم الذكر عليها .

الخامس والستون : إطلاق اسم الاستغفار عليها .

السادس والستون : إطلاق اسم الذقن على الوجه .

السابع والستون : إطلاق اسم الأنف على الوجه .

الثامن والستون : إطلاق اسم الرقبة على الجملة .

التاسع والستون : إطلاق اسم اليدين على الجملة .

السبعون : إطلاق اسم اليمين على الجملة .

الحادي والسبعون : إطلاق اسم العضد على الجملة .

الثاني والسبعون : اطلاق اسم الأصابع على الأرجل .

الثالث والسبعون : اطلاق اسم الوجه على الجُملة .

الرابع والسبعون : إطلاق اسم بعض الرأس على الرأس .

الخامس والسبعون : إطلاق اسم بعض الأذن على الأذن .

السادس والسبعون : وصف الوجه بالخشوع والخشوع انما يكون في القلوب .

السابع والسبعون : وصفها بالرضى .

الثامن والسبعون : وصف الجميع بما هو وصف البعض .

التاسع والسبعون : اطلاق اسم الفعل على مقاربه ومساوقه

الثمانون : إطلاق اسم الفعل على ما كان عليه .

الحادي والثمانون : إطلاق اسم الشيء على ما يؤول اليه .

الثاني والثمانون : إطلاق اسم المتوهم على المتحقق .

الثالث والثمانون : إطلاق اسم الشيء على ما يظنه الناظر ، وهو على خلافه .

الرابع والثمانون : التعبير بالأذن عن المشيئة .

الخامس والثمانون : إطلاق اسم الشيء على ما لازمه .

السادس والثمانون : إطلاق اسم الحال على المحل .

السابع والثمانون : إطلاق اسم الأفواه على الألسن .

الثامن والثمانون : التعبير بالألسنة عن اللغات .

التاسع والثمانون : إطلاق ترك الكلام على الغضب .

التسعون : التعبير بالإياس عن العلم .

الحادي والتسعون : التعبير بالدخول عن الوطء .

الثاني والتسعون : إطلاق اسم الأسد على الشجاع .

الثالث والتسعون : إطلاق اسم الفوز والحياة على الإيمان .

الرابع والتسعون : إطلاق اسم الظلمة والموت على الجهل .

الخامس والتسعون : إطلاق اسم السراج والنور على الهادي .

السادس والتسعون : إطلاق اسم الحطب على النميمة .

السابع والتسعون : إطلاق اسم الإنسان على تمثاله .

الثامن والتسعون : التجوز بالماضي عن المستقبل .

التاسع والتسعون : التجوز عن الماضي بالمستقبل .

المائة : إطلاق اسم الخبر عن النهي .

الحادي بعد المائة : إطلاق لفظ الخبر عن الدعاء .

الثاني بعد المائة : إطلاق الأمر على الخبر .

الثالث بعد المائة : توكيد الخبر .

الرابع بعد المائة : التجوز بجواب الشرط عن الأمر .

الخامس بعد المائة : التجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي ، وإنما يراد بها ما يقاربها ويلازمها .

السادس بعد المائة : التجوز بالنهي لمن لا يصح نهيه ، وإنما المراد به من يصح نهيه .

السابع بعد المائة : التجوز بنهي من يصح نهيه والمنهي في الحقيقة غيره .

الثامن بعد المائة : التجوز بهل عن الأمر والنهي والتقرير .

التاسع بعد المائة : التجوز بهمزة الإستفهام عن الأمر والإيجاب والتقرير والتوبيخ .

العاشر بعد المائة : التجوز بفي ويتجوز بها في مواضع قد تقدم ذكرها في فصل المجاز .

الحادي عشر بعد المائة : التجوز بعلى ويتجوز بها في مواضع مضى ذكرها في باب المجاز عن ، عن ، وهي حقيقة مجاوزة جرم عن جرم ، ويتجوز بها في المعاني ، وقد تقدم ذكره .

الثاني عشر بعد المائة : التجوز بمن ، وهي حقيقة في ابتداء الغاية في الامكنة ، ويتجوز بها عن ابتداء الغاية في الأزمنة .

الثالث عشر بعد المائة : حرف ثم ، وتستعمل حقيقة في التراخي المعنوي ، ومجازاً في التراخي الزماني .

الرابع عشر بعد المائة : حرف - ما - قال سيبويه : هي للأصناف والأخلاط وهي حقيقة في الإجرام ، وتجوّز في المعاني .

الخامس عشر بعد المائة : حرفا - لعل عسى - وحقيقتهما الترجي والتوقع ويتجوز بهما في الإيجاب . فهذه مائة وخمسة عشر قسماً إذا حررت بتفاصيلها جاوزت المائة وعشرين نوعاً ، بل أكثر من ذلك ، وقد ذكرناها مفصلة معينة بشواهدها من الكتاب العزيز والكلام الفصيح ، وأشعار العرب والمخضرمين والمتأخرين ، ونسأل الله العون والصون والتوفيق إلى ما يقربنا إليه ويزلفنا لديه ، والله الموفق لا رَبَّ غَيره ولا يُسْتَعان بسواه . .

فهرست كتاب

الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان

الموضوع | صفحة

خطبة الكتاب ٣
القسم الأول في الكلام على الفصاحة والبلاغة وفيه عدة أقسام ١٢
القسم الأول في حد الفصاحة والبلاغة واشتقاقهما والفرق بينهما ١٢
الكلام في الحقيقة وأقسامها ١٣
الكلام في المجاز وأقسامه ١٤
القسم ٢ اطلاق اسم السبب على المسبب ٢٣
القسم ٣ اطلاق اسم المسبب على السبب ٢٦
القسم ٤ اطلاق اسم الفعل على غير فاعله ٢٩
القسم ٥ الاخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم ٣١
القسم ٦ اطلاق اسم البعض على الكل ٣٣
القسم ٧ اطلاق اسم الكل على البعض ٣٦
القسم ٨ وصف الكل بصفة البعض ٣٨
القسم ٩ اطلاق اسم الفعل على مقاربه ٣٩
القسم ١٠ اطلاق اسم الشيء على ما كان عليه ٤٠
القسم ١١ اطلاق اسم الشيء على ما يؤول اليه ٤١
القسم ١٢ اطلاق اسم المتوهم على المحقق ٤٢

الموضوع	صفحة

القسم ١٣ اطلاق اسم الشيء على الشيء الذي يظنه المعتقد والأمر على خلافه ٤٣
القسم ١٤ التضمين ٤٤
القسم ١٥ في مجاز اللزوم ٤٦
القسم ١٦ التجوز بالمجاز عن المجاز ٥٠
القسم ١٧ التجوز في الأسماء ٥١
القسم ١٨ التجوز في الأفعال ٥٢
القسم ١٩ التجوز بالحروف ٥٨
القسم ٢٠ الاستعارة ٦٧
فصل وهذه جملة مما احتوى عليه القران الكريم من اقسام الاستعارة ... ٧٢
القسم ٢١ في التشبيه ٨٢
فصل في التمثيل ٩٨
القسم ٢٢ في الايجاز والاختصار ١٠١
القسم ٢٣ في التقديم والتأخير ١٢٠
القسم ٢٤ في الجمع بين الحقيقة والمجاز ١٢٦

(الكلام على ما يختص بالمعاني وينقسم إلى عدة أقسام)

القسم ١ التناسب ويسمى التشابه أيضا ١٢٨
القسم ٢ التكميل ١٣١
القسم ٣ التتميم ١٣٢
القسم ٤ التقسيم ١٣٣
القسم ٥ المؤاخاة ١٣٧
القسم ٦ الاعتراض والحشو ١٣٩
القسم ٧ الالتفات ١٤٤
القسم ٨ الحمل على المعنى ١٥٣

الموضوع	صفحة

القسم ٩ الزيارة في البناء ١٥٥
القسم ١٠ الاطالة والاسهاب ١٥٧
القسم ١١ التكرار ١٦٣
القسم ١٢ القَسَم ١٧١
القسم ١٣ الاقتباس ١٧٣
القسم ١٤ التذييل ١٧٨
القسم ١٥ المغالطة ١٨١
القسم ١٦ الاشارة ١٨٥
القسم ١٧ في الكناية ١٨٧
القسم ١٨ التعريض ١٩٦
القسم ١٩ الاستطراد ٢٠٠
القسم ٢٠ التورية ٢٠١
القسم ٢١ الاحتجاج النظري ٢٠٢
القسم ٢٢ حسن المطالع والمبادىء ٢٠٣
القسم ٢٣ حسن المقطع ٢٠٤
القسم ٢٤ براعة الاستهلال ٢٠٦
القسم ٢٥ الانتقال من فن الى فن ويسمى التخلص ٢٠٨
القسم ٢٦ الاقتضاب ٢١٠
القسم ٢٧ التطبيق ٢١٥
القسم ٢٨ المقابلة ٢١٨
القسم ٢٩ الاحتراس ٢٢٥
القسم ٣٠ الاختصاص ٢٢٦
القسم ٣١ الاختراع ٢٣١
القسم ٣٢ الهدم ٢٣٢
القسم ٣٣ الاستفهام ٢٣٤

الموضوع	صفحة
القسم ٣٤ المزلزل	٢٣٨
القسم ٣٥ التعجب	٢٣٩
القسم ٣٦ السلب والايجاب	٢٤٠
القسم ٣٧ الهزل الذي يراد به الجد	٢٤١
القسم ٣٨ التلميح	٢٤٢
القسم ٣٩ النسخ والسلخ والمسخ	٢٤٤
القسم ٤٠ التعديد	٢٤٥
القسم ٤١ المُوَجَّه	٢٤٦
القسم ٤٢ المحتمل الضدين	٢٤٧
القسم ٤٣ التجريد	٢٤٩
القسم ٤٤ الرجوع والاستدراك	٢٥١
القسم ٤٥ السؤال والجواب	٢٥٢
القسم ٤٦ التوهم	٢٥٤
القسم ٤٧ التشعيب	٢٥٦
القسم ٤٨ الاستثناء	٢٥٧
القسم ٤٩ الغرابة والظرافة والسهولة	٢٥٨
القسم ٥٠ ما يوهم فسادا وليس بفساد	٢٦٢
القسم ٥١ النادر والبارد	٢٦٦
القسم ٥٢ المساواة والتقصير	٢٦٧
القسم ٥٣ التصريح بعد الابهام	٢٦٨
القسم ٥٤ التعقيب المصدري	٢٧١
القسم ٥٥ النفي والاثبات	٢٧٣
القسم ٥٦ الضمائر وما يتعلق بها	٢٧٦
القسم ٥٧ الفصل والوصل	٢٧٨
فصل يشتمل على ذكر جمل عُطف بعضها على بعض بالواو والفاء وثم	٢٨١

الموضوع صفحة

القسم ٥٨ في الوصف ٢٨٣
القسم ٥٩ تنسيق الصفات بغير حرف نسق ٢٨٥
القسم ٦٠ حسن النسق ٢٨٦
القسم ٦١ المدح والذم ٢٨٨
القسم ٦٢ الحمد والشكر ٢٩١
القسم ٦٣ تأكيد المدح بما يشبه الذم ٢٩٣
القسم ٦٤ المبالغة ٢٩٤
القسم ٦٥ الرثاء والتعزية ٢٩٦
القسم ٦٦ الشكاية ٢٩٨
القسم ٦٧ الحكاية ٣٠٠
القسم ٦٨ الاقتضاء ٣٠١
القسم ٦٩ التذكير ٣٠٢
القسم ٧٠ الوعد والوعيد ٣٠٣
القسم ٧١ العتاب والانذار ٣٠٥
القسم ٧٢ الاعتاب ٣٠٧
القسم ٧٣ الاعتذار ٣٠٨
القسم ٧٤ تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل ٣٠٩
القسم ٧٥ الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية ٣١٣
القسم ٧٦ لام التأكيد ٣١٥
القسم ٧٧ الاقتصاد والافراط والتفريط ٣١٦
القسم ٧٨ الغزل ٣١٨
القسم ٧٩ التشبيب ٣٢٠
القسم ٨٠ الاستدراج ٣٢٢
القسم ٨١ خذلان المخاطب ٣٢٥
القسم ٨٣ الاستخدام ٣٢٧

الموضوع **صفحة**

القسم ٨٤ التفقير ٣٢٩

الفن الثاني

القسم الأول التهذيب ٣٣٠
القسم ٢ الانسجام ٣٣٢
القسم ٣ الاشتقاق ٣٣٤
القسم ٤ الجزالة والرذالة ٣٣٧
القسم ٥ السهل الممتنع ٣٣٨
القسم ٦ الرشاقة والجهامة ٣٤٠
القسم ٧ الفك والسبك ٣٤١
القسم ٨ الحل والعقد ٣٤٢
القسم ٩ الازدواج ٣٤٣
القسم ١٠ تضمين المزدوج ٣٤٤
القسم ١١ التسجيع ٣٤٥
القسم ١٢ الترصيع ٣٤٩
القسم ١٣ التسميط ٣٥٠
القسم ١٤ التجزي ٣٥٢
القسم ١٥ التوشيح ٣٥٤
القسم ١٦ براعة المطلب وحسن التوسل ٣٥٥
القسم ١٧ المخالفة ٣٥٧
القسم ١٨ لزوم ما لا يلزم ٣٥٩
القسم ١٩ التفويف ٣٦١
القسم ٢٠ التطريز ٣٦٣
القسم ٢١ ما يقرأ من الجهتين ٣٦٦
القسم ٢٢ رد العجز على الصدر ٣٦٨

الموضوع	صفحة
فصل	٣٦٩
القسم ٢٣ التسهيل	٣٧٣
القسم ٢٤ الاتفاق والاطراد	٣٧٤
فصل	٣٧٥
فصل في إعجاز القرآن العظيم	٣٧٩
فصل	٣٨٦
فصل	٣٩٢
فصل	٣٩٢
فهرست	٤٠١